جائزة كتوبيا للنشر

ON THE BANKS OF THE NINTY RIVER

محمد عبد العزيز الشافعي

على ضفاف نهر التسعين

رواية

كتوبيا للنشر والتوزيع
KOTOPIA PUBLISHING HOUSE

ضباب
t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَـاد،
الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

ترتيب وتصميم: **أشرف غالب.**

t.me/twinkling4

(جميع أحداث وشخصيات الرواية من وحي خيال المؤلف، وأي تشابه بينها وبين الواقع هو من قبيل المصادفة لا أكثر)

عبارة ما قرأتها إلا وأحسست أن مقصود الكاتب هو لفت الانتباه خفية لذلك التشابه الذي ينفيه، لكن ماذا إن كان إحساسي مخطئًا وكان المؤلف يعني بالفعل ما يقول؟! وإذا كان كذلك.. فلماذا إذن أفتتح روايتي بتلك العبارة؟!

(١)

كان الطلاق نقطة فاصلة في حياتي.. لا.. لا أقصد ذلك الإحساس بالفشل ولا وطأة الفراغ العاطفي اللذَان يعصفان بمن يمزق العقد المقدس، واللذان انتاباني، يا هول ما انتابني منهما.

نعم كان زواجًا عن حب، بل عن قصة حب جارفة تضاءلت أمامها في ناظرينا أنا ومحبوبتي –عفوًا أقصد أنا وطليقتي– قصص حب العشاق المخلدة في قصائد أساطين شعراء الغرام.

كان حبنا حب امتلاك عن رضا وتعاقد من الطرفين، عدنا وحدنا لعصر العبيد والجواري فوقّع كلٌ منا للآخر صكًّا للعبودية فصار أحدنا ملك يمين للآخر.. كان أحدنا لا يجرؤ –فضلًا عن أن يشتهي– على فعل شيء دون أن يشاركه فيه الطرف الآخر أو على الأقل أن يُخطره به مسبقًا. كانت تغضب أيام الخِطبة فتخاصمني عدة ساعات إن لم تكن مكالمتها فاتحة يومي قبل أن أغادر فراشي..

- هل تأخرت في الاستيقاظ اليوم؟ الساعة الآن السادسة والنصف.

- لقد هرولت من فراشي إلى الحمام فلقد كنت في أشد الحاجة إليه، فآثرت استكمال طقوس حمام الصباح حتى أحادثك ببالٍ رائق.

- آثرت طقوس الحمام ولم يغالبك الشوق إلى مهاتفتي؟

معذورة إذ غضبت يومها؛ فقد كنا نعد مكالمة الصباح هذه كأذان الصبح للصلاة في محراب حبنا، وهل يصح في شرع الحب أن يؤجل الأذان عن موعده؟... ما أشد شوقي الآن لتلك الصلاة ولذاك الأذان ولصاحبة المحراب.

لست أدري لماذا أغرق رغمًا عني في بحر ذكرياتي معها،

إنني حتى اللحظة أدعوها بحبيبتي.

هل تريد أن تعرف لماذا كان الطلاق إذن برغم ذلك الحب الأسطوري؟ أم أن تعرف كيف كان الطلاق سببًا في تغيير حياتي جذريًا؟

سأخبرك بكل شيء وإلا فلماذا أصدع رأسك بكلامي أصلًا؟

لم يطفئ زواجنا شمعته الرابعة، حمدًا لله أننا لم نرزق فيه بأطفال يدفعون ثمن ما لم تقترفه أيديهم الصغيرة الناعمة التي لم تجترح بعد من الآثام ما يصح أن تخطه الدنيا خطوطًا في أكفهم، كذب قراء الكفوف؛ فخطوط اليد مرآةٌ لماضينا لا بلورة مستقبلنا، فما ذنب طفلنا أن يحمل نقش فراق أبويه خطًّا في يدٍ لم تجترح خطًّا بعد؟

كيف عرفت أنني أكذب في كلامي عن الأطفال؟

أنت محق؛ فمن يصل لمعشار ما وصل إليه حبنا يتمنى من محبوبه تذكارًا روحيًّا يجسد قصة عشقهما للأبد.

أقول لك سرًّا؟ لقد تأخر تنفيذ قرار الطلاق أملًا في أن يحصل كلٌّ منا على بَضعةٍ من دمٍ ولحمٍ تربطه بالآخر أبد الحياة بعد الطلاق!

نعم كانت علاقتنا شديدة الجنون.

ولكننا تغلبنا على أنانيتنا وتوقفنا عن التردد على الأطباء الذين أكدوا لنا مرارًا عدم وجود أية موانع للإنجاب في أيٍّ منا، ولسنا بأي حاجة لا لمنشطات تبويض أو خصوبة ولا لحقن مجهري ولا حتى ضبط هرمونات. وتم الطلاق والمأذون يضرب كفًّا بكف عجبًا لهذين الزوجين اللّذان يوقّعان ورقة طلاقهما بمدادٍ من دموع الحزن على الفراق.

جميع من حولنا كانوا مثلك الآن – بل بالطبع أكثر بكثير – مصدومين من قرارنا برغم كل ذلك الحب الجنوني، ونحن

بدورنا لم نُطلع أحدًا أبدًا على سبب الطلاق..

لا لست عاجزًا ولا حتى ضعيفًا جنسيًّا، بل لم تكن حبيبتي لتأبه لذلك السبب لو كان له وجود! إنها كانت – وأعرف أنها لا تزال بعد الطلاق – لا ترى من رجال الأرض رجلًا سواي، ولا تنس أن الطب اليوم يعالج القصور الجنسي بسهولة، بل في الواقع كانت هي تطلب مني أن أتعاطى مثبطاتٍ لرغبتي المستعرة نحوها يوميًّا بلا فتور في حين كانت هي أقل مني شبقًا بالجنس بكثير، وكانت تعد ذلك التفاوت في الإلحاح الجنسي هو نقطة الخلاف الوحيدة بيننا.

جميع الرجال يدّعون الفحولة؟ صدقت؛ ولكن لا أنا أعرفك ولا أنت تعرفني ولن أراك يومًا ولن تراني حتى أتظاهر بما يرفع رأسي أمامك، بل أنا من ذلك الصنف من البشر الذين حررهم فيروس القراءة والثقافة والذي خالط دمي منذ طفولتي فجعلني أسير دفات الكتب ورهين أرفف المكتبات، أقول: حررتني تلك القراءات من مفاهيم العقل البدائي عن الرجولة، فتخليت تمامًا عن حصرها، بل عن رؤيتها أصلًا في بند الذكورة، فالحمار والثور والأرنب أكثر منا فحولة في الحجم أو قوة الأداء أو وفرة الإنجاب على التوالي!

بل إن حبيبتي لما حاول أخوها – في لحظة رُعونة تليق بشخصيته – وفي جلسة استجواب عائلية مشتركة من أسرتينا لنا عن سبب الطلاق أن يلمح بصراحة وبوقاحة بهذا السبب المهين؛ فوجئنا جميعًا بها تصفعه وهي تصرخ في وجهه باكية:

-لقد كانت صرخاتي وأنا بين يديه كفيلة بإيقاظ الجيران!

بهتنا جميعًا من وقع كلماتها، وطأطأت أنا رأسي خجلًا – وفخرًا في نفس الوقت – مما قالت، بينما وقفت هي تبكي وشفتاها ترتعشان من شدة الانفعال، وهمّ أبوها بها ليَصفعها وهو يقول:

- فضحتني أيتها الوقحة.

فإذا بها تسارع بالاحتماء منه خلف ظهري، فتجمد أبوها في مكانه وعقله لا يستوعب ما يحدث، ثم أخيرًا صاح فينا:

- مجانين.. أقسم بالله إنكما لمجنونان، وهذا سببٌ كافٍ للتفريق بينكما.

لذلك توقف الأهلون عن التعجب وهم يرون كل واحدٍ منا يريد التنازل للآخر عن كل الماديات الملازمة للانفصال... اختلفنا فقط فيمن سيحتفظ بألبوم صور الذكريات والتي كنا نحرص على أن نكتب خلف كل صورة فيه تاريخ ومناسبة التقاطها، وفي النهاية اتفقنا على طباعة نسخةٍ أخرى من كل الصور وإعادة كتابة على ظهر كل نسخة ما هو مكتوب على صورتها الأصلية واقتسام النسختين بالتساوي فينال كل منا نصف الألبوم الأصلي ونصف التقليد!

حتى شقة الزوجية كانت نقطة خلاف معكوسة بيننا..

- سوف أتنازل لكِ إذن عن الشقة.

- أنا لست حاضنة حتى تعطيني شقتك.

- إنه بيتك قبل أن يكون بيتي.

- أنا لم أدفع قرشًا في شرائه، وحتى ما فيه من مفروشات سأتنازل لك عنها.

- لكنه فرشك الذي اشتراه لكِ والدك.

- أنت دفعت نصف ثمنه مهرًا قدمته لي.

وهكذا وقف أفراد أسرتينا وقد اعتادوا عدم الذهول من أي تصرف يرونه منا وظلوا جميعًا صامتين تمامًا يرقبوننا ونحن نتفق في النهاية على أن أدفع لها ثمن ما بذلته أسرتها في تأثيث شقتنا.

وعندها بدأنا مرة أخرى في الفصال العكسي:

- طبعًا لا؛ لا يمكن أن تدفع ثمن المفروشات الذي دفعناه فيها وهي حديثة، لا تنس أنها أصبحت مستعملة.

- لا تنسَيْ أنتِ أنه كان استعمالي أنا.

- بل استعمالنا نحن الاثنين.

- ولكن قيمة الجنيه الآن أقل من قيمته يوم تزوجنا..

هنا صرخت فينا والدتها وصوتها يختنق بالعبرات:

- كُفَّا عن هذا الجنون... إذا كنتما تذوبان في بعضكما عشقًا هكذا.. فبالله عليكما قولا لنا سببًا واحدًا لطلاقكما.

عندها نظرنا أنا وهي إلى بعضنا البعض فلم نتمالك أعيننا من البكاء ولم نطق البقاء أكثر من ذلك، فهرعت هي إلى حجرة نومنا وانصرفت أنا من البيت، وتركنا الباقين يضرب كلٌّ منهم كفوف التعجب لا يفهم شيئًا مما يدور ولا يدري له سببًا.

سأخبرك بكل شيء في وقته، وسأصارحك بسبب الطلاق في حينه... لا.. لا تفتّش في الصفحات الأخيرة من الرواية استعجالًا لمعرفة سبب الطلاق فلست شريرًا لهذه الدرجة بل سرعان ما سأشبع فضولك، ولكن دعني أولًا أخبرك كيف كان الطلاق منعطفًا فاصلًا في حياتي.

(٢)

توقفت حياتي بعد الطلاق – بالتأكيد أنت توقعت ذلك، حتى المستشفى الذي كنت أعمل به توقفت عن الذهاب إليه، برغم أن تخصصي - طب الأمراض الجلدية - لا يحتاج إلى تركيز فائق في العمل ولا تكلف أخطاؤه المريض ثمنًا باهظًا.

انعزلت عن الدنيا واعتصمت بكل سُقُف حجرات شقتنا سارحًا بخيالي فيها.. كأنني أهرب بعيني من ذكرياتنا التي تملأ كل شبرٍ فيها فكان السقف هو ملاذي الوحيد الذي لا ذكريات لنا فيه، حتى سألت نفسي لوهلة؛ لماذا خلا السقف من ذكرياتٍ لنا فيه؟ لكني سرعان ما تذكرت أننا لسنا وطواطين!

فكرت لوهلة أن أبيع الشقة هربًا من ذكرياتها، لكن سرعان ما استغفرت قلبي وعضضت شفتيّ ندمًا على مجرد التفكير في بيع هرم ذكرياتنا الأكبر، وبعد أن غفر لي الحب سوء زلتي عدت ثانية للمشي فوق السقف بعينيّ، ومن سقف حجرة النوم إلى أسقف حجرة المعيشة وحجرة المكتب وحجرة الأطفال الذين لم يأذن الله لهم بالوجود، ومن سقف بَهْو الاستقبال الواسع إلى سُقُف المطبخ والحمّامين... شقة كانت واسعة عندما كنا نطير فيها معا كعصفورين، فصارت الآن عليّ ضيقة كفيلٍ محبوسٍ في قفصه يتعثر فيكل خطوة فيه بأكوام الذكريات وتلال الأحزان.

وبعد أسبوع من التأمل في الأسقف قمت بلا إرادة إلى حاسوبي، وفتحت الفيسبوك وأنشأت عليه صفحة جديدة، صفحة غير حسابي الشخصي الذي توقفت وقتها تمامًا عن الاهتمام به، وظللت أسبوعًا آخر أنتقي لصفحتي تلك اسمًا فلا أجد...

أسميتها: قلوب معذبة.. جرح الذكريات.. وجع البعاد..

قلب حزين.. عشرة السنين.. و و.. وطبعًا لم يرُق لي أي اسم من هذه لأكثر من عشر دقائق، وفجأة وكأني بشخصٍ يهمس لي في أذني أن أسْمِها باسم ابنتك الذي اتفقت عليه مع محبوبتك إن رزقتما بطفلة.

كيف فعلًا لم أنتبه لهذه الفكرة من البداية؟ فهذه الصفحة الوليدة ثمرة زواجنا وإن جاءت بعد طلاقنا!

فأسميتها (حنين)!

ودمعت عيناي دمعتين؛ دمعة تذكر اسم الطفلة التي كنا نحلم بها، ودمعة أخرى بسبب الاسم؛ حنين، فما بقلبي من حنينٍ نحو (سلوى) لا يحتمل المزيد منه حتى وإن كان أحرفًا مكتوبة، وما لا يحتمله القلب من مشاعر لا بد أن تفيض به العيون دموعًا، فنحن نبكي من وطأة الألم أو من شدة الخوف أو من عظم الفرح.. وها أنا أبكي من فرط الحنين.

(حنين) إذن هي صفحتي.. أقصد بنتي.. أقصد ابنتنا أنا و(سلوى)، لكن هذه حنين فأين سلوى؟

إنها حنينٌ بلا سلوى!

وفي لحظات كنت أضع اسمًا نهائيًا للصفحة:

(حنين بلا سلوى)

لعمرك يا (سلوى) هذا هو أنسب اسمٍ لصفحةٍ أرثي فيها حبك؛ أحن إليكِ بلا سلوى تسليني عنكِ سوى ابنتنا (حنين) التي رزقت بها... ولكن بدونك يا (سلوى).

فلا سلوى لي الآن بل حنين.. ولا حنين بلا سلوى!

وكان أول ما كتبته في صفحتي تلك هو بيت الشاعر إبراهيم ناجي في قصيدة الأطلال والتي تغنت بها أم كلثوم:

كيف ذاك الحب أمسى خبرًا

وحديثًا من أحاديث الجوى

وفاضت عبراتي مني، بل بكيت بكاءً طويلًا مرًّا علا فيه صوت نحيبي حتى ردّدته ورائي جدر شقتي.

ولكني أحسست بعد أن هدأت نوبة بكائي تلك إحساسًا غريبًا براحةٍ من غُسلت نفسه على سجادة الاعتراف بين يدي الإله، فعدت إلى أزرار لوحة المفاتيح ونقرت بيتًا آخر من نفس القصيدة:

وحنيني لك يكوي أضلعي

والثواني جمرات في دمي

فبكيت بكاءً أعنف.. ارتجعته الجدران رجعًا أشد.. وارتاحت نفسي بعدها راحة أكبر!

وأحسست بالتعاطف والرثاء لشاعر الأطلال.. بل لكل شاعرٍ وقف على أطلال حبه يبكيه.. لكن أنا أولى منهم بهذا الرثاء فأنا لا أقف خارجًا بل أعيش بين حنايا الأطلال ذاتها ولا أبرحها.

لم أطلب لصفحتي تلك تفاعلًا ولا اهتممت لذلك أصلًا فأنا أكتب ما أكتبه لنفسي، ولذلك أنشأت هذه الصفحة بعيدًا عن حسابي الشخصي وعن أعين أصدقائي فيه، فلم أرسل لأحدٍ منهم طلب الإعجاب بصفحتي تلك، لذلك لم تأتني إلا بضعة إعجابات للصفحة.

ثم أحسست أن ما أنشره من أبيات الشعراء ومقاطع الأدباء لا تغني عني تعبيرًا فوجدتني أكتب معبرًا عن نفسي.. بضع كلمات وخواطر أحسست أنها صادقة وإن كنت بالطبع قد تجنبت أي إشارة فيها تدل على هويتي أو هوية حبيبتي، ثم فوجئت بنفسي يومًا أكتب:

أحببتها ما لي بذلك حيلة سهم الهوى حتمًا بذلك قاتلي

يا الله! أبهذه السهولة يمكن أن نكتب شعرًا؟! أم أن هذا

هو الثمن الباهظ الذي يدفعه كل شاعر من دمه ودموعه ثمنًا لأبيات شعره؟!

- شعر من هذا؟!

هكذا سألتني إحدى متابعاتِ صفحتي القليلات.. نسيت أن أخبرك أن أغلب متابعي صفحتي كن من الفتيات، فهن أرهف إحساسًا من الشباب وأكثر اهتمامًا بالشعر والأدب العاطفي وأشد تألمًا من عضة الحب... وأكثر ضحايا نصابيه أيضًا!

- هذا مجرد بيت شعر أتاني وحيه للحظة ولم يأتني سواه.

هكذا أجبتها.. وهكذا أخذ عدد متابعي صفحتي في الازدياد رويدًا رويدًا، فكنت كلما ماج قلبي بشعور وجاوبه عقلي بخاطرة أسارع بكتابة ذلك الخاطر شعرًا كان أم نثرًا.

أحببتهـــا ما ملّ قلبي حبهـــا

تزداد بالساعات ناري ولهفتي

قد فار دمي والأشواق تحيرت

مهما أتاني وصالها لا أرتوي

- الأبيات جميلة وتفيض صدقًا ومضبوطة وزنًا، لكن قافية نهاية الأبيات يجب أن تكون حرفًا وتشكيلًا معًا وليس تشكيل الكسر فقط.

هكذا علّق أحدهم..

وهكذا بدأت التفاعلات تزداد على صفحتي..

ولأنني لا أريدها صفحة أدبية فقد حولت الدفة سريعًا نحو قصص الحب؛ فشله وعذاباته.. هجرانه وتباريحه.. فرحة بداياته وخيبة أمل بعض نهاياته.

- الصفحة جميلة وأجمل ما فيها صدقها، لكننا نريد أن نكون مشاركين لا مجرد معلقين على منشوراتك فيها يا

دكتور.

هكذا خاطبني أكثر من متابع لصفحتي، وهكذا أنشأت على الفيسبوك ذلك التجمع (جروب) الذي يحمل نفس اسم الصفحة، وهكذا انتقل متابعي الصفحة لعضوية الجروب، وحرصت على جعل الوصول للجروب ومتابعته متاحًا للجميع، بينما قصرت المشاركات والتعليقات على الأعضاء فقط.

وبدأت قصص المتابعين تترى على الجروب، كلٌّ يريد أن يبوح بقصة حبه، وأحكمت قبضتي منذ البداية على كل ما يكتب عليه من منشورات أو تعليقات، وأي تجاوز عن القواعد المنشورة كانت عاقبته الوحيدة حظرالمخالف.

ووجدت في ذلك سلواي وشغل وقتي، فكنت لا أخرج من بيتي إلا لمامًا، بل يكاد خروجي يكون مقصورًا على زيارة والدتي أو أختي من باب البر بهما وإطفاءً للهفتهما عليّ بعد طلاقي...

- هل كل قصصكم هكذا بكائيات على الحب الذي ضاع؟! فمن يساعدني على إنقاذ حبي من أن يضيع؟

هكذا تفاعلت إحدى الصديقات تصرخ باكية من أن زواجها بمن تحبه متوقف على بضعة آلاف من الجنيهات يستكملان بها تجهيزات الزواج الأساسية.

كانت هذه القصة نقطة تحول حقيقية في مسار الصفحة والتجمع، وهنا ظهر وجود أصدقاء التجمع من الذكور العازف أغلبهم عن التعليق والمكتفين بالمتابعة في صمت، وفي خلال أسبوع واحد كان هناك من يتأكد من صدق قصة الفتاة الصارخة طلبًا لإنقاذ حبها، وآخرون تجمعوا لاستقضاء ما ينقصها وزيادة.. ثم جاءت لمسات أولاد البلد كما يقول التعبير الدارج، فتوالت الهدايا على العروسين من بدلة العريس إلى فستان العروس إلى متبرعٍ بزفهما بسيارته إلى مشاركة

عشرات الأعضاء والعضوات في إقامة حفل زفاف لهما تحاكى به أعضاء الصفحة والتجمع بعده لعدة أيام، وكيف اضطرت الفتيات صديقات التجمع اللاتي حضرن العرس لإعادة رسم تجميل العروس عدة مرات بسبب ما كانت تفسده دموعها التي سالت رغمًا عنها طوال الفرح تأثرًا بما ترى!

- لماذا لم تحضر الفرح يا دكتور (سليم)؟ لقد كنا في لهفة للقائك والتعرف عليك.

- أنا آسف منكم جدًّ يا جماعة، لكن اضطررت لمرافقة صديق لي إلى المستشفى.

طبعا كنت أكذب عليهم، فأنا في الحقيقة لم أكن مستعدًّا بعدُ لحضور أي مناسبة إجتماعية فضلا عن حضور حفل زفاف لمتحابين يعيدني منظرهما إلى ذكرياتٍ لا أحب تقليب مواجعها في قلبي.. لقد خفت من نفسي أن أحسدهما!

الجديد بعدها أن طلبات الالتحاق بالتجمع زادت بعد هذه القصة بشكل لم أكن أتخيله، حتى إنني استعنت بعدة مساعدين متطوعين – هن في الواقع متطوعات – من صديقات الصفحة القدامى لقبول أو رفض هذه الطلبات بعد فحص حسابات أولئك المتقدمين لعضوية التجمع والتأكد أنها حسابات حقيقية ينشر صاحب الحساب منهم عليه من وقت لآخر وله أصدقاء يتفاعلون معه إعجابًا أو تعليقًا، وليقمن بإدارة الصفحة معي ومراقبة التعليقات عليها، لكني احتفظت لنفسي بحق قبول أو رفض المنشورات التي تنشر على الصفحة.

ومن الآن فصاعدًا سأتحدث عن كلٍّ من التجمع والصفحة باسم الصفحة.. أنت بالتأكيد تعرف الفرق بينهما، وأنت بالتأكيد أيضًا – كأغلب الشباب –تطلق على أي جروب اسم صفحة مجازًا.

عندما وصل عدد أعضاء الصفحة إلى مائتي ألف عضو أصدرت فرمانًا أن مشاركات الصفحة من الآن فصاعدًا ستقتصر على قصص الحب أو الزواج أو الطلاق الحقيقية، وسنُوقف نشر الأشعار والنثريات والخواطر الأدبية، والتي لو تركت المجال لناشريها مفتوحًا لامتلأت الصفحة بالمئات منها يوميًا، مما شعرت أنه سيذهب بالقيمة الجديدة للصفحة بعد نجاحها الأخير وسينخرها الملل منها كما نخر قبلها عشرات الصفحات الفيسبوكية حتى توارت بالحجاب.

قوبل ذلك القرار برفض عارم من كثير من أعضاء الصفحة التي وجدوها متنفسًا لمواهبهم، فوصلنا أخيرًا إلى حلٍّ مُرْضٍ للجميع إذ خصصنا على الصفحة رابطًا لتلقي كل إبداعات الأعضاء الأدبية، وتطوع أحد أعضاء الصفحة يعمل مدرسًا مساعدًا في قسم اللغة العربية بكلية الآداب – نعم هو صاحب التعليق السابق على أبيات شعري – ليختار منها ما هو أفضلها فيزكيه لنا لننشره على واجهة الصفحة، وزيادة في إرضاء محبي الشعر والأدب قررنا عمل مسابقة شهرية لأعمالهم تلك يكون اختيار الفائز فيها مشاركة بين تصويت الأعضاء ورؤية المشرف على رابط الأعمال الأدبية.

أما القرار الحازم الذي اتخذناه – أنا ومساعدات صفحتي – ومنذ بداية شهرة الصفحة، فهو منع أي منشورات ذات طابع سياسي أو خلاف ديني مما تموج بهما مصرنا موجًا منذ سنوات، وعدم الاكتفاء بحجب نشر ذلك المنشور الذي لا ينشر إلا بموافقتي أصلًا من البداية وإنما يتم أيضًا حظر صاحبها فورًا...

لا حديث عن شرعية ولا عن انقلاب عسكري، ولا كلام عن خير أجناد الأرض ولا عن حربٍ على الإرهاب

لا منشورات عن الديموقراطية ولا عن الخلافة الضائعة ولا

عن الحكم المدني أو نقيضه العسكري ولا ابن عمه الديني

وأيضًا لا مكان لقصص حبٍّ يكون طرفاها مسلمًا ومسيحيًّا

هنا واحةٌ للقلوب النابضة وملاذٌ للأرواح الحائرة.. هنا تضميد جراحٍ ومواساة مواسٍ بالدعم النفسي أو المالي

لا أهلي ولا زمالك بل لا وجود لكرة القدم في ملعبنا هذا أبدًا

لا تنابُذ بأسماء المدن والمحافظات ولا تفاخر بين أصحاب المهن المختلفة؛

إسكندراني ولا فخر.. الصعيد أرض الرجولة.. بورسعيد بلد الرجال.. المهندسون في الصفحة اجمع هنا.. الضباط في الصفحة سجّل وجودك برتبة أو بمكان الخدمة.. الأطباء هنا نوّه عن تخصصك بكلمة لا يعرفها سوى أهل التخصص.. إلخ هذه الأكلشيهات التي صارت تصادفك بسماجتها في أغلب تجمعات وصفحات مواقع التواصل...

كل هذا ممنوع بل محظور بل محجوب البوست ومحروم صاحبه من الاستمرار معنا!

هل تتصور أن تلك القواعد الصارمة كانت سببًا كبيرًا في زيادة شهرة وانتشار الصفحة؟

الملايين من الشباب كانوا في تعطشٍ لمناخٍ هادئ محايد في تلك الأيام التي كان الاستقطاب السياسي والفكري عنوانها، حتى دخلت شحناؤها جدران البيوت وغزت مكاتب العمل وضربت جلسات الأهل والأصدقاء.

أنتم حزب الكنبة..

هذه صفحة النعام الدافني رؤوسهم في رمال البلد عما يحدث فيه من محاولات لتفتيته..

يا كاتمي الشهادة ويلٌ لكم من إثم قلوبكم على كتمها..

أنتم وأعداء الوطن سواء...

هذه عينات مما كنا نتلقاه من رسائل من بعض من لم يعجبهم لون الصفحة الأبيض الناصع البياض تمامًا عن مخالطة أي لونٍ أو اتجاه، فكان التجاهل لها هو خير علاج، ثم بدا لنا من بعد ما علا صوت اعتراض البعض أن نجري استفتاءً بين جمهور الصفحة؛

هل توافق على استمرار الصفحة في خطها المحايد تمامًا:

١- أوافق.

٢- لا أوافق.

٣- يتم تخصيص رابط للتعليق على الأحداث المهمة فقط وقت حدوثها.

لا لم يتم التصويت لصالح الاختيار رقم ٣ كما تتوقع، بل اكتسح الاختيار رقم واحد بنسبة تفوق الـ٨٠ ٪

الكل كان يريدها صفحة بيضاء جديدة في حياتهم التي تلوثت وتشوشت حتى تشوهت بألوان الشقاق وآثام السياسة.

وهكذا تفرغت الصفحة تمامًا لبث أحزان القلوب والرَّبْت على ظهور المتعبين ومدّ يد الدعم النفسي والمعنوي والمادي لمن يرفع يده طلبًا للعون.

وفي مقابل ذلك كان علينا – أنا ومساعداتي الجدد – أن ننتبه ونتعامل بحرص أمام طوفان طلبات المساعدات في الزواج التي انهالت على الصفحة والتي كان أغلبها بالطبع – وللأسف أيضًا – طلباتٍ غير مستحقة، فخصصنا رابطًا في الصفحة لتلقي تلك القصص وطلبات أصحابها، وتطوعت بعض صديقات الصفحة ممن تعملن في وزارة الشئون الاجتماعية لمتابعة هذه الطلبات والتأكد من صدقيتها، ثم يأتي دوري أنا بعد ذلك في نشر ما ننتقيه من حالات على واجهة الصفحة الرئيسية وفتح المجال للأصدقاء لمساعدة أصحابها.

- صباح الخير يا دكتور (سليم) ومعذرة أني أراسلك على الخاص على حسابك الشخصي على الفيسبوك. أنا صديق صفحتك الجميلة (حنين بلا سلوى) وأحرص على متابعة كل ما ينشر عليها بانتظام، وفي الواقع أنا أجد فيما ينشر عليها سلواي عن قصة زواجي الفاشلة، وإن كنت لا أظن أنني سأكون أحد موضوعاتها يومًا، إلا أنني حريص على استمرارها وعدم تعرضها لأية مشاكل. أنا رائد (شريف صبرة) من الأمن الوطني، لا تخف فليست لنا على الصفحة أية ملحوظات، أنا فقط أنصحك بصفة شخصية بعدم التوسع في مجال المساعدات، وحسنًا فعلت إذ خصصت رابطًا خاصًّا لفرز هذه الطلبات، المهم ألا يتحول موضوع المساعدات المالية هذا إلى ظاهرة تتحدث عنها مواقع التواصل، أنت بالتأكيد تقدر ما تمر به بلادنا من ظروف خاصة وما تواجهه من تحديات، والتي يموّل الكثير منها عن طريق جمع التبرعات بصورةٍ ظاهرها بريء، حتى صار جامع كل تبرعاتٍ مشتبه فيه لدينا إلى أن يثبت العكس. إذا أحببت التأكد من شخصيتي فيمكنك تشريفي بالزيارة في مبنى الإدارة بمدينة نصر، وإذا أحببت أن يبقى تواصلنا هنا عبر الماسنجر فأنا تحت أمرك في أي طلب أو مشورة تحتاجها.

تحياتي.

أخذني التفكير لفترة بعد انتهائي من قراءة هذه الرسالة، ولم أفهم كيف يمكن أن تتعارض مساعدات الصفحة لبعض أصدقائها مع ما تمر به البلاد من ظروف، لكني تذكرت المشاكل التي تعرضت لها بعض الصفحات المشابهة وكذلك بعض نشطاء العمل الاجتماعي على مواقع التواصل.

وارتبت كثيرًا في مصداقية من يدعي أنه شريف صبرة، لكن الرجل يدعوني لزيارته إن ارتبت في أمر رسالته، وحسابه على الفيسبوك الذي راسلني من خلاله تؤكد التفاعلات عليه أنه

ضابط شرطة.

واحترت حقًّا؛ هل الرجل يريد مني زيارته فعلًا؟ أم أنها ستكون زيارة عنوانها الشك مني في صدقه؟

ولأنني ممن يؤثرون السلامة فقد قررت عدم زيارته، ورددت عليه برسالة لطيفة أشكره فيها على نصيحته وأرجوه فيها أن ينبهني إذا أحس أن منحنى المساعدات في الصفحة قد خرج عن مجاله المفترض له بالسماح، وتمنياتي له بالتوفيق في حياته العاطفية فنرى مشاركة منه مستقبلًا تحكي قصة حب ناجحة، ولم أنس بالطبع أن أؤكد له أنني أثق في صدق رسالته لي وأنني أتشرف باللقاء به والتعرف إليه إذا سمح وقته هو بذلك والذي أعلم كم هو مشغول؛ في ظل ما تمر به البلاد.. إلخ.

وبذلك ألقيت كرة الزيارة إلى ملعبه هو. ولم يفُتني أن أتأكد بعدها من بعض المعارف من وجود ضابط فعلًا بهذا الاسم في الأمن الوطني وتطوع من أخبرني من نفسه بإنبائي أنه مطلق حديثًا.

وقررت أيضًا الأخذ بنصيحته والإبقاء على موضوع المساعدات في حدوده الضيقة بالرغم من اعتراض بعض المساعدات اللاتي أصبحن يَرَيْنَ أن هذا هو هدف الصفحة الأساسي، هنا أدركت صواب قراري، فهدف الصفحة الأساسي هو.. السلوى عن الحب؛ ولكن لا شيء يسليني عن سلواي!

أرأيت كيف أنني لا أنسى حبيبتي؟ لكنك بالتأكيد لاحظت أنني لم أعد أكثر الحديث عنها كما كنت في سابق حديثي.. لا شيء ينسيني إياها أبدًا لكني على الأقل وجدت في "حواديت" صفحتي من يزاحمها في شغل عقلي بها.

لذا قررت استمرار التركيز في الصفحة على قصص المحبين وحواديتهم.. فلا شيء يسلي عن الأحزان مثل القصص

والحواديت، ألم يسلِ الله أنبياءه عن أحزانهم وعناد قومهم لهم بما قصه عليهم من قصص؟

وضحكت ساخرًا من نفسي؛ فخواطري التي أحاول بها نسيان حبي قادتني إلى تذكر سبب خلافاتنا من حيث لا أدري!

ها أنا ذا أهز رأسي بعنف طاردًا خواطرها، مركزًا في حياتي الجديدة التي أحاول ملأها بصفحتي تلك التي أنستني حتى عملي والذي بدأت أتلقى إنذاراته لي بالفصل بسبب غيابي عنه، لا يهم؛ فطالما هناك رصيد في البنك من ميراثي الذي ورثته عن أبي فلا بأس أن تذهب وزارة الصحة إلى الجحيم بملاليمها الأقل بين مرتبات الأطباء في العالم، وليكفني اعتراف نقابة الأطباء بلقبي: الطبيب، أو الدكتور كما يطلق على كل من يمتهن الطب حتى ولو لم يكن يحمل شهادة الدكتوراة التي لم أفكر يومًا في حملها.

وعدت لأغرق في قصص الحب المرسلة إلى صفحتنا، أنتقي ما يستحق النشر منها

أكثرها بكائيات والقليل منها يضحك...

بعضها يحكي غرائب المواقف والصدف، وهذه كانت تستحوذ على أكبر الاهتمام من المتابعين...

وبعضها يطلب النصيحة والمشورة فيما يعترض طريق حبه...

وهذه كانت نقطة التحول الكبرى الثانية في مسار الصفحة!

(٣)

لم تكن قصص المحبين تلك التي تطلب النصيحة والمشورة نقطة تحول فقط في مسار الصفحة، بل كانت أيضًا عاملًا مساعدًا على إنضاج تفكيري. ورويدًا رويدًا بدأت أفهم أن الحب ليس كل شيء، وأن من ظروف طرفي الحب ما لا يتفاعل معه الحب أبدًا ولا يذيبهما، فيبقيان زيتًا وماءً لا يتفاعلان سويًّا مهما قلبتهما ملعقة العيش المشترك ولا يذوبان في بعضهما مهما ارتفعت بهما حرارة الفراش.

لكني لم أكن أضرب الغيب حتى أستشف قبل زواجيتلك التغيرات الفكرية العنيفة التي ضربت عقل (سلوى) بعده، لقد كانت فترة شديدة الوردية تلك التي فصلت بين تعارفنا وتحابنا وبين زواجنا، فترة غطى وطغى لونها الوردي على كل ألوان الحوار الأخرى، فلم نكن نتكلم إلا في الحب وعن الحب وللحب وبالحب فلا نخرج من حديث الحب إلا إلى نظرات الحب.

لذلك كنت أرى في قصص طالبي المشورة ما لم يكونوا يرونه وأعينهم تعشى بأنوار الحب الباهرة المسلطة عليها، فيا للحكمة ما بال ثمنها هكذا باهظًا؟

ولم أكتف بنفسي بالطبع في الرد على هذه القصص، بل بدأت بالاستعانة ببعض المختصين، فمن طبيب نفسي إلى أخصائي اجتماعي إلى شيخٍ مفتي إلى قسيسٍ شاب، وصولًا إلى الاستعانة ببعض المحامين أو ضباط الشرطة الأعضاء في الصفحة... كلٌّ حسب قصته ومشكلته.

هذه كانت هي نقطة التحول الثانية التي كلمتك عنها بالنسبة للصفحة...

لقد أخذت الصفحة منحنا يشبه بريد القراء في الصحف الكبرى والتي أخذت مواقع التواصل تزاحمها في استحواذها

على اهتمام الشباب حتى أزاحتها.

وأخذنا نطور شكل التفاعل مع القصص الشائكة أو التي استحوذت على اهتمام جمهور أصدقاء الصفحة، وبدأ التفاعل يأخذ أحيانًا شكل مؤتمرات الفيديو التي تبث حية على رابط فيديو خاص بالصفحة يشارك فيها صاحب المشكلة ومن يريد مساعدته من المختصين.

ثم أخذ البعض يطلب – خارج إطار القصص – مشورات نفسية أو قانونية أو اجتماعية، وهنا بدأت الصفحة تدر عليّ خيرها!

صارت الصفحة وسيطًا مدفوع الأجر للاستشارات مدفوعة الأجر أيضًا، ثم سمحتُ بالإعلانات على الصفحة للذين تهم أعمالهم أهل العشق والهوى...

من معارض تجهيزات الزفاف إلى قاعاته.

ومن فنانات رسم المكياج إلى منسقات حفلات الأعراس.

ومن أصحاب محلات الورود إلى مصممات فساتين الزفاف إلى أصحاب محال الهدايا.

حتى أصحاب الروايات العاطفية صار بعضهم يطلب الإعلان عن رواياتهم في صفحة الحب والحنين.

والفلانتاين وما أدراك ما الفلانتاين! ليس فقط كون الإعلانات حوالي ذلك اليوم بل ومن قبله. بأسبوعين قد تضاعفت عندي ثلاثة أضعاف على مضض مني! ولكن لكون ذلك المضض كان أحد الخلافات القليلة التي دبت يومًا بيني وبين حبيبتي...

- حبيبتي أنتِ تعرفين أني لا أؤمن بالفلانتاين.

- ولا أنا أيضًا يا حبيبي أؤمن به.

- أنتِ لا تؤمنين بشيء أصلًا!

- أنا أؤمن بالعلم، العلم يا دكتور!

- والعلم قال لنا أن نحتفل بالفلانتاين؟

- قال لنا أن لمسات الحب تعزز إفراز هرموني الدوبامين والأوكسيتوسين الّذين يمُداننا بالسعادة والطمأنينة في جوار من نحب.

أمسكت بيدها في حنان وقلت لها:

- وأنتِ؟ أتفتقدين لمسات حبي؟ أم أن أرضك عطشى لهرمونات حبها وسعادتها؟

أغمضت عينيها في حب وهي تقول:

- إدماني لك لا يجعلني أرتوي منك أبدًا، لكنك أنت من تضن عليّ بالمزيد.

احتضنتها وأنا أهمس في أذنها:

- وذلك المزيد ألا يكون إلا في عيد ديني أو عبر مظاهر الثقافة الغربية التي أعتز بالتميز عنها؟

نزعت نفسها برفق من حضني وابتسمت وهي تقول:

- قليلٌ منك يكفيني.. ولكن القليل منك كثير.

وهكذا كسبت هي جولة خلافنا، وفي اليوم التالي أخذت أنا أنتقي لها هدية فلانتاين لا تبدو تقليدية حتى لا تُحس أنني اشتريتها إحراجًا لحبنا، لدرجة أني أمضيت في تجهيز هديتها نهارًا كاملًا لا يتوقف فيه عقلي عن التفنن في الاختيار ولا لساني عن الاستغفار!

نفس الاستغفار الذي أستغفره الآن لِما أحسه من شبهة العائد المالي الذي يأتيني من إعلانات الفلانتاين.. وقد صارت إعلانات صفحتي مصدر رزقٍ لي!

وهكذا صارت ابنتي اليتيمة الأم هي محور حياتي الجديدة.

(٤)

أليس مثيرًا للسخرية أن أضحت صفحتي تُدِرّ عليّ أضعاف أضعاف ما كنت أتقاضاه من عملي طبيبًا؟ لكن لا تنس أيضًا أن ذلك المال الجديد يمكن أن يتوقف في لحظة واحدة يقرر فيها الفيسبوك أو مراقبو خدمة الإنترنت في مصر إيقاف صفحتي، أو حتى أن يتوقف معجبو صفحتي عن الاهتمام بها.

- دكتور (سليم) هل أطمع في أن تخاطب إحدى دور الأزياء التي تعلن على صفحتنا في عمل تخفيض خاص لأختي في فستان زفافها؟

وقبل أن أرد بكلمة مبروك انتبهت، فهذه (مها) إحدى مساعداتي في إدارة الصفحة، في الواقع هن أربع مساعدات، هل هي مجرد تطلب ذلك التخفيض؟ أم أنها تَلفت نظري بشكل لطيف إلى أحقيتهن في نسبةٍ ما مما أصبحت تدره الصفحة من مال؟ إن كل واحدة منهن تنفق عدة ساعات من يومها في مراقبة المشاركات والتعليقات وفحص طالبي الالتحاق.

واحمرّ وجهي خجلًا، وحمدت الله على سلبيات التواصل عن بعد، فلو كنت أقف أمام (مها) الآن لذبت منها خجلًا.

لذا سارعت بالتواصل معهن – واحدة تلو أخرى – أعتذر مقدمًا عن عدم انتباهي مسبقًا لذلك الأمر، ثم أخبر كل واحدة بقراري تخصيص نسبة النصف من الأرباح لهن معًا، طبعًا تمنّعنَ في البداية كعادة النساء في الحياء ثم لم تلبث كل واحدة منهن إلا أن تذعن موافقة... إلا (تسنيم)!

كانت هي لحسن الحظ آخر من تواصلت معها منهن، في البداية تصورتُ أنها تتمنع تعففًا كصاحباتها، ثم لما أصررتُ على عرضي متصنعًا الظَّرف في حواري معها فوجئت منها بكلمات الغضب.

لم أدر لحظتها هل كان غضبها حقيقيًا أم مزاحًا، تلك سلبية الوجه الآخر من سلبيات الدردشة عن بعد، لكن بعد فوات الأوان أدركتُ أن غضبها حقيقي إذ فوجئت بها تعتذر عن الاستمرار في إدارة الصفحة بل إنها ستغادرها!

وفعلًا فوجئت بها تنفذ كلامها!

واحترت ماذا أفعل، لا يمكن أن أسأل زميلاتها عن سبب غضبها هذا لأنني بذلك أعرضهن للحرج، وهنا طرأت في ذهني فكرة فأعدت مراسلة (تسنيم) مرة أخرى لكن على صفحتها الشخصية، وترجوتها ألا تُحرج زميلاتها لأنها ستكون هي الوحيدة التي ترفض هذا العرض، وهن بالتأكيد سيتساءلن عن سبب مغادرتها للصفحة، وأنها بذلك ستعكر صفو الصفحة وانسجام طاقم عملها، وأنها يمكنها التبرع – بيني وبينها – بحصتها تلك لحالات المساعدة التي تقوم بها الصفحة أو التنازل عنها لزميلاتها.

ويبدو أنني أحسنت الدخول إليها هذه المرة فوافقت مرحّبة، ثم لم تلبث الدردشة بيننا أن طرقت أبوابًا أخرى تعارفنا فيها على بعضنا البعض واستفاض الكلام حتى استمرت دردشتنا لأكثر من ثلاث ساعات.

لم أحكِ شيئًا عن أسباب طلاقي التي ما تزال سرًّا بيني وبين حبيبتي، وبالطبع لم أحكِ ما يدل على حبنا الأسطوري، لكني فوجئت بها تسألني:

- إذا كنت تحبها كل ذلك الحب فلم كان طلاقكما ؟!

وذهلت من سؤالها، وقفزت عيناي سريعًا على سطور حواري معها فلم أجد ما يدل على سبب استنتاجها ذلك، لدرجة أنني شككت أنها تعرفني أو تعرف (سلوى) مسبقًا!

- لو كنت أحبها لما طلقتها!

هكذا فوجئت بأصابعي تكتب، ثم هكذا فوجئت بها ترد

عليّ:

- مستحيل، ردك هذا يؤكد ظنوني بأنك تعشقها عشقًا، إنك طوال الوقت تتحدث عنها هي ولا تتحدث عن نفسك إلا لمامًا ولم تذكرها بكلمة سوء واحدة، لقد وصفتها لي يا دكتور حتى كأنني أراها أمامي، أقول لك شيئًا؟ أستطيع تخمين أن اسمها حنين أو سلوى!

وصعقت من كلامها، هذه الفتاة إما شديدة الذكاء أو مرهفة الإحساس بشكل لا يصدق.. أو دسيسة عليّ ممن يريد معرفة سبب طلاقنا الذي ما يزال سرًّا بيني وبين سلواي.

لكن مهلًا.. أنا من فتحت الكلام معها وأنا من ترجوتها للعودة الى إدارة الصفحة.

وهنا أخذت أقلب في صفحتها الشخصية على الفيسبوك.. صفحتها مليئة بالصور لها؛ إما وحدها أو مع طفلها أو مع أفراد أسرتها... ولا أعرف منهم أحدًا.

وكان من السهل أن ألاحظ من صورها سبب رفضها لما عرضته عليها من نقود.. فهذه أسرة ثرية بل شديدة الثراء.

- هل انتهيت من التقليب في صوري؟

هكذا سألتني قاطعة حبل صمتي وأنا أقلب بالفعل في صورها، فقررت مجاراتها في لعبة الذكاء.

- لا أجد صورة واحدة لكِ مع زوجك.

صمتتْ طويلًا حتى ارتبت أن تكون قد غضبت، لكنها ردت بعد فترة.

- هو مُعار من جامعة القاهرة للتدريس في كلية الهندسة جامعة الملك سعود بالرياض.

- لكن صورك لا تشي أبدًا بأنكم بحاجة لأي مال.

صمتت مرة أخرى فأدركت سريعًا فشلي في معركة الذكاء بل

بغباء سؤالي فتداركت سريعًا وسألتها:

- هل كان أستاذك في الجامعة؟

ردت:

- نعم، خطبني وأنا طالبة في السنة الثانية وتزوجنا في نهاية السنة الثالثة وبعد أن حصل هو في نفس العام على درجة الدكتوراة.

- اها.. لهذا تبدين صغيرة على أن يكون لكِ طفل له مثل سنه هذا.

وهكذا أنقذتُ دفة الحوار من أن يغرق مني في بحر الإحباط واستمر مبحرًا حتى ختمته هي بقولها

- لقد احترمت رغبتك في عدم ذكر سبب طلاقك وإن كنتُ واثقة أنك ستخبرني به يومًا ما!

*****

شردتُ طويلًا بعد هذه الدردشة.. لا لم أشرُد في حديثي مع (تسنيم) كما تظن، إلا لبضع دقائق أتعجب فيها من طريقتها في الحوار ويتساءل عقلي عن معنى جملتها الأخيرة؛ معنى هذا أنها ستستمر في محادثتي برغم أنها سيدة متزوجة، ماذا تريد هذه المرأة؟ هل هو فقط الفضول الذي قد يقتل المرأة إن لم تشبعه؟وإنما شرد ذهني في طريق آخر... أيام الجامعة وحب الجامعة!

لا أزال أذكر أول يوم قابلت فيه (سلوى) في إحدى كافيتريات جامعة القاهرة، كانت هي تدرس في سنتها الأولى في كلية الطب في حين كنت أنا في السنة الخامسة، لا تنتظر مني أن أصف لك شكلها فأنا أغار عليها من أبيها وأمها، فقط يكفيك أن تتخيل مثال أحلامك تتجسد أمامك مبتسمة لك.

كانت إحدى جاراتها في السكن والتي تدرس معي في نفس

السنة الدراسية هي مفتاح التعارف غير المخطط مسبقًا بيننا..

قصة مكررة كثيرًا في كل الجامعات.. لكن غير المكرر كانت قصة حبنا غير العادية، لقد رأيتنا بنفسك كيف كنا عند الطلاق، لك أن تتخيل كيف كنا إذن في غمرات حبنا أول أمره.

إياك أن ينساق عقلك وراء ثقافة الجنس المستوردة التي غزت العقول هذه الأيام، فأنا لم أذق طعم شفتيها إلا بعد توقيعنا عقد الزواج، ذلك العقد الذي تأخر عدة سنوات عن يوم بداية تعارفنا بسبب إصرار والدها – أستاذ الحميات في نفس كلية الطب التي كنا ندرس بها – على إكمالها تعليمها الجامعي قبل الزواج، حتى إنه وافق على مضض على عقد الزواج في سنتها الرابعة بعد إلحاحٍ مني ومن والدي رحمه الله والذي كان مستعدًا لتزويجي في أيةٍ لحظة وهو الطبيب الذي عمل في أكبر مستشفيات الكويت لأكثر من عشرين عامًا.

وما بين عقد الزواج وإتمام الزفاف الذي تمسك والدها ألا يتم إلا بعد تخرجها، لم تدعني أذق أكثر من شفتيها، لدرجة أنها خاصمتني يومًا بليلته – تلك مدة طويلة في قاموس حبنا لو كنت تدري – لأنني تهورت يومها ومددت يدي إلى ما رأت هي أنه لا يصح لي أن ألمسه بعد...

- ما فعلته ليس بحرامٍ يا (سلوى)؟

- لكنه لا يصح في عرفي أنا، ثم أرأيت؟ لأول مرة تناديني باسمي منذ سنوات.

- غيرنا يفعل أضعاف ذلك، أنتِ زوجتي شرعًا.

- إن كنت تحبني بصدق فلا تأخذ مني ما لن أعطيه إلا إرضاءً لك عن غير طيب خاطرٍ مني.

فتاة هذه قناعاتها كان لا بد أن أضعها في مقلة عيني فوق ما هي ساكنةٌ حجرات قلبي.

لذا لم أتوقف كثيرًا عند إهمالها في صلاتها بدعوى الكسل وإنما واظبت على تحبيبها في الصلاة على أمل أن تنتظم فيها بعد زواجنا. . . الكثير من الفتيات كذلك.

وأيضًا لم ندع - نحن الاثنين - موضوع الحجاب ليكون محلًا لخلافنا:

- إن ملابسي أكثر حشمة من كثيرٍ من الفتيات المحجبات.

- ومن قال لكِ إنهن محجبات؟ الحجاب ليس مجرد سترة رأس.

- إذا كان الحجاب ليس بغطاء شعر فلماذا تطالبني به؟

- لأن الحجاب لا يكتمل إلا به.

- ما أستطيع فعله أن أعدك بأنني لن أرتدي أبدًا ما يثير غيرتك.

خلافات بسيطة يحدث أضعافها بين كل المتحابين، بل إن سهم الحب أحيانًا ما يصيب قلبين ليسا على دينٍ واحدٍ أصلًا، بل كثير من الفتيات من يكن قبل الزواج لا يصلين أصلًا ويرتدين كل ما يحلو لهن ويلفت الأنظار إليهن ثم يتحولن بعد الزواج والاستقرار العاطفي إلى شيخات.

لم يكن هناك إرهاص واحد يدل على أن (سلوى) بعد الزواج ستضربها كل تلك التحولات الفكرية العنيفة التي ضربتها!

(٥)

- إذا كنت توافق على الفكرة يا دكتور (سليم) فلماذا تُحجم عن المشاركة فيها؟ إن أي تجمع لأعضاء الصفحة والجروب لن يكون له معنى بدونك.

هكذا أخذت مساعدات صفحتي – عبر الدرشة الجماعية التي دارت بيننا – في إقناعي بالحضور في ذلك التجمع الذي اقترحته (مها) أنشط المساعدات:

- سنؤجر قاعة واسعة في فندق مناسب ونعلن عن ذلك التجمع على الصفحة لمن يحب المشاركة فيه، لقد جسست نبض أصدقاء الصفحة فوجدت ترحيبًا بذلك بل حماسًا بالغًا له، وقد ألمحت للأعضاء أن الحضور ليس مجانيًّا؛ لأننا سنؤجر قاعة وسنقدم بوفيهًا معقولًا فلم يتراجع الحماس إلا قليلًا.

- وما علينا من ذلك؟

- ألست اجتماعيًّا يا دكتور؟ حتى لو لم تكن كذلك فانظر إلى مميزات ذلك الحفل لصفحتنا؛ سنرفع درجة حرارة التفاعل مع الصفحة قبل أن يتسلل الملل إلى أعضائها، سنؤجر لافتات إعلان لمن يريد وضع إعلاناته في الحفل، وسنوجه الدعوة للمجلات الشبابية لتغطية الحفل فيستفيد كلٌّ منا من شهرة الآخر.. لا بد من أن نتطور يا دكتور وأن نظل سابقين بخطوة.

في الحقيقة كنت متحمسًا للفكرة، لكن قلبي لم يكن مستعدًّا بعدُ لمخالطة الناس بالرغم من مرور كل تلك الشهور على طلاقي.

كأنها عِدة طلاقٍ لي اختيارية لكنها مفتوحة المدة غير محددتها.

كنت طوال الشهور الماضية من عدتي رهين محبسَين؛ شقتي

وحاسوبي المحمول.

زيارة أو زيارتان أسبوعيًا لأمي وبعض الزيارات المتقطعة لأختي الوحيدة.

وأحيانًا كنت أتناول الإفطار بالقرب من منزلي، فأمشي قرابة الربع ساعة قاصدًا مركز (داون تاون) التجاري القابع بإحدى ضِفتي نهر شارع التسعين الكبير؛ ذاك الشارع الأهم و الأشهر في منطقة التجمع الخامس الفاخرة بالقاهرة الجديدة، و الذي يفيض جانباه بالمراكز التجارية الفخمة و الجامعات و المدارس الدولية و النوادي الفارهة و مقار الشركات و المؤسسات، حتى ليمكنك عد شارع التسعين للقاهرة الجديدة كالنيل بالنسبة لوادِيه، لذا لم أكن بحاجة أبدًا طوال أيام عزلتي لمبارحة ضفاف نهر ذلك التسعين، بالذات ذلك المركز التجاري القريب من منزلي حين أقرر تناول إفطاري في مطعمي المفضل الذي في الطابق الأرضي منه، فأختار مائدة في الجزء الخارجي من المطعم في الهواء الطلق في أقصى ركنٍ منه أتأمل وجوه الناس كي لا أنسى وجود بشرٍ حولي في هذه الدنيا.

وهذا كان كل ما أطيقه من خروج بخلاف صلاة الجمعة الأسبوعية في أقرب مسجدٍ من بيتي.

لا تزال صلاة الجمعة تتمثل بذكراها الطريفة لي؛ فبرغم ما طرأ على (سلوى) من تغيرات فكرية حادة إلا أنها كانت تحرص على طقوس صلاة الجمعة لي، فتُعد لي جلبابًا خليجيًّا مَكويًّا وتُشعل بعضًا من بخور العود الكمبودي في الشقة وتحُثني على عدم التأخر عن بداية الخطبة...

- من يرى هذا الذي تفعلينه لا يصدق ما طرأ عليكِ من أفكار!

- هذه نقرة وتلك أخرى، ولو كنتَ مسيحيًّا لمَا تركتك تتخلف عن قداسات الأحد!

وسحبني من فيض ذكرياتي تنبيه الماسنجر لي، كانت رسالة من (تسنيم) على الخاص في حسابي الشخصي:

- هل لا تريد حضور الحفل لأنك اعتدت الوحدة وعزفت عن اللقاءات الاجتماعية؟ أم لأنك ترجح أن فتاتك تتابع صفحتك وتخشى أن تصادفها في الحفل فيتجدد عندك ما انطفأ من آلام الحنين؟ أو حتى أن تكون قد أرسلت إحدى صديقاتها لحضور الحفل؟

وصعقت لهذه الرسالة! هذه المرأة تخبئ بالتأكيد كاميرا في بيتي ومكبرًا للصوت في عقلي، وإلا.. فكيف عرفتْ ما أخبئه عن كل البشر؟ حتى أمي أُوهمها بأني أعيش حياتي الطبيعية ولا أعتزل الناس.

- ذكاؤكِ أصبح يخيفني يا بشمهندسة.

هكذا وجدت أصابعي تنقر بتلقائية ردًّا عليها، فردت هي:

- وأنت طبيب، أي أنك أعلى مني مجموعًا في الثانوية العامة.

- نحن أعلى مجموعًا لأننا أكثر جديةً في التحصيل الدراسي، أما المهندسون فمشهورون بذكائهم، لكني لم أتوقع كل ذلك منكِ.

- ما تتحدث عنه لا علاقة له بالذكاء الرياضي أو الهندسي، ربما هو ما يسمونه بالذكاء العاطفي أوذكاء قراءة من أمامك.

- أفهم من ذلك أنكِ تحاولين قراءتي؟

ضحكت هي من خبث السؤال وأرفقت مع الوجه الضاحك في رسالتها:

- هي طبيعة فيّ أن أقرأ كل من يحيط بي، فما بالك وصفحتك تشغَل عدة ساعات من يومي؟

الحديث مع هذه المرأة يحتاج لتركيز، وأنا أستهلك كل ما

لدي منه في إدارة الصفحة، لم تنتظر هي إجابة فأردفت:

- يجب أن تحضر ذلك الحفل، (مها) محقة فيما قالته لك.

- (مها) هذه تعجبني عقليتها التجارية، أحيانًا أحس أنها تستحق من عائدات الصفحة أكثر مما أستحق أنا.

- أنا أيضًا عقليتي تجارية كما يقول لي والدي دائمًا، وجميعنا نبذل مجهودًا كبيرًا في إنجاح الصفحة.

وضحكتُ لأول مرة منذ شهور، فمهما أوتيت حواء من نعيم الدنيا ومواهبها فالغيرة عندها هواءٌ تتنفسه.

- جميعكن بالفعل تبذلن مجهودًا رائعًا.

هكذا أجبتها فغيرت هي مجرى الحديث وقالت وكأنها أخذت موافقتي الضمنية على حضور الحفل:

- دع موضوع اختيار القاعة وتنظيم البوفيه لي، ستجد شيئًا باهرًا وبأسعارٍ لا تصدقها.

رددت عليها مازحًا:

- هل تمتلكين قاعة احتفالات؟

- لا، ولكن والدي هو صاحب مطاعم (أضنة كباب) وجميع أصحاب القاعات ومديري الفنادق يشترون خاطره.

الآن أدركت سبب ما تشي به صورها على الفيسبوك من ثراء، إنها واحدة من أكبر وأشهر سلاسل المطاعم في مصر كلها، ماذا تفعل هذه المرأة في صفحتي؟ لكني تعمدت ألا أعلق على ما قالته لي فأجبتها:

- هذا خبر عظيم، الآن اطمأننت على تنظيم الحفل حتى وإن لم أتمكن من الحضور.

- لا.. لا بد من حضورك، أم أنك لا تريد أن تتعرف على مساعِداتك؟!

(٦)

كنت أعتقد أنني بعد الزواج سأستطيع أن أحبب سلواي في الانتظام في الصلاة، فإذا بها بعد فترة قصيرة تمتنع عنها كليةً.

جربت معها كل وسائل الترغيب فلم أفلح، ناقشتها فقالت:

- إذا كان الله يعلم أن قلوبنا مؤمنة به فلماذا يطلب منا أن نصلي؟

- الصلاة دليل على إقرارنا بعبوديتنا لله.

- وهل الله بحاجة لدليل كي يعرف مكنون قلوبنا؟

- بل هي صلة يومية تبقيكِ موصولة بربك.

- إذا آمن القلب فعلًا فهو موصول بربه بغير حاجة لصلاة.

- الله هو من يحدد هذه الصلة وليس نحن.

- ألا يجب أن نقتنع؟

- هل رأيتِ في حياتك إنسانًا موصولًا بربه ولا يصلي؟

- رأيت أناسًا يصلون وأخلاقهم رديئة ورأيت أناسًا لا يصلون وأخلاقهم رفيعة بشكل لا يصدق.

- ألا تقولين: إنكِ تؤمنين بالعلم؟ كلامك هذا ليس علميًّا، هل لديك إحصائيات بأعداد كل فريق؟ أم أنكِ لا تعلمين أن العلم يرفض التعميم بسبب سلوك بضعة أشخاص؟ ثم إنني أحدثك عن الصلة بالله وليس عن أخلاق الناس.

- وهل الصلة بالله تغني عن حسن الخلق؟

- وهل حسن الخلق يغني عن الصلة بالله؟

ونظل هكذا ندور في دوائر من الحوار مفرغة لا نصل فيها إلى شيء.

ثم جربت مرة أن أخاصمها على ترك صلاتها فلم يتحمل قلبي خصامها لأكثر من ساعة، ظلت هي في خلالها تدور ورائي من غرفة إلى غرفة تبكي كطفلة صغيرة تاهت من أسرتها على شاطئ البحر المزدحم، فلم أتمالك أن احتضنتها فدخلت هي في نوبة طويلة من البكاء حدّ النحيب حتى بادلتها دمعًا بدمع، ثم نظرتْ لي بأعينٍ ذابلةٍ وقالت بصوت يرتجف:

- إياك أن تفعلها ثانية يا (سليم)، إلا إذا كنت تريد قتلي تنفيذًا لحد تارك الصلاة كما يقول بعضهم!

(٧)

لأول مرة منذ ستة أشهر أخرج في مناسبة اجتماعية، ويا لَلعجب تكون مناسبة أنا نجمها.

وفعلًا قامت (تسنيم) بحجز قاعة واسعة رائعة في أحد فنادق حي الدقي، ذلك الحي الوسط بين شطري العاصمة؛ القاهرة والجيزة، والقريب أيضًا من محطة رمسيس للقطار، فكان اختيارًا وسطًا لكل أصدقاء الصفحة سواء كانوا من أهالي القاهرة الكبرى أم ممن تكبدوا السفر لحضور الحفل من المدن والمحافظات الأخرى، وترجتني ألا أخبر أي واحدة من المساعدات الأخريات عن صفة والدها وأن أتظاهر بأن الحجز تم عن طريقي أنا أو عن طريق أحد أصدقاء الصفحة والذي فضل بقاء اسمه مجهولًا.

ولم أنس أن أتصل بالرائد (صبرة) لأدعوه للحفل بصفة شخصية، فأجابني شاكرًا دعوتي وأنه سيحاول الحضور فقط لكي يتعرف عليّ ولكنه لن يمكث إلا قليلًا، ورجاني ألا أخبر أحدًا – في أثناء الحفل أو بعده – لا بشخصيته ولا بعمله.

كانت (مها) كالعادة هي الأكثر نشاطًا وجاءت إلى القاعة قبل الجميع لمتابعة أدق التفاصيل، أما (تسنيم) فقد ظهرت مهارتها التجارية مرة أخرى حين أصرّت على أن تكون تذكرة الحفل بمئة وخمسين جنيهًا، وراهنتنا جميعًا على نفاد جميع التذاكر وهو ما كان بالفعل حتى إن الحفل خرج رابحًا مبلغًا محترمًا، فهمت فيما بعد سبب إصرارها إذ كان الحفل فرصة ينتظرها الكثيرون للبحث عن قلوبٍ جديدة!

فوجئت أن المساعدات الأربع قد ارتدين نفس الفستان –وإن اختلفت بعض تفاصيله ضِيقًا واتساعًا وطولًا وقِصرًا حسب حشمة كل واحدة منهن أو درجة تبرجها –كأنهن وصيفات عروس في حفل زفاف، بل اشترطن عليّ رابطة عنق ومنديلًا

لبدلتي يكونان من نفس لون فساتينهن.. هذه أمورٌ تُجيدها الفتيات بالفطرة.

كانت فكرة صائبة أن أتعرف على مساعداتي كما قالت (تسنيم)، فلوحة المفاتيح وشاشة الكمبيوتر لا تظهران أبدًا شخصية الإنسان كما هي في الواقع الحقيقي.

(مها) التي تبدو أكثرهن نشاطًا هي أيضًا أكثرهن مرحًا، ولا تكف عن الضحك والابتسام حتى لتتوه منها مخارج بعض كلماتها أحيانًا إذ لا تتوقف عن المرح حتى وهي تتحدث، عيناها الضيقتان لهما نظرة مَن عركته الحياة مبكرًا وشفتاها الصغيرتان كأنهما تُطبقان على سرٍّ دفين، متوسطة القامة طولًا وامتلاءً ونصف حظها من الجمال في شعرها المسترسل نعومة إلى ما تحت أسفل ظهرها، لم تسمح لفستانها بتحديد أي معالم لجسدها نصف الممتلئ وإن تركته يحكي عن ساقيها البضّتين.

و(تسنيم) – التي حرت في مغزى كلامها عن أهمية أن أتعرف عليهن – لوّحت بيدها لي في الهواء قبل أن أمد يدي للسلام عليها فأفهمتني في ذوق أنها لا تصافح الرجال، وأمّن حجابها وفستانها الفضفاض على تصرفها هذا، في حين أفصحت عيناها الواسعتان السوداوان عن شقاوة طفلة مشاغبة وحزنٍ مكتومٍ في نفس الوقت، وكأنها أرادت إعلان كل ذلك للعالمين فأطّرته بإطارٍ واضحٍ من كحل العيون وأهملت ما سوى ذلك من مساحيق الزينة.

أما (دنيا) أصغر المساعدات سنًّا والتي لا تزال تدرس الإعلام في الجامعة الألمانية فاختارت أضيق فستانٍ من بينهن وأقصرها طولًا إلى ما فوق الركبة بشبر ولكن تكفّل قوامها الرياضي النحيف بتخفيف حرارته، ولم تكتفِ بالسلام باليد وإنما فاجأتني بقبلتين على وجنتيّ، ولثانية لمحت غضبًا

مكتومًا في عيني (تسنيم) سرعان ما أشاحت بهما بعيدًا.

أما (لبنى) – المساعدة الرابعة – فهي أكثرهن جمالًا، لم يستطع حجاب رأسها إخفاء وضاءة وجهها، في حين تكفل فستانها بتحديد قوامها الملفوف في روعة، لذا فقد اخترنها هن بدون تدخل مني لتكون هي مقدمة فِقرات الحفل... لست أدري أين ذهبت هنا غيرة النساء! لكنهن علّلن اختيارهن بأنها أكثرهن جرأة على مواجهة الجمهور وعلى الحديث أمام الناس.

كان حفلًا رائعًا بالفعل، وكان أروع ما فيه الروح التي سادته من الحضور، كأننا جميعًا كنا أصدقاء من أيام الجامعة مثلًا ثم نظمنا حفلًا نتجمع فيه من جديد بعد طول بعاد.

وتنوعت فقراته ما بين كلمات الترحيب مني ومن (مها) والتي أعدت كلمتها بعناية كأنها ستتقدم بها إلى مسابقة أدبية، إلى مشاركات بعض من تبنت الصفحة مشاكلهم من قبل والتي لاقت تفاعلًا من الأعضاء ليُشبعوا فضولهم لمعرفة إلى أين انتهت تلك المشاكل بأصحابها، ثم مشاركات فنية لبعض الفرق الشبابية الجديدة والتي اخترنا لونها الفني بعناية كي تناسب طبيعة صفحتنا وخصوصية حفلتها، مع مشاركات بعض مستشاري الصفحة الطبيين والحقوقيين والنفسيين؛ تلك الفقرة التي استحوذت على أكثر الاهتمام من حضور الحفل.

كانت فقرة الدكتور كريم النشار الذي أصر على أنه ليس مدرب تنمية بشرية؛ ذلك الاسم الذي صار مثيرًا للتساؤلات والارتياب، وإنما سمى نفسه مدربًا للحياة (life coach) معتمدًا، كانت هي الفقرة الأكثر تفاعلًا من الشباب، كثير من الشباب تائه وبحاجة لمن يأخذ بيده في هذه الدنيا بعد أن افتقد القدوة و البوصلة، أقول هذا كأنني رجل أربعيني خالط الشيب شعر صدره في حين أني لم أتجاوز عتبة الثلاثين إلا قليلًا، هل أنا من نضجت بسبب تجربتي؟ أم بكثرة قراءاتي

التي لا حدود لها؟ أم أن أجيالنا أجيالٌ معاقة في نضوجها النفسي والعقلي فلا تصل إليه إلا بعد فوات زهرة العمر؟ فيكون الناضج فيها في شرخ شبابه أمر استثنائي الحدوث!

وهمست (مها) في أذني باسمة:

- يجب أن نحصل على أجر إعلان من الدكتور النشار، سيخرج من هذا الحفل بعشرين متدربًا جديدًا على الأقل.

وضحكتُ من قلبي من كلماتها، لكن سرعان ما غاصت ضحكتي وأنا أسمع إحدى الفتيات تسأل الدكتور النشار:

-لا أدري ماذا أفعل بعد أن اكتشفت أن خطيبي الذي أحبه حد الجنون له شكوك دينية عنيفة.

وبسببها أكملت باقي الحفل في وادٍ آخر من الذكريات!

(٨)

نعمة كبرى أن تشاركك حبيبتك هوايتك للقراءة.

لكنها لن تكون كذلك أبدًا إذا تناقضتما معًا في هوية ما تقرآن.

لم تكن حبيبتي أيام حب الجامعة تبدي شغفًا كبيرًا بألوان الكتب سوى ولعها بقراءة الروايات كأغلب الفتيات هاويات القراءة فلا تصافح أناملهن الرقيقة سوى صفحات القصص وأغلفة الروايات.

ثم أظهرت اهتمامًا بالروايات الممنوعة وتلك الأخرى المثيرة للجدل، بل أظهرت لبعضها حماسًا كبيرًا وشغفًا بها، وانتقدت بمرارة حجب أي كتاب أو مصادرة نشر أي رواية في وطننا العربي...

- هل أعدّد لكِ الروايات السياسية التي حجبت في روسيا ودول المعسكر الشرقي؟ أم أسرد أسماء الروايات التي منعت في الغرب تحت دعاوى العنف أو معاداة بعض الأعراق؟

تمتمت قائلة:

- كلٌّ يغني على ليلاه ويتقي هواجسه، لكنّا أكثر هوسًا بالدين فنحمّل الفن والأدب منه ما لا يحتملان.

وجرف تيار الحب سفينتنا بعيدًا عن التوقف أمام أي تباين في أفكارنا، لم نكُ نرى أصلًا أي خلافٍ أو تباينات، نحن وجهان لعملة، حالتان فيزيائيتان لنفس المادة، عنصران في مركب كيميائي واحد، لون أبيض لا يسطع إلا في حضرة نقيضه الأسود، هرمون ذكورة لا خصب له إلا بين حنايا عطر الأنوثة.

وانشغل الطيْران في بناء عشهما، وصدحا يتغنيان بأناشيد الطيور حين تبني أوكارها، فجاوبهما صوت الحب مغردًا لهما.. آمرًا كل حناياهما بالإنصات له وحده، فاستكان نبض

القلب لصوت الحب، وتناغمت معه كل خواطر النفس، حتى أصوات العقل خفتت أمامه فأطاعته وتغنت بألحانه معه.

وما إن اختتمت الجوقة أنشودة العش بأجمل ما تكون قفلات ألحان الهوى حتى افتتحت سيمفونية الشهد والعسل، وتفنن الطيْران في ري أوصالهما بماء العشق، ما إن يأتيان على رشف قطرات كأسٍ منه مترعة حتى يشرعان في صب كأسٍ آخر، وقارورة الحب ما لها من نفاد.

وطال ذهولنا – نحن الطيْران – حتى بدأت أنامل الدنيا تدق علينا أبواب عزلتنا في حياء، ورويدًا رويدًا راحت تسحب مركبنا من عرض بحر العسل إلى شواطئ صخب الحياة ومتطلباتها.

وعدنا مرغمين إلى ضجيج الدنيا وعجيج أسواقها.

فهمستُ في أذنها برقّة:

- لو كان حظي من جنة الخلد جزيرة تعزلنا في أقصى الفردوس فأنا بكِ راضٍ.

فضحكت في دلالٍ وهمست لي:

- أو بوتقة تصهرنا معًا في قعر جهنم فأنت على قلبي بردٌ وسلام.

وبهت لوهلة من كلماتها ثم أجبتها:

- ليس في جهنم أي برد ولا سلام، لكني أتمناكِ زوجتي في الجنة الأخرى كما جعل الله دنياي بكِ الجنة الأولى.

هزت رأسها وقالت:

- لا تذهب في كلامي بعيدًا عن مقصده، إنما كان مراد كلماتي أن أفوق حبك بحب.

لكن طيري هو من حلّق بعيدًا في سماء أفكاره

صارت (سلوى) تنحصر قراءاتها في كل ما هو شك

شك في كتب الأحاديث النبوية وطريقة جمعها وتدوينها

ارتياب في بعض آيات القرآن وطريقة جمعه..

- تتكرر قصة النبي موسى بتفاصيلها المعادة عشرات المرات، بينما تأتيك سورة الكهف بثلاث قصص غامضة لا تروي غليلك منهن لا بمعرفةٍ ولا بموعظة، فلماذا هذا الإطناب الممل ولم ذاك الاختصار المخل؟ لماذا لم تأت قصص القرآن كلها رائعة محكمة محبوكة مكتملة في موضع واحد كما هي في قصة يوسف التي اعترف القرآن بأنها أحسن قصصه؟

حتى الأنبياء صارت تكلمني عن أدلة وجودهم التاريخية فلا دليل إلا على وجود محمد وعيسى، بل وفي تحديد موطن كل منهما بدقة بعض الشك والنزاع بين من تسميهم بعلماء التاريخ والآثار!

أنصتتْ إلى نظرية أن الأديان بدأت وثنية متعددة ثم تطورت إلى توحيدية ثم ارتقت فرفعت إلاهها الواحد فوق السماء، وبالتالي فإن البشر هم من خلقوا الله وليس الله هو من خلق البشر... النظرية هي من تدّعي ذلك ولست أنا؛ هكذا تتدارك في كلامها.

واهتمت كثيرًا بنظريات من قالوا بتطور الأديان عن بعضها البعض.. سمّت أنبياء الأديان بمؤسسيها.. وآمنت بتطويعات مؤسس كل دينٍ دينه لما يوافق أفكاره الشخصية..

- إذا كنتَ أنت المسلم تؤمن بتحريف كتب المسيحية واليهودية، فلماذا تستكثر على غيرك أن يشكك في كتابك المقدس؟

- لأننا مسلمون وديننا هو خاتمة الديانات، ولولا ما لحق من تشويه بالأديان السماوية التي كانت قبلنا لما أرسل الله نبينا محمد.

- أنت مسلم لأنك ولدت مسلمًا، ولو كان اسمك عند ولادتك بطرس أو كوهين لكانت لك الآن أفكارٌ أخرى تمامًا.

- وأجدادي وأجداد بطرس وكوهين كانت لهم يومًا ما دياناتٌ أخرى قبل أن يعتنقوا دينهم الجديد، الدين ليس وراثيًّا كلون شعرك البُني يا حبيبتي كما تعتقدين.

- حبيبي لا تنكر أن أغلب التحولات الدينية في التاريخ كانت تحت ظلال السيوف، يغزو جيش الإمبراطور ما حوله من البلاد فيتحول أهلوها إلى دين الغزاة بعد لَأْيٍ من الزمن طال أو قصر.

- حسنٌ؛ سمي لي الجيش المسيحي الذي فتح الإمبراطورية الرومانية، أو ذلك المسلم الذي فتح إندونيسيا أو بلاد وسط إفريقيا، ولماذا لم تتحول بلاد الدنيا التي اجتاحها المغول لديانتهم؟ بل تحول المغول أنفسهم بعضهم للمسيحية و أغلبهم للإسلام؟

- دعنا من نقطة انتشار الأديان فذلك أمر تتصارعه عشرات الأسباب والعوامل، لكن هل يمكننا أن ننكر تطور الأديان واستقاء أفكارها من بعضها البعض؟

- طبيعي أن تتشابه الأديان الإبراهيمية فقد سطعت من مشكاة واحدة.

- وهل من الطبيعي أن يتغير مسارها وبعض أدبياتها ومصطلحاتها بمجرد احتكاكها بأفكار الأديان والفلسفات الأخرى؟ وهل من المعقول أن يؤدي ذلك إلى توزعها بين عشرات الملل والطوائف والفرق العقائدية في الدين الواحد؟

- هل تحاسبين الدين على ما يفعله به بعض أتباعه؟ أم تريدين صب عقول الناس في قالب واحدٍ من الفهم؟

وهكذا كانت تدور مناقشاتنا حول ما صار يتسلل إلى عقلها مما بات يشغله بكتبه وإصداراته ومنصات نشره الإلكترونية.

كانت تسارع إليّ كلما وقع بين يديها كتاب أو مقال يأتيها بالرد على تفنيداتي التي سبق أن فندت بها بعض ما ألقت به عليّ من شبهات.

فأسارع أنا بدوري في البحث عما يرد على ما ردت هي به، لتبادر هي بضرب الكرة إلى ملعبي لتنظر كيف سأددها لها من جديد. ومن نظريات نشأة الأديان إلى نظرية نشوء وارتقاء الكائنات إلى الاعتقاد في دارونية كل شيء.

- ما هذا الكتاب، يا حبيبي؟

- هذا كتاب (يوجد إله)الذي ألفه (أنتوني فلو) الذي كان يومًا ما أهم رافعٍ لراية الإلحاد في الدنيا ليرد به على نفسه في كتابه السابق الأشهر (لا يوجد إله).

ابتسمتْ في غير مبالاة تؤكد معرفتها بالكتاب وصاحبه:

- ذلك كتاب ألفه شيخ ثمانيني قد ذهب بعض عقله.

- لم يكن ذلك رأيكم فيه حتى يومٍ واحدٍ قبل أن يؤلف كتابه هذا.

-تكلمني وكأنني ملحدة!

- ما أنتِ فيه هو بداية طريق لم أعد أذق النوم بسببه شفقة عليكِ منه، أم ماذا تسمين ما أنتِ فيه إذن؟

- لا أدري... أقصد أنني صرت لا أدرية، agnosticكما يسمونها!

(٩)

كنّ محقات فعلًا في إصرارهن على تنظيم ذلك الحفل وعلى ضرورة حضوري فيه.

كنت أعلم أنهن على صواب، لكني كنت أتعمد الهرب.

أهرب من نفسي التي ما تزال تائهة تبكي ضياع نصفها الثاني في غياهب الإلحاد وخوفي عليها من مصيرها في الآخرة.

أعزف عن مقابلة أي امرأة أخرى، ليس خوفًا من أن أقع في حبٍّ جديد ولكن لأني أرى وجه (سلواي) فوق أعناق كل النساء وأرى ملامحها في محيا كل امرأة أقابلها؛ فلا عينٌ رُسمت ولا أنفٌ صُورت ولا شفتان خُطت إلا بملامح وجه حبيبتي.

لكني رضيت فعلًا عن قرار تنظيم الحفل وحضوره برغم ما أثارته من شجوني تلك الفتاة التي سألت سؤالها عن خطيبها الذي بدأ يسافر بعيدًا في شكوكه الدينية.

لقد كان الحفل نقطة تحول ثالثة في مسار الصفحة، كأنه كان حفل تدشين لها يخرج بها عن مجرد كونها صفحة وجروب على الفيسبوك.

الدعوات التي وجهتها مساعداتي لبعض المجلات ومواقع الصحافة الإلكترونية الشبابية تُرجمت إلى تغطية من تلك المجلات والمواقع للحفل، بل نوهت عنه بعض الإذاعات الشبابية في معرض متابعتها لفرق الشباب التي دعوناها وأذاعت تسجيلًا لبعض الأغاني التي غنتها في الحفل.

وناهيك عن طلبات عشرات الآلاف من الشباب للالتحاق بالصفحة؛ فإن نظرة المجتمع الافتراضي لصفحتنا أصبحت مختلفة، صارت الصفحة ناديًا مشهورًا لأصحاب القلوب

الجريحة، وملاذًا رسميًّا لكُتاب الشعر والخواطر العاطفية، ومستشارًا مؤتمنًا لطلاب النصائح نفسية كانت أو طبية أو اجتماعية أو قانونية تتعلق بالحب والزواج والطلاق.

وأصبحنا نتلقى طلبات كثيرة من أطباء نفسيين ومدربي تنمية بشرية وقانونيين ليُدلوا بدلوهم في بحر الاستشارات المتزايدة طلباتها علينا، وصرنا نختار وندقق ولا نقبل أي طلب بسهولة.

صارت إعلاناتنا أغلى

حاولت بعض الجمعيات الخيرية التواصل معنا للمساهمة في مساعدة الحالات التي تطلب مساعداتنا وبعد نقاش قصير بيني وبين مساعداتي قررنا الاعتذار لهن جميعًا.

الجديد عندي أن متابعي الصفحة صاروا يتعاملون معي تعاملهم مع كبار الصحفيين أصحاب بريد القراء في جرائدهم ومجلاتهم، صارت الكثير من الرسائل تخاطبني بلقب سيدي وحضرتك وأستاذنا الكبير!من قال: إن الشهادات والخبرة هي مفاتيح ثقة الناس؟ الشهرة تغنيك عن كل هذا.

صرت أتلقى عشرات الإشعارات يوميًّا عن وجود رسائل على بريد حسابي الخاص على الفيسبوك...

أكثرها من معجبات... لا لم أفرح بهن كما تعتقد، ليس لأني نحرت مفتاح قلبي على مذبح ورقة الطلاق، ولكن لأني قرأت مسبقًا عن هذا النوع من المشاعر التي لا تخرج عن أن تكون غريزة الإعجاب بالمشاهير أو حتى أنصاف المشاهير، قد تكون رغبةً من الفتاة في التباهي بحب أو صداقة أو حتى مخادنة ذلك الذي تراه مشهورًا، أو رغبة منها في التسلّي، أو ربما هي قلوب جائعة للعاطفة تلقي بسنارتها في كل بحار الحب المحتملة... بل وارد بأن تكون مصيدة! فحتى بكونك مجرد صاحب صفحة شهيرة على الفيسبوك لا تخلو من حُسّادٍ

لا تعرف عقولهم غير طريق الكيد تفكيرًا...

(مؤسس جروب حنين بلا سلوى يصطاد الفراشات الجميلة من على صفحته)... لا أحب أن أكون عنوانًا كهذا على صفحات مجتمعات النميمة.

ورسائل أخرى كثيرة من شباب يطلب المساعدة في إيجاد عملٍ أو تطلب واسطة!

لا تتعجب، فبعضهم راسلني طالبًا وساطتي للعمل بالحقل الفني وآخر طلب إعفاءً من التجنيد العسكري! كنت أضحك مثلك كما تضحك أنت الآن حتى فهمت تفكير بعضهم؛ ما دمت لن تخسر شيئًا فما المانع من أن تكون سميك الجلد؟

في البداية فرحت بكوني صرت من مشاهير المجتمع الافتراضي، ودغدغت بوادر النجومية تلك أحاسيس إثبات الذات في نفسي وغريزة طلب تقدير الناس.

وكأي فنان مبتدئ يطرب حين يطلب منه أحدهم التقاط صورٍ للذكرى معه كنت أنتشي أنا بتلك الرسائل، ومثلما ما يلبث ذاك الفنان أن يعتاد الأمر بكثرة تكراره حتى يضيق به صرت أنا أيضًا أنزعج من تلك الرسائل وأعمد إلى حذف أكثرها بغير أن أفتحها، حتى سقطت عيناي صدفة على رسالة تطلب نصيحة فيما لا يقدر صاحبها على الإفصاح به علنًا على واجهة الصفحة.

وبقليل من التدريب صرت أصنف أي رسالة واردة في ثوانٍ معدودة، نظرة عينٍ سريعة تكفي للتمييز بين رسائل طلب النصائح السرية تلك وبين غيرها... وفي أيامٍ قليلة أضحت تلك الرسائل تشغل حيزًا معتبرًا من وقتي واهتمامي.

صار يومي موزعًا بين؛

إدارة شئون صفحة ومجموعة حنين بلا سلوى

ومتابعة تلك الرسائل البريدية التي تشُد انتباهي

والاهتمام بأمر علاقاتي الجديدة مع مساعداتي في الصفحة...

لقد صرن أكثر من مجرد مساعدات!

****

فجأة وعلى غير طلب مني ولا توقع ولا حتى رغبة في ذلك؛ نبتت في صحراء حياتي أربع زهرات.

لو لم يكنّ مساعداتي لما رغبت أبدًا في أي صلة بهن، ولوُضعن في نفس خانة التغافل التي خصصتها لمن طرقن حياتي من باب رسائل الماسنجر أو الأخريات اللواتي حاولت أمي أو أختي وضعهنّ في طريقي.

لقد تعاقد قلبي على مفهومٍ واحدٍ للأنثى دونته أناملي وقت إمضائي عقد زواجي، وبصم عقلي على عقده قبل أن يبصم إبهامي، أما وقد تمزق العقد فقد انمحى ذلك المفهوم من كل قواميسي لحظة أن تمزق. حتى أحلام يقظتي خلت من صور الإناث طوال تلك الشهور الماضية!

حتى اللقطات الحميمة التي لم تعد تخلو منها أفلام السينما التي أعشقها والأمريكية منها خاصة؛ صارت لا تثير سوى اشمئزازي.

انحصرت حياتي الجنسية في الاحتلام في أثناء منامي كأنني رُددت طفلًا مراهقًا، مع استبدال مشاعر إحراج المراهق من أسرته إلى مشاعر الاشمئزاز من نفسي.

لكن القلب – رغمًا عن إرادة أي عقل – لا يعدم تصاريفه لإيجاد طيفٍ أنثوي يروي جفاف أيامه ولو بمجرد النظر إليه من بعيد.

وهكذا تسللت أربعة أطياف إلى أرضي القاحلة رغمًا عني..

أو هكذا ظننت!

كان الواتساب هو الأصيص الذي نبتت فيه تلك الزهرات.

لقد أصبحنا أكثر تواصلًا بعد الوضع الجديد والنجاح الأخير للصفحة وللجروب، صارت الصفحة أشد احتياجًا لمتابعة كل صغيرة وكبيرة فيها، ولذلك ضم خمستنا ذلك التجمع على الواتساب.

ومن ذلك الجروب تفرعت محادثات فردية بيني وبين هذه أو تلك منهن لمناقشة ما يجب مناقشته على انفراد، فحتى إدارة مثل هذه الصفحات لا تخلو من مشكلات.

كانت (مها) أول من أخذنا الحوار على الواتساب بعيدًا عن مجرى عمل الصفحة...

- هل تذكر أختي (مارلين) التي طلبتُ تخفيضًا لفستان زفافها من بيوت الأزياء المعلنة عندنا؟

- نعم أذكرها، هل اسمها (مارلين)؟

- نعم، أنت مدعوّ لحضور إكليلها.

انتبهت قليلًا لكلامها وأخذت أفتّش في أدراج ذاكرتي الخاصة بملفات صفحتنا في أيامها الأولى، ثم قلت بعد صمتٍ قصير:

- زفاف مبارك ولكن اعذريني في سؤالي؛ فأنا أذكر بعض منشوراتك الأولى على صفحتنا، كان بعضها ذا طابعٍ ديني ومنها فهمت أنكِ...

قاطعت كلماتي برسالة ضاحكة وقالت:

- أنا مسلمة وأختي مسيحية!

(١٠)

نظرت (مها) في بطاقتها الشخصية

(مها صبحي يعقوب)

الحمد لله لست بحاجة لتغيير اسمي كما احتاج غيري ممن غيروا دينهم، وبرغم ذلك تُطل عليّ الصعوبات برأسها في كل خطوة أخطوها.

قضية طلاقي من (أمير) أخذت سنين طويلة حتى حصلت عليه.

كان هو أرثوذكسيًّ فتحول لملتي البروتستانتية كي يتمكن من الزواج مني بعد أن أحبني، لذا لم أستطع الدفع في المحكمة لطلب الطلاق بأنه على غير ملتي.

مشيت في خطوات انتسابي لطائفة الروم الأرثوذكس ودفعت مبلغًا محترمًا نظير استخراج شهادة بذلك من كاتدرائيتهم في سوريا.. الرب وحده يعلم كم أضلعني ذلك المبلغ وأنا أعمل لأنفق على نفسي وعلى طفلتي بعد أن قاطعتني أسرتي بسبب طلبي للطلاق من (أمير).

لو كانوا قد علموا وقتها بمراودات عقلي لي بدخول الإسلام لتناست أسرتي كل علمانيتها وليبراليتها التي ربونا عليها ولأطل عرقهم الصعيدي برأسه عليّ ليطير برأسي...

أنتِ تطلبين الطلاق وتتحولين إلى الإسلام استجابةً لتغريد عصفورٍ مسلمٍ ملأ أذنيك إعجابًا بجميل صدحه المزيف فما عدتِ تطيقين عشك الزوجي الذي توقف الصدح والغناء فيه... هذه هي التهمة الأولى والأخيرة لمن هي في مثل حالتي.

أما حصولي على ورقة الانتساب لطائفة الروم الأرثوذكس، فقد صادف وقتها أن كان الملف القبطي في مصر ملتهبًا..

كان ذلك قبل ثورة يناير ٢٠١١ بسنة أو بسنتين.. وأيضًا كانت قضية الطلاق تؤرق مضاجع آباء الكنيسة القبطية؛ مرة بسبب بعض أبناء الكنيسة الصارخين طلبًا للطلاق بعد أن استحالت بيوتهم جحيمًا بينما الكنيسة لا تتزحزح عن موقفها الرافض تمامًا للطلاق بغير علة الزنا، ومرة بسبب من يحوّلون ملتهم سعيًا للخلاص من حياتهم الزوجية التي صارت لا تطاق، ولأن كثيرًا من أبناء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية يأبى إيمانهم التحول إلى الملة البروتستانتية أو الكاثوليكية طلبًا للطلاق فقد جاءهم الحل في ورقة الانتساب لكنيسة الروم الأرثوذكس في سورية.

وطبعًا انتبهت الكنيسة القبطية لهذه اللعبة، ولست أدري بالضبط ما الذي دار بينها وبين الحكومة في مصر ولكن الذي أعرفه تمام المعرفة أنني تلقيت ذلك الخبر كالصاعقة؛ إذ أصدرت الحكومة قرارها بعَدّ هذه الشهادات مزورة، وتعرض بعض الشباب المساكين لأحكامٍ بالسجن بتهمة التزوير إذ كانوا قد قدموا قبلها شهاداتهم تلك للمحاكم...

- ولكنني بروتستانتية ولا أنتمي للكنيسة القبطية.

هكذا صرخت لمحاميتي وهي تبلغني بهذه المصيبة فردت في هدوء:

- وهل تتوقعين قرارًا حكوميًّا يعُد شهادات الأرثوذكس وحدهم مزورة وما عداهم فشهاداتهم سليمة؟!

فمزقت الورقة وأنا أبكي تلك الآلاف من الجنيهات التي كنت في أمَسّ الحاجة إليها...

- إذا كنتِ تريدين إنهاء القضية سريعًا فليس أمامك إلا التحول للإسلام.

هكذا خاطبني المحامي الجديد المخضرم الذي لجأت إليه بعد أن مللت من محاميتي السابقة.

- لكني لم أحسم رأيي بعد، أنا فعلًا أفكر جديًّا في اعتناق الإسلام لكني ما أزال ربوبية، أعني أنني أؤمن بوجود الإله لكني لم أقتنع تمام الاقتناع بأي دينٍ بعد.

- الأمر إليكِ فانظري ماذا تريدين، غير ذلك فتوقعي مشوارًا طويلًا.

وعادت (مها) بالذاكرة إلى الوراء بعيدًا...

لو كنت أريد فعلًا التحول للإسلام من أجل الحب لفعلتها أيام الجامعة من أجل (عمر)!

برغم أنه كان زميلي منذ العام الدراسي الأول في كلية التجارة الخارجية إلا أننا لم نسقط في غرام بعضنا إلا في السنة الثالثة، رحلة جامعية إلى مدينة بورسعيد جمعتنا منذ لحظة ركوبنا حافلة الرحلة فلم نفترق بعدها.

أيقنت من صدق حبه لي لمّا قطع كل صلاته بكل الفتيات اللاتي كان يعرفهن قبلي، كان دونوانجًا حقيقيًّا أظمأته سنوات ما قبل الجامعة التي قضاها مع أسرته في السعودية ومجتمعها المغلق إلى سلسبيل النساء، فعاد من هناك لا يرى في الفتاة غير خريطة جغرافيتها، ثم تحول على يد حبي إلى قديسٍ يقشعر جلده لمجرد لمس يدي حتى إنه لم يحاول أبدًا مس ما بعدها.

واستوثقت من عشقه لي لمّا تقيأت بين يديه خلال إحدى نزهاتنا إلى مدينة الملاهي، فلم يظهر على وجهه تعبير واحد بالاشمئزاز بل بادر بتنظيف يده بمناديله ثم نظف حول فمي بكل حنان ثم اصطحبني إلى دورة المياه لأغسل ما أصابني فأخرج منها لأجده يحمل لي كوبًا من عصير الليمون يساعدني على عقد نفسي التي ماعت بسبب دوران لعبة الملاهي.

وما لبثت الأيام أن أظهرته على صبابة وجدي به لمّا أصيب في حادث سيارة كبير ألزمه المستشفى عدة أسابيع، فكنت

مرافقته في المستشفى طوال النهار حتى يأتي أحد شقيقيه ليبيت معه الليل، لو كانت أمه – التي حبستها امتحانات الجامعة الإسلامية في السعودية حيث تعمل هي وأبوه – مكاني لما صنعت له أكثر مما صنعتُ.

حتى إعادة تعلم المشي بعد تعافيه من الحادث كان (عمر) يفضل أن يكون استنادًا على كتفي أنا أكثر من أكتاف أخويه.

وتعافى حبيبي بسرعة واستعاد لياقته البدنية وبروز عضلاته الجميلة الضخمة التي أسسها منذ طفولته

ولكن...

- ما نهاية هذا الحب يا (عمر)؟

- الزواج طبعًا.

نظرت له في خوف وتساؤل!

- هل تدرك معنى ما تقول؟!

- هل أعدد لكِ عدد المشاهير المتزوجين في بلادنا زواجًا مختلطًا؟

- الأمور عند الفنانين والمشاهير مختلفة، أنت مثلًا هل تقبل أن تتزوج أختك من مسيحي إذا جمعهما حبٌّ صادقٌ كحبنا؟

ضحك كعادته المرحة وقال:

- على أن يسموا أولادهم عمر كاسمي وفاطمة على اسم أمي.

- أنا أتكلم بجدية يا عمر ولا أمزح، هل تقبل؟ أجبني!

سكت متلعثمًا ثم تمتم:

- الأمور في ديننا تختلف و..

قاطعته:

- والأمور عندنا ليست كما تفهم، المسيحيون لا يستطيعون

الزواج من غير ملتهم، أنتم تظنون أن الكنيسة تثور فقط لو تزوجت مسيحية من مسلم لأنها تخاف تحويله زوجته إلى الإسلام، في حين أن الكنيسة ستثور نفس ثائرتها لو تزوجت فتاة قبطية من شاب بروتستانتي أو حتى كاثوليكي.

- هذه معلومة جديدة عليّ تمامًا؟

- لأنكم تستقون معلوماتكم عنا من كتب وخطب شيوخ الموضة في هذه الأيام وأكثرهم لا يعلمون عن المسيحية إلا ثالث ثلاثة.

سكتنا لدقيقة ثم قطعت حبل الصمت وسألته:

- بل حتى أهلك هل سيقبلون بزواجك من مسيحية لن تقبل بتغيير دينها مستقبلًا؟

استمر صمته ودارت عيناه علامة من لا يعرف جوابًا، فأكملت قائلة:

- والآن ماذا سنصنع؟

ابتسم وقال:

- أمامنا خياران؛ إما أن نذهب إلى السينما لمشاهدة الفيلم الذي تنتظرين نزوله منذ أسابيع أو نذهب إلى المسمط فأنا أشتاق إلى فتة الكوارع.

ضحكتُ وقلت:

- السينما أولًا ثم نتعشى كوارع.

لكن كان لا بد لسَكرة الحب هذه من إفاقةٍ يومًا ما، كانت أختي (مارلين) تراقب في صمتٍ حبي الذي – بالتأكيد – أحاطت به علمًا منذ ولادته، وسهرنا ليالٍ طويلة في فراش غرفتنا أبثها تفاصيله، كانت تقول لي دائمًا:

- هي أيام مراهقة لذيذة وحلم جميل لا تلبثين أن تفيقي منه يوم أن يأتيكِ العريس الذي من ملتكِ.

كنت أسخر من قولها هذا، لم أكن أعلم أن تكرارها الطويل لكلماتها تلك يرسخ قبولي لها في اللاوعي عندي، لم تحاول (مارلين) الوقيعة بيني وبين (عمر) أو حتى إساءة معاملته، كانت ذكية برغم حداثة سنها عني، وإنما وضعت (أمير) في طريقي على أنه صديق.

لستُ بفاتنة الجمال لكني من ذلك الطيف من النساء اللاتي يستهوين الرجال بجاذبيتهن ولشخصيتهن، ووقع (أمير) في غرامي بل أبدى استعداده لتغيير ملته من أجلي .. وفاتح أبي في رغبته تلك فور انتهائي من امتحانات السنة النهائية.

وحاول (عمر) الدخول على الخط، وفاتح أمه برغبته في الزواج مني، وشهد معه شقيقاه أمامها بما كان مني أيام رقاده في المستشفى، واغتبطت أمه من صنيعي معه وسألته وهي مبتسمة:

- وبالطبع هي تنوي اعتناق الإسلام؟

أجابها بذكاء:

- لا إكراه في الدين يا أمي.. }والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم{.

غاصت ابتسامة أمه، ثم قالت:

- وإذا رزقكما الله بأطفال فهل ستعلمونهم أن الله ثالث ثلاثة أم واحدٌ أحدٌ؟ أم ستكونون أسرة علمانية تترك أطفالها يختارون لأنفسهم دينًا حين يكبرون أو لا يختارون دينًا أصلًا؟

- ألم يتزوج بعض الصحابة من كتابيات؟

- هؤلاء كانوا رجالًا أولي عزمٍ في الدين ربوا أولادهم على عقيدتهم هم، فهل ستسمح فتاتك لك بذلك؟

وحلّت ساعة الحقيقة التي كان لا بد من مواجهتها

وبعد شهرٍ كامل من التفكير والسهر والدموع

- أمك على صواب يا (عمر)، زواجنا كان يصلح في مجتمع علماني لا يأبه فيه أحدٌ بديانة الآخر أو في مجتمع ديني يأخذ فيه الزوج المسلم أو المسيحي زوجته إلى ديانة مجتمعه، أما مجتمع البين بين كمجتمعنا هذا فنحن نسبح في بحر من الرمال.

حتى (عمر) لم أكن قد صارحته بحقيقة أفكاري الدينية وقتها.. وحمدت الرب أنني لم أتناقش معه أبدًا في ربوبيتي.

تخيل لو كان يعلم؟ لأجاب أمه؛ بل هي لا تؤمن أصلًا بأي دين!

فتنظر إليّ نظرتها إلى إنسانة كافرة أو ملحدة، الكثيرون في ذلك الوقت لم يكونوا يفرقون بين الربوبي والملحد.. أنا أؤمن بالله الخالق غير شاكةٍ أبدًا في وجوده، لكني لم أكن مقتنعة بأي دين حينئذ.

من قال: إن الحب لا يُنسى؟!

صحيح أنه يترك بعض علاماته على حنايا القلب لكن ممحاة الزمن تعفو أكثر آثاره.

وكم من قلوبٍ استبدلت حبيبها بحب جديد، أو هكذا ظننت مع (أمير)!

كان شابًّا وسيمًا طويل القامة أسمر البشرة كما أحب من بشرات الرجال، وليس أبيض اللون كما هي بشرة (عمر) الذي كان لون جلده الشيء الوحيد الذي يضايقني فيه!

لم يكن خفيف الظل كعمر لكنه كان مثقفًا ممتع الحديث.. نسيت أن أخبرك أن القراءة كانت عشقي وهوايتي الوحيدة منذ طفولتي.

واستبدلت أمير بعمر في قلبي.. أو هكذا يجب للحياة أن تستمر وللقلوب أن تحيا.

ولم يجد (أمير) أي بأسٍ في تغيير ملته، لقد كان ترجمة حية لتعبير المنقطع من شجرة؛ لا أسرة يخشى غضبها عليه ولا كنيسة ينتظم في الصلاة فيها فتفتقده من ضمن ما تفتقد من رعاياها.

لكن يبدو أن ذلك الانقطاع عن وجود الأهل في حياته قد أورثه جفاف المشاعر.

لقد كان بخيلًا في كل شيء!

لم يظهر بُخله المالي إلا بعد زواجنا الذي دفعت (مارلين) أختي للتعجيل به، لأكتشف أنه بخيل أيضًا في عواطفه، بل بخيل حتى في ماء حبه!

لدرجة أنني دهشت كيف حملت منه في طفلتي (ماريا)!

إنني أستطيع أن أعدد في ذهني عدد المرات التي قاربني فيها منذ ليلة الزفاف حتى يوم طلبي للطلاق. ومن قبل رفعي لقضية الطلاق وأنا أعتمد على نفسي ماديًّا من عملي الجديد كمحرر مستقل.

فبسبب هوايتي للقراءة وحبي القديم للأدب والشعر – عربي وإنجليزي – نمت عندي موهبة الكتابة، لم أكن شاعرة أو أديبة لكني كنت صاحبة أسلوب مميز وقلم رشيق، بخلاف أن الرب خلقني ذات جهدٍ دؤوبٍ تتضاءل أمامه النملة في صبرها.

كان باستطاعتي قضاء عشر ساعات يوميًّا في تحرير نصوص حلقات مسلسل أو برنامج تسجيلي طويل.

كان مدخلي إلى ذلك المجال أحد أصدقائي الذي يعمل في إعداد برامج إذاعية، قدمني لمنتج مسلسل كوميدي إذاعي، أعطاني المنتج مسودة بعض الحلقات وأسبوعين للعمل عليها وتحرير السيناريو لها، عُدت له بعد أسبوعٍ واحد.

وهكذا دخلت ذلك المجال.

تعلمت ألا أرفض أي عملٍ يأتيني مهما كنت مشغولة، فتلك المهنة تنحصر مقوماتها في موهبة الكتابة والصبر.. والأهم من ذلك كله؛ التواجد باستمرار، غيابك لفترة قصيرة معناها أن يقفز أحدهم ليحتل كرسيك.

ولأن (أمير) كان مشغولًا دائمًا في عمله الخاص وفي بخل مشاعره فكنت لا أملك أكثر من الوقت، وبدأت أعرف طريق الادخار برغم قروش الإذاعة القليلة.

ثم جمعتني المصادفة بأحد زملاء مدرسة الأحد القدامى، وما إن علم بمهنتي تلك حتى عرض عليّ مساعدته في كتابة حلقات برنامجه التسجيلي الذي يُخرجه لصالح بعض المنظمات الحقوقية الدولية العاملة في مصر.

وبعد اختباري في حلقة أو اثنتين طلب مني أن أمضي عقدًا للعمل معهم، فوجئت بالرقم المكتوب في العقد للحساب على كل حلقة.. كان أضعافًا مضاعفة لما تدفعه الإذاعة، وفوجئت أكثر بأن زميلي اشترط عليّ بأنه سيحصل لنفسه على ستين بالمائة من قيمة العقد...

- لكن ذلك ظلم لي يا (مجدي).

- خذيها أو رديها، أليس هذا هو المبدأ الأول لكل عرض؟

- لكن أنا من سأقوم بكل مجهود الكتابة.

- وبدوني ما كنتِ لتعرفي طريق آلاف الجنيهات ولكنتِ ما زلتِ تعدين ملاليم الإذاعة.

وبالطبع قبلت، فحلقة واحدة مع هذه المنظمة بأكثر من عشر حلقات إذاعية حتى بعد إتاوة (مجدي)، وإن كنت أضطر أحيانًا لإعادة كتابة بعض الحلقات عدة مرات حتى تناسب هوى المنظمة.. كانت الحلقات أغلبها عن حقوق المرأة ووضع المرأة الريفية وختان الإناث والزواج المبكر، وحلقات أخرى محايدة عن التسرب من التعليم وعمالة الأطفال، وأخرى مريبة

عن اضطهاد الأقليات بما في ذلك أهل النوبة والبدو وأمازيغ سيوة ناهيك عن المسيحيين طبعًا، بل أحيانًا عن الاضطهاد الداخلي بين طوائف المسيحيين أنفسهم.

كنت أرفض أن أكتب ما لا أؤمن بصحته، أنا أعند من البغل في هذه النقطة، فكانوا يكتفون بتعديل ما لا يروق لهم من فقرات وكنت بدوري أتغاضى عن ذلك طالما أن اسمي لم يكن يكتب على تتر الحلقة... كسب العيش يرغمك السير على حبل الموازنة بين المصالح والمبادئ.

وعرفت طريق الآلاف من الجنيهات..

وطريق صالات المغادرة والوصول في المطارات لحضور مؤتمرٍ هنا أو ورشة عمل هناك..

ويومًا بعد يوم كنت أزداد انفصالًا عن أمير.. روحًا وجسدًا..

وأزداد استغراقًا في العمل طلبًا للمزيد من الادخار الذي كنت أحس بإلهامٍ إلهي أنني سأكون بأمس الحاجة إليه قريبًا.

وأزداد بحثًا عن الله كما تتصوره روحي المحبة لكل البشر بل لكل أطياف الحياة، لا الإله الذي يصدّره لنا رجالات الأديان.

إله الحب لا إله البغض.. إله السلام لا إله الحرب.. إله الجمال والفنون لا إله القبح وصحراء النفوس.. إله العطاء والرحمة لا إله العذاب.

فتشت عن إله الحب في المسيحية فوجدته في قلايات الأديرة حين يغسل الكبير قدمي الصغير تواضعًا لكني لم أجده في هرم الأكليروس حيث لا راد لكلمة رأس الهرم.

بحثت عنه في الإسلام فوجدته في صوم النهار وصلاة جوف الليل لكني لم أجده في تاريخ حروبه وصراعاته ولا في حد الردة عنه.

نشدته بين صوفية كل الأديان – سماوية وغير سماوية – فوجدته في تسبيحات عشقهم لكني أنكرته عند أهل الحلول والإشراق منهم.

لم أنشده عند اليهودية لأنه ببساطة لا تبشير عند اليهود، وما نحن بالنسبة لهم إلا أمميون بجانب عرقهم السامي.

ولم أتفقده عند مقدسي الحجر والشجر والبقر فإلهي ليس رمزًا ولا حلولًا ولا تجليًا.

إلهي إني أيمم وجهي صوب كل وجهة بحثًا عن وجهك فما بالك لا تربِت على قلبي بيقينٍ يطفئ حيرته؟

وصادفت في رومانيا – حين كنت أحضر مؤتمرًا عن الأقليات – ذلك العرّاف الغجري، اقترب مني بخطوة من يعرف ماذا يريد، وبدون أن يستأذن أمسك يدي في ثبات وطالع كفي ثم قال في ثقة وبإنجليزية ركيكة لكنها مفهومة:

- لماذا تنظرين تحت قدميكِ والثمرة التي تبحثين عنها ما تزال فوق شجرتها؟ إن أردتِ إدراك جمال الشِعر فاقرئيه بلسان الشاعر لا من ترجمة معجبيه إلى لغاتهم، فقلما أصاب المترجم أو تجرد من قيود فكره.

يا إلهي.. أكنتُ طوال الوقت أفتش عنك في الأرض وأنت فوق كل سماء؟

وشرعت أبحث عن الله في كلماته لا بين ترجمات أتباعها..

في وصفه هو لذاته لا في تصورات الموصوف لهم..

في شرعه هو لا في فهم مستشرعيه..

الأمر لم يكن بسيطًا أبدًا يا (سليم)؛ ففوق كاهلي أكوام من الموروث وطبقات من التصورات المسبقة وسنوات من التربية وأطنان من أسئلة الشك تلقيها كل ديانة في وجه أختها ويلقيها الملحدون في وجه الجميع.

وحياتي مع (أمير) تستنزف مشاعري وتجفف أرض عواطفي..

وقضية طلاقي التي رفعتها بعد أن استحالت حياتي معه تستنزف أعصابي ومدخراتي..

وفي النهاية ألقى المحامي الجديد الكرة في ملعبي كما أخبرتك.

كان لا بد أن أتخذ قرارًا إذن... وبسرعة..

فاخترت معيار البساطة والمتانة في آن واحد..

الله يجب أن يكون مفهومًا وبسيطًا لعجوزٍ مقعدةٍ أمية بقدر ما يكون مثيرًا معجزًا لتساؤلات لاهوتي متبحر..

يقبل بساطة عقيدة الأصوليين ولا تحيط به تعقيدات الفلاسفة الإلهيين..

الدين الذي يهضمه ببساطة طفلٌ في الخامسة من طفولته وفي نفس الوقت يشغل أسفار المتبحرين في علوم مقارنات الأديان..

الدين الذي افهم كي أؤمن لا أن أؤمن كي أفهم..

والمحامي من ورائي يستحثني لاتخاذ قراري من أجل قضيتي..

فذهبت إلى الأزهر وأشهرت إسلامي!

(١١)

كان ذلك خلاصة ما باحت لي به (مها) عبر رسائل الواتساب أولًا ثم عن طريق الهاتف ثانيًا بعد أن بُنيت بيننا جسورٌ أخرى من الثقة وبعد أن أقنعتها بأنني أكره الكتابة على لوحات المفاتيح، ولولا صفحتنا لما نقرتها أصابعي إلا نادرًا، فأنا من محبي الطرق التقليدية وأرى مداد القلم أكثر إنباءً من نقرات لوحة المفاتيح.

لا تتعجل فإن قصة (مها) لم تبدأ بعد، ولكن (تسنيم) نجحت في خطف انتباهي منها فجأة

- لماذا حرم الله الانتحار يا دكتور؟!

وما إن بدأت أجيبها بما أحفظه من إجابات الشيوخ والعلماء حتى قاطعتني:

- أنا أعرف كل ما تقول وربما زيادة، لكني بصراحة لا أقتنع بكلمة منه، نجيء إلى الحياة على غير إرادة منا، فلماذا لا يحق لنا إنهاؤها إذا ضقنا بها؟

يا إلهي.. لا ليس مرة أخرى.. أنا لم أنتهِ من مأساتي مع (سلوى) لأجد نفسي في حوارات مشابهة مع مساعدتي في الصفحة التي أنشأتها خصيصًا للسلوى عن (سلوى).

وفكرت للحظة في طلاقها.. أقصد في إنهاء المحادثة معها وإنهاء علاقتها بالصفحة، ولكن مهلًا؛ كيف تخرج هذه الكلمات من امرأة لا تصافح الرجال وترتدي الفضفاض من الثياب وتواظب على حضور حلقات تحفيظ القرآن؟

- ألستِ تشتكين من صعوبة تربية ابنك (حسين) ومن شدة عصبيته؟

- نعم، فهو يأخذ المشاكل بيني وبين أبيه على أعصابه الصغيرة.

- كم مرة قال لكما أو لكِ وحدك؛ لماذا أنجبتماني؟ أنا لم أكن أريد أن تلدينني!

صمتت (تسنيم) لفترة فأدركتُ أن ذكاءها قد استوعب مقصدي، ثم أجابت:

- لكن هذا طفل صغير يقول ذلك احتجاجًا منه على ما يراه بيني وبين أبيه.

- هل رأيتِ إنسانًا في حالته المزاجية والنفسية الطبيعية يسأل: لماذا خلقني الله بغير موافقتي ولماذا حرّم علينا الانتحار؟

- هل تقصد أنني لست في حالة نفسية سوية؟

- لا لا.. اعذريني، أنا فقط كنت أجيبك على تساؤلك بتشبيه يقرب لكِ الإجابة، وأسألك كيف سيكون رد فعلك إذا جاءكما (حسين) وقال: أنتما لم تستشراني قبل أن تنجباني وأنا من حقي أن أبحث لي عن أبوين غيركما.

وأحسست وكأن دمعة نزلت من بين رموشها الكثيفة فوق شاشة هاتفها لتجيبني بعد وهلة.

- لكم تريحني كلماتك يا دكتور، لقد أخطأت اختيار تخصصك الطبي وكان يجدر بك التخصص في النفسية والعصبية.

أجبتها ضاحكًا:

- ربما لأنني لم أكتشف موهبتي تلك إلا بعد طلاقي وإنشائي لصفحتنا هذه.

وأخذنا الحوار من جديد ليبث كل واحدٍ منا للآخر مشاكله، فأحكي أنا قليلًا عن معاناتي النفسية التي لا تزال مستمرة برغم مرور تلك الشهور على الطلاق، لكنني لم أصارحها أبدًا بسبب الطلاق الذي عاهدت نفسي أن يظل سرًّا بيني وبين

سلوى.

بينما تحكي هي الكثير عما تراه من مأساوية باطن حياتها برغم أنها يحسدها من يرون فقط ظاهرها...

ولدت (تسنيم) وولدت معها ملعقة الذهب التي في فمها، لقد كانت فاتحة الخير على أبيها كما يقول لها دائمًا، المطعم الصغير الجديد (أضنة كباب) الذي أنشأه ليقدم ذلك الكباب التركي الشهير تزامن نجاحه مع ولادتها.

في البداية خوّفه من حوله واتهموه بالجنون إذ يفكر في ترك وظيفته كمهندس في شركة المقاولين العرب ليفتتح بكل ميراثه الذي ورثه للتوّ عن والده ذلك المطعم الصغير لذلك الكباب التركي الذي تحمس له لحظة أن ذاقه في إحدى زياراته الصيفية الجامعية لمدينة إسطنبول. كان والدها محبًّا للتجارة منذ صغره، فكان يسافر صيفًا وفي إجازة نصف العام لتركيا ليجلب معه ما يقدر على شرائه من الملابس التركية، لم يحلم بأنه يومًا ما سيفتتح توكيلًا أو مصنعًا لتصنيع تلك الملابس في مصر وإنما كان حلمه تقديم الطعام التركي في مصر وذاك الكباب الرائع خاصة.

وسار المهندس (سامح غنيم) خلف حلمه، واستأجر محلًا ذا مساحةٍ مناسبة وسعرٍ على قدر إمكانياته، وعمل ليل نهار يدًّا بيد مع الشيف التركي الذي أصر على الاستعانة به وتحمل مرتبه الباهظ موقنًا بأن البداية إما أن تكون قوية وإما أن تنتهي قبل أن تبدأ، وتحمل هزة البدايات لِما هو جديد إذ الذوق المصري غير معتاد على كباب لحم الأغنام.

وقبل أن تطفئ (تسنيم) شمعتي عيد ميلادها الثاني كان يفتتح فرعه الثاني، ويستقدم شيفًا تركيًّا ثانيًا لذلك الفرع الجديد، ومعه شيف آخر متخصص في تصنيع الحلويات التركية الشهيرة ليكون مسئولًا عن صناعة الحلوى التركية

التي تقدم في مطعميه حتى صارت حلوبات مطاعمه تنافس كبابها، وحرص على أن يستقطبه من شيفات محلات حافظ مصطفى الحلواني التركي ذائع الصيت.

وزيادة في التيامن بابنته حرص الأب في كل فرعٍ جديد يفتتحه أن يكون افتتاحه في نفس يوم ميلاد (تسنيم) والتي ظلت طفلته الأثيرة حتى بعد أن منّ الله عليه بعدها بابنتين، بل ظلت على عرش قلبه بين أبنائه حتى بعد أن رزقه الله أخيرًا بالولد بعد عشر سنين من ولادة (تسنيم).

ولأن الوالد ممن يحب التيامن فقد حرص على شراء مطعمه الأول ودفع فيه أكثر مما يستحق بكثير، بل كان ذلك المحل هو مكان الإدارة المفضل له.

وسارت الحياة هكذا وردية؛ أبوان شابان أنعم الله عليهما بفيضٍ من الرزق فوفّرا أطيب حياةٍ ممكنة لتسنيم وأخواتها. وبجانب المدارس المميزة والأندية الراقية حرص الوالدان على تحفيظهم ما تيسر من القرآن وتلقينهم الدروس الدينية الخاصة على يد شيخٍ متخصص، واهتمت الأم بهذه النقطة أكثر ما اهتمت لا سيما أنها هي وزوجها كانا من المتأثرين بالحركات الدينية التي كانت عالية النشاط في الجامعة أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات وقت أن كانا زميلين في هندسة جامعة القاهرة.

الخلاف الوحيد الذي كان بين والدي (تسنيم) أن أباها طالب أمها بعدم ارتداء النقاب وخصوصًا بعد وضعه التجاري والمالي الجديد، وبعد شدٍّ وجذب وبعد أن استعان الأب بالشيخ الغزالي نفسه استغنت الأم عن النقاب واكتفت بالعباءات التركية الفاخرة التي تجمع بين الأناقة العالية والحشمة البالغة في نفس الوقت، حتى صار لها طراز مميز ومظهر خاص بها تسعى بعض قريناتها لتقليدها فيه وإن كنّ

لم يستطعن مجاراتها في التردد على كبريات بيوت الأزياء التركية التي توفر لها طلباتها.

ودخلت (تسنيم) كلية الهندسة كوالديها، وازدادت صورة الحياة ورديةً يوم أن أعجب بها أستاذها الشاب الوسيم وتقدم للزواج منها... ليبدأ لون حياتها الوردي تبهت درجته بعد ذلك الزواج!

برغم أن (أحمد) – زوج تسنيم – كان يمتلك من المقومات ما يجعله محط أنظار أجمل الفتيات وأفضلهن إلا أنه بدأ يشعر بالنقص أمام (تسنيم) في مجتمعٍ صار ماديًّا بقسوةٍ تجعل اعتبارات المادة فوق كل اعتبار.

بدأ ذلك منذ شرائهما شبكة الخطبة فوجد أن أغلى ما يستطيع تقديمه لها تقتني هي ما يفوق ثمنه بأضعاف، تعمدت هي بذكاء ألا تلبس وهي معه إلا شبكته لها.. ولكن هيهات.

وما بدا صغيرًا أيام الخطبة ظهر بأضعاف حجمه بعد ذلك!

لم يكن أحمد ضعيفًا ماديًّا، لكن شقته مثلًا التي كانت تشعره بالثقة في إمكانياته عريسًا؛ إذ إن مساحتها ١٨٠مترًا وفي حي مدينة نصر، كانت متواضعة بالتأكيد أمام الشقة التي خصصها والد (تسنيم) لها في أحد أبراج النيل الفارهة.

- تقصدين اشتراها؟

- بل خصصها، فالبرج كان مناصفة لوالدي مع إحدى شركات المقاولات.

- هل الوالد يعمل في المقاولات أيضًا؟

- كثير من كبار التجار يدخرون جزءًا من أموالهم السائلة استثمارًا في العقارات والأراضي، فالجنيه المصري ما أسرع ما تنخفض قيمته مع الوقت.

- وبالطبع حدثت مشكلة السبب فيها الشقة.

- في البداية أصر أحمد على أن نقيم في شقته هو، لكن والدي بما أوتي من قوة حضور وإقناع استطاع تليين رأسه قليلًا، فاتفقا على أن يؤجر أحمد شقته ويدفع ضعفي مبلغ ذلك الإيجار لوالدي على أنه قيمة إيجار شقتي التي سنقيم فيها.

- لكن إيجار شقتك بالتأكيد تساوي أضعاف ذلك المبلغ.

- أراد والدي أن يجاريه في حفظ ماء وجهه بأنه يُسكن زوجته في شقة يستأجرها هو، فوافق أبي على أن يضع قيمة الإيجار في حسابي أنا فالشقة مسجلة باسمي.

- لا يمكن لوم زوجك على تفكيره، لو كنت مكانه لربما فعلت المثل.

بعثت لي تعبير وجهٍ يبتسم حياءً! ثم ردت:

- لكن كان يجب علينا أن ننتبه لطريقة انفعاله وتعبيرات وجهه وقت المشكلة، لقد كان وجهه يتخدج بالانفعال وترتعش أصابعه كأنه يقاتل دفاعًا عن كرامته.

- أيضًا لا يمكنك لومه كثيرًا على ذلك، فما أصعب أن يشعر الرجل بضعفه أمام زوجته.

- فلماذا تقدم للزواج مني من البداية إذا كان يشعر بالضعف؟

- بل لماذا رحب به والدك وهو يرى ذلك الفرق المادي وخصوصًا أن والديكِ مهندسان فلا يفتقدان المركز العلمي المرموق حتى يسعيا لتعويضه في زوجٍ لابنتهما.

- لا تنس أن والدي كانت بداية حياته العملية أقل من بداية أحمد، فلسنا تلك الأسرة التي ورثت الثروة كابرًا عن كابر، زد على ذلك أن والدي قد ارتاح لأسرة أحمد وطيب أصلها وهذا أكثر ما كان يبحث عنه.

- ثم ظهر لكم غير ذلك بعد الزواج؟

- لم نر شيئًا سيئًا من أسرته، لكني فوجئت بطباع أحمد الغريبة بعد شهور قليلة من بداية الزواج..

ويومًا بعد يوم ومحادثة بعد أختها أخذت (تسنيم) تحكي لي عما كانت تكابده في حياتها مع (أحمد) من مشاكل، والتي توقفت مؤقتًا بإعارته إلى الجامعة السعودية، بل لعل قبوله للإعارة كانت بمثابة الهدنة لحياتهما الزوجية التي وقفت على شفا جرف الطلاق لولا وقوف صخرة ابنهما (حسين) أمام عجلات عربة الزواج المندفعة نحو الهاوية، فنجحت في إيقافها ولو إلى حين، بالرغم من تأييد والديها لقرار الطلاق بعدما شاهدا زهرة ابنتهما وهي تذبل في إصيص ذلك الزواج الذي لا فيه ماء يحسن ريه ولا تغذيه شمس المودة والرحمة، أو قل أن الزوج أراد من الإعارة بعض الدعم المالي يستند عليه أمام ما يراه من ضعفٍ مادي فيه أمام زوجته.

ليس لي أن أحكم على قصة من حكاية أحد طرفيها فقط، لكن هناك من الوقائع ما لا يستدعي تفسيرًا من الطرف الآخر ولا تسطيع تكذيب من يرويها لك :

لم تكن مشكلتها معه أنه كان يدفع إيجار الشقة شهرًا ويمتنع أشهرًا.

بل كانت تدهش حين كان ينتهز فرصة أية مشكلة مما لا يخلو منها بيت ليأتي على ذكر الشقة – من تلقاء نفسه – مؤكدًا لها أن كل مليم من الإيجار المتأخر هو دين في رقبته ولو بعد حين.

والويل لها إن قالت إنها لا تفكر في ذلك أصلًا أو أنها لا تنتظر منه شيئًا... هل تتجبين عليّ؟ من أعطاكِ يعطينا.

والويل لها أيضًا إن سكتت ولم تعلق... هل تظنينني أكذب في وعدي؟ أم تستهينين بكلامي؟

والويل لها أكثر إن فاض بها إصراره على صدم كل شحناء

بينهما في حائط الشقة فلعنت الشقة وإيجارها واليوم الذي سكنتها فيه.

وتترجم درجة ذلك الويل في طول مدة الخصام والتجاهل اللّذين كانت لديه قدرة لا متناهية عليهما

كانت لديه قدرة نادرة على اصطناع النكد والصبر على طول الخصام... قالت لي (تسنيم)، يتلذذ بالسخرية من نزقات الطفل الذي لا يبارح قلوبنا مهما امتدت أعمارنا إلا أن تشيخ نفوسنا، يستهجن لمسات المرح وشقاوة روح الشباب، كأنه شيخٌ ستيني وقور وهو الذي كان في أواخر العشرينيات من عمره يوم زواجنا، الزي الوحيد اللائق بشخصيته هو بدلة رسمية كاملة تعلوها عباءة عربية ويعمم الرأس طربوش عثماني.. أشعر وكأنه أكبر سنًّا من والدي بل لعله من جيل جدي! هكذا وصفته لي ذات مرة.

ومع فتاة حالمة مدللة لا تزال متمسكة بأهداب طفولتها كتسنيم فقد أصاب ذلك روحها في مقتل.

روحها بالفعل هي روح طفلة، لم تفارق قلبها أبدًا تلك الطفلة التي تمشط شعر عرائسها، تبكي بحرقة لوفاة أحد عصافيرها التي تربيها في بيتها، ثم تصر على دفنه في حديقة فيلا والديها في حي التجمع الخامس.. لقد تعلمت ألا تأبه من سخريات زوجها فأصمت أذنيها عن تعليقاته هذه المرة، وفي اليوم التالي سارعت لشراء عصفور آخر بعد أن أقنعتها أمها بسخافة فكرة تربية سحالي بدلًا من تلك العصافير التي تموت بسرعة فيحرقون قلبها عليهم.

تشارك طفلها وأصدقاءه ألعابهم وتتخاطف منهم حلواهم في مرح، تلح وتلج على زوجها أن يسمح لها بتجربة ألعاب الأطفال وممارسة التزلج الذي تعشقه على حلبات الجليد المغطاة...

- هل ستتزلجين بعباءتك هذه؟!

يسألها مستنكرًا وغالبًا متهكمًا فتجيبه هي بعيني طفلة متحمسة!

- دعني أريك إذن كيف يكون ذلك!

كان لا يستنكر بعض ما يستنكره من نزق طفولتها على تدينٍ منه يرى في ميعة شقاوتها خرمًا لمظاهر ذلك التدين، هو فقط يُعرّض بتربيتها الدينية ناقدًا لها متى ما سمحت له بذلك الفرصة، بل كثيرًا ما يناقض كلامه تصرفه..

- تصور أنه يرغي ويزبد حين نجتمع أنا وأخواتي مع أبناء أخوالي وخالاتي في جلسة عائلية نتبادل فيها أحاديث ذكريات الطفولة، ويقول لي؛ هل يليق ذلك الاختلاط وتلك الضحكات وذاك المزاح بأسرتكم التي ترفع شعار قال الله وقال الرسول؟

- لعله متزمت بعض الشيء في تدينه.

أرسلت لي إيموشن وجه يدمع بالضحك ثم أجابتني:

- هو لا يُحَيّي بنات خالاته وأعمامه حين يلقاهنّ إلا بالقبلات!

وهكذا من دردشة معها إلى أخرى... يبدأ الحوار منها هي عادة؛ إما بسؤال وجودي، وإما استفسار ثقافي عن شيء قرأت عنه حديثًا فتسألني عن معناه أو عن رأيي فيه، أو استشارة منها لي عن أمرٍ من أمور حياتها تتردد في القيام به، أو بالعكس؛ استشارة مني لها في بعض الأمور المالية أو التسويقية الخاصة بالصفحة، فهي وبرغم ما تربّت عليه من دلال زائد وترف بالغ إلا أنها أحبت أعمال والدها الحرة منذ صغرها، فكانت – وهي بعدُ في مرحلة الدراسة الثانوية – تساعده بل وتنوب عنه أحيانًا في بعض مصالح أعماله، وهو الشيء الذي توقف بفرمان زوجي بالرغم من توفر وقت الفراغ عندها وبالرغم من أن كثيرًا من تلك الأعمال عبارة عن أعمالٍ

ورقية تؤديها في المنزل أو عبر الهاتف ولا تحتاج للخروج لمتابعة بعضها إلا لساعاتٍ قليلة يكون هو فيها منشغلًا بأعمال تدريسه، لكنه أصدر قراره الرئاسي ونشره في صحيفة البيت الرسمية.. هكذا كان يحلو لها وصف قرارات زوجها التي كان يرفض مجرد النقاش فيها.

اختلف الوضع بعض الشيء بعد سفره في إعارته تلك، فعادت لتساعد أباها كما كانت سابقًا خاصة وأنها تحب المرور على فروع المطعم وتفقد أحوالها، كانت لحظات تواجدها في مطاعم والدها تشعرها بأحاسيس الملكة التي تفتقدها في مملكة بيتها.

ولا بد لأي امرأة من لحظات تتويجٍ في حياتها..

إما ملكة في بيتها وعلى أفراد أسرتها..

أو ملكة على قلب رجل تحبه ويعشقها..

أو تتبرج عن بعض حسنها حتى ترى عيون الناس تتوجها على عرش الجمال..

لا تقبل في ليلة عرسها بوجود من تشاطرها لفت الأنظار إليها، أليست هي ليلة تتويجها ملكة؟

فإن لم يكن فلتتوج بتاج التفوق العلمي أو الأدبي وذلك عندهن أضعف التتويج!

ولا تقبل حواء بأي حواء أخرى منافسة لها على عرشها، لكنها في نفس الوقت لا تُحس بطعم الإحساس الملكي دون وجود ملكٍ يشاطرها الجلوس فوق العرش، حتى ممالك الإبداع العلمي والأدبي التي تقبل وجود مئات المتوجات فإن حواء لا تعترف إلا بتاجها هي فقط بينهن، أما تيجان المتوجين من الملوك الذكور فإنها تقر بها لأصحابها عن طيب خاطر منها.

لكن (أحمد) تفنن وقتئذ في إفساد كل مراسم التتويج، كان

من تلك النوعية من الرجال التي ترى الرومانسية مجرد مقدمة في كتاب المرأة تقرأ بعناية فقط في فترة الخطبة ثم لا حاجة له بها حين يمضي قدمًا في تصفح باقي فصول الكتاب.

لا تستطيع أن تجد عيبًا صارخًا فيه كزوج يجعلك تهتف مندِدًا بتصرفاته ولا بأخلاقه.. لم يكن بخيلًا ولا مدمنًا ولا طويل اليد أو اللسان ولا خائنًا، لكنه من ذلك الصنف من الرجال الذي يجيد بالسليقة إطفاء جذوة زوجته.

ذلك الزوج الذي لا يرى إلا أخطاء زوجته ولا يجيد إلا النقد، أما مدح جميل ما تفعل فلا شكر على واجب.

ذلك القادر على الخصام لفترات لا نهائية من الزمن وبلا سببٍ أحيانًا.

هذا الذي يحب أن تسير الحياة على وتيرة واحدة كساقية الماء في الحقل.

وفوق ذلك يطالب زوجته بالتفرغ تمامًا لهذا اللاشيء في حياتها، وأن تنسى أسرتها بعلاقاتها الاجتماعية التي يكره كثرتها وتشعبها، بل ويعد تلك الروح الاجتماعية الواسعة في أسرتها أمرًا يتنافى مع ما تدّعيه من تدين!

وبالفعل نجح في إطفاء الشقاوة في عينيها وفي تحطيم عرائس طفولتها.

الشيء الوحيد الذي نجح في إشباعها فيه كان غريزة الأمومة، فبعد عام من الزفاف كانت تحمل (حسينًا) على ذراعها، وشغلها تاج الأمومة لبعض الوقت عن تفقد باقي ممالك أنوثتها، لكنها عادت لتفتقد ما ذبل منها من أول يوم دخل فيه وليدها الحضانة المدرسية.

عادت لتتفقد حجرات قلبها التي أهملتها تلك السنوات، عادت لتفتش عن طفلتها المجمدة في حنايا روحها وتبعث فيها الحياة والدفء من جديد، عادت لتشتاق لحلبات التزلج

وللتفكير في تربية نسناس بدلًا من العصافير أو السحالي، عادت لتشارك أسرتها دفئها الاجتماعي.

وخلع زوجها حينئذ بدلته وعباءته وطربوشه.. وارتدى بدلة السجان!

وخط في صحيفة البيت الرسمية عدة فرمانات رئاسية؛ لا خروج، لا زيارات، لا مجاملات اجتماعية، لا شيء إلا التفرغ لحياة اللاشيء.

حتى هذه اللحظة لم يكن قد حدث صدامٌ بينه وبين أسرتها التي التمست له بعض العذر في أنه ربما يروض طفولة ابنتهم، فصارت الأسرة هي من تزور ابنتهم في بيتها، لكن لما أصدر هو فرمانه بمنع هذه الزيارات هي أيضًا، هنا حدث الصدام عنيفًا.

ولأنه يجيد خلط الأوراق فكان طبيعيًّا أن يستدعي مشكلة الشقة وإيجارها بل أن يهدد بنقل معيشتهم إلى شقته التي في مدينة نصر.

- ولو أسكنت ابنتي في بيتٍ من بيوت الأرياف فلن تمنعنا من زيارتها.

- أليس من حق الزوج أن يمنع زوجته من أن تُدخل بيته من يشاء؟ أليس هذا شرع الله؟

- وهل لم تعرف من شرع الله إلا هذا؟ ألم تسمع عن بر الوالدين؟ عن صلة الأرحام؟

وفي النهاية لم يمنعه من تنفيذ قرار تغيير المسكن إلا ابنه الذي رفض الفكرة في هيستريا، بل إن (حسينًا) الذي كان شديد التأثر والحساسية لما يدور بين والديه من مشاحنات؛ استجمع كل مخزونه من الحزن وأطلقه في هذه اللحظة في هيئة اكتئاب نفسي جعل أمه تتردد به على عيادات المشاكل النفسية الخاصة بالأطفال.

وهنا فاض المكيال بتسنيم هي أيضًا وقررت التمرد ومزقت أوراق فراماناته وضربتها عرض كل الحوائط متحدية تحكمات صاحبها الذي لم يجد ما يقمعها به إلا التلويح بسلاح الطلاق.

كان يظن أنه يلوح بورقة الضغط التي لن تطيقها تلك الأسرة المحافظة، لكنه فوجئ بأن السلاح ارتد عليه هو، وأن من ظن فيهم الشفقة من رعب الطلاق صاروا هم أكثر حرصًا منه عليه، وطالبه والدها بتنفيذ تهديده بل أصر على طلاق ابنته.

وتبدل الوضع فصار (أحمد) هو الخائف من حدوث الطلاق، وصورت له شخصيته – سجينة البدلة والعباءة والطربوش – كم سيؤثر ذلك على سمعته أستاذًا جامعيًا، وخصوصًا أن والد (تسنيم) هدده إن هو رفض الطلاق فالخلع سيكون بديلهم!

وكاد أن يحدث الطلاق بالفعل، وكل من استشارتهم (تسنيم) فيه أشاروا عليها به حتى الأطباء النفسيين والمستشارين الاجتماعيين.

- هل تشفقين على نفسك من لقب المطلقة؟ مثلك ستخطب في فترة عدتها!

ولولا أنه في الستين من عمره وذو سمعة عريضة لظنت أن ذلك الطبيب النفسي إنما يخطبها لنفسه!

ولكن وقفت صخرة (حسين) من جديد أمام عربة الطلاق المندفعة، وخافت الطفلة التي بداخل (تسنيم) من المجهول، وعبثًا حاول من حولها الربت على ظهر مخاوفها تجاه نفسية ابنها وتجاه المستقبل الذي تخاف مجهوله بطبعها.

وخضع (أحمد) إنقاذًا لسمعته وشفقة منه أيضًا على ابنه، واختار الانسحاب والهجر وسيلة للتنديد بما رآه مسًّا بكرامته، فصار لا يرد على كلامها معه ولا يكاد يخاطبها إلا بما لا بد للحياة منه كي تستمر، واستمر ذلك الجليد طوال عامٍ كاملٍ حتى لاح له عقد الإعارة الذي حدثتك عنه فلم يتردد في قبوله.

كنت أستغرب – بيني وبين نفسي – لماذا تحكي لي هذه الزوجة عن مشاكلها وتستشيرني في أمور حياتها؟

كان أحيانًا يأخذ الشيطان بناصية تفكيري موجهًا إياه جهة ما لا يليق، لم تكن لدي الجرأة – ولا حتى الرغبة – في اختبار ذلك! المرة الوحيدة التي ندّت فيها كلمة مني توحي بذلك الاختبار كان نتيجته الفشل...

- طوال تلك السنة التي سبقت سفره وهو يختار العزلة لنفسه، كنت أحيانًا أسأله: هل تراني؟ هل تشعر بوجودي حين أمُرّ بجوارك؟ حتى النوم اصطفى لنفسه فيه أبعد غرفة في الشقة الفسيحة.

- ولكن لا يجوز له أن يحرمك من حقك فيه طوال تلك المدة!

لست أدري هل خرجت مني تلك الجملة بتلقائية؟ أم كانت اختبارًا صغت سؤاله بدقة؟ لكن إجابتها كانت حاسمة وفي أقل من ثانية كانت ترد علي بالإنجليزية، لست أدري لمَ ولكن ربما ليكون وقع كلماتها الصارمة أقل مباشرة كي لا أحس بالإحراج، فأرسلت ما ترجمته:

- أرجو يا دكتور ألا ينساق الحوار بيننا إلى أي منطقة غير ملائمة.. أنا متأكدة أنك لن تجعلني أندم على ثقتي فيك.

كانت هذه اللقطة الأخيرة من حواراتنا الممتدة كافية لتصويب أي مسار معوج سواء في الحوار نفسه أو في حديث النفس الشيطانية لي.. إنها بالفعل زوجة لم تعد تجد أذنًا صاغية تستمع لشكواها كما أفعل أنا معها، بعد أن فقدت تلك الآذان من أسرتها وصديقاتها وحلّ محلها لسان اللوم على إضاعتها فرصة الطلاق وقت سخونة المشاكل.

- هل تصدق أنه أحيانًا يلوح لي مهددًا ويقول: كيف لم تفطن الحكومة لانتماءات والدك الدينية؟ كيف فاتهم أن ملياردير مثله لا بد أن يكون من أكبر ممولي الجماعة الإرهابية!

- وهل كان والدك عضوًا في جماعة الإخوان؟!

- مطلقًا.. فقط كان يرتبط بصداقات بعضهم في أيام الجامعة التي قلما لم يتأثر طالب وقتها بنشاط الجماعات الهائل فيها آنذاك، ثم استمرت صداقته ببعضهم كما استمرت صداقته بغيرهم، ألم أخبرك كم هي اجتماعية أسرتي؟ ولو كان والدي عضوًا في الإخوان لكان الآن يحاكم في عدة قضايا أبسطها الانتماء إلى جماعة محظورة.

وفجأة أخرجني جرس باب شقتي من استرسال حواراتي معها.

لست معتادًا على صوت ذلك الجرس إلا من أصابع محصلي فواتير الكهرباء والماء والغاز أو من أنامل عمال توصيل الطلبات، وأنا لم أرسل في طلب أحد من هؤلاء وليس اليوم موعد أيٍ من أولئك.

من هذه التي لا تظهر العين السحرية ملامحها بوضوح؟

- (دنيا)؟!

- ما رأيك في هذه المفاجأة يا دكتور؟ ألن تدعوني للدخول؟!

(١٢)

- كنت في زيارة إحدى صديقاتي في منزلها القريب جدًّا من مسكنك، فدفعني الفضول لمعاينة شقتك التي طالما وصفتها لي عبر الواتساب، وخصوصًا حجرة المكتب تلك التي تقضي فيها أغلب يومك.

أجبتها مجاملًا وعقلي لا يكف عن التفكير في جرأة هذه الفتاة:

- حقًّا إنها مفاجأة سعيدة.

أجابتني ضاحكة:

- انتظر حتى تعرف الجانب الشرير من زيارتي، ألا تذكر أنني كنت لا أصدُقك حين كنت تؤكد لي أنك لا تعتمد على المأكولات الجاهزة مثلما يعتمد أي شاب عازب يعيش بمفرده؟

ضحكت وقلت:

- نعم أذكر، وأذكر كذلك عدم تصديقك لكلامي عن مهارتي في الطهي.

- إذن فلنختبر ذلك عمليًّا.. أنا أعزم نفسي على الغداء عندك!

وخطَت ببطء داخل بهو الاستقبال الواسع ونظراتها تمسح أرجاءه بفضول واهتمام فلم تلبث إلا أن قالت:

- شقة فعلًا لا توحي بعزوبة قاطنها، واضح أنك شديد النظافة والترتيب يا دكتور، وبرغم أنني لا أميل للديكور ذي الطراز الكلاسيكي التقليدي إلا أنني أحييك على ذوقك في تأثيثها.

أجبتها مبتسمًا فأردفت هي بابتسامة خبيثة:

- وواضح أيضًا أن شقتك لا تشهد زياراتٍ نسائية، أنت فعلًا مختلف يا دكتور!

يا لها من فتاةٍ جريئة؛ في تصرفاتها.. في ملابسها.. في كلامها.. في ضحكاتها وفي نظرات عينيها.

كانت شريرة حقًّا وجريئة فعلًا إذ أصرت أن يكون الطعام طازجًا مطبوخًا للتوّ وليس مما طهوته بالأمس طعامًا لأيامٍ قادمة.

- ننتهي من الغداء أولًا ثم تدعوني لمشاهدة باقي منزلك.

إنها أول طيف أنوثة يفوح في شقتي منذ غابت عنها شمسها.. وأول اختبار عملي لصدق زهدي الذي أدعيه في جسد كل حواء من بعد رحيل حوائي عني.

يا ليتها لم تمد يد العون لي في تجهيز الطعام في المطبخ، فبينما هي تدور حولي من باب الثلاجة إلى طاولة التجهيز التي تحتل منتصف المطبخ مكانًا ومساحةً إلى خزانات المطبخ وإلى الفرن،وأنا شيطاني لا يكف عن التساؤل:

هل تعمدت الاصطدام بي؟ أم أن كل مرات الاحتكاك تلك وليدة صدف الحركة في المطبخ؟

هل لا تشعر بانحسار قميصها عن أسفل ظهرها وهي تنحني؟

هل هناك ما هو أضيق من بنطالها هذا في خزانة ملابسها أم أنه يستحيل وجود ما هو أضيق؟

هل تخرج نهارًا بكامل زينتها تلك وبرائحة عطرها الفواح هذا؟

وعبثًا جاهدت في إسكات عقلي عن التساؤل وفي منع هرموناتي عن التدفق في دمائي، فاستأذنت منها لدقائق وهرعت إلى غرفة نومي ألوذ بصورة زفافي التي لا تزال تحتل مكانها فوق ظهر السرير.

ودار الحوار بيني وبين عينَي (سلوى) في صورتنا وراح كلٌّ منا يُلقي باللائمة على الآخر:

- هل هان عليك أن تخون عهدنا وتشتهي غيري؟

- بل أنتِ من خضتِ بحر الشك وكنت أرجوكِ فقط أن تبقي على شاطئه ولا تلجي أعماقه.

- لقد توسلت إليك أن تعد أنك تزوجت واحدة من نساء أهل الكتاب، وما اعتبرتُ توسلي حبك امتهانًا لكرامتي.

- لأنك تعلمين كم هو راسخٌ حبك في قلبي، بالضبط كما تعلمين أنني ما كنت لأبالي أمسيحية كنتِ أم يهودية.. أما ملحدة؟!

- أليست المسيحية أو اليهودية كافرة في نظرك؟ ما الفرق إذن؟

- وللمرة الألف أشرح لكِ الفرق؛ الكتابية تكذَب نبيي وتكفر بكتابي بالضبط كما أكفر أنا بعقيدتها وبسلامة كتابها، لكن في النهاية أنا وهي نؤمن بوجود ربٍّ واحدٍ خالق تنكرين حتى وجوده.

- أليس الإله محبة؟ أليس دين الحب يحتضن الجميع؟

- فما بالك تكفرين بإله الحب؟

ومضيت أسترجع حوارًا دار عشرات المرات بيننا حتى أفقت على من تقول لي:

- يااااه.. أما تزال يا دكتور تحتفظ بصورة زفافك وفي غرفة نومك!

لم أعد أستبعد شيئًا على جرأة (دنيا)، لن أستغرب لو دخلت عليّ الحمام الذي عادة لا أغلق مزلاجه بحجة غسيل يدها، كما لا أستغرب الآن أن شيطان الشهوة قد غادر غرفة النوم برغم وجود (دنيا) فيها معي، فما له عليّ من سبيل في حضرة

(سلوى) وتحت ناظري صورتها.

- أنت تستغفلني يا دكتور، هل ستتركني أنهي إعداد الطعام وحدي؟ أم أنك ذكوري التفكير تأنف أن تطهو لصديقتك؟

قالتها مبتسمة مغيّرة مجرى الحديث بعد صمتي أمام سؤالها عن صورة زفافي، فقلت ضاحكًا:

- يا لكِ من نصابة، أليس الطعام في الفرن أو فوق النار؟

- هيا بنا إذن فقد بدأت رائحته تفوح.

وتعاونّا سويًّا في إعداد المائدة، وأصررتُ أن نتناول الغداء على السفرة وليس على طاولة المطبخ كما أرادت هي.

- أنتِ ضيفتي لأول مرة، فليس أقل من مراسم دعوة الغداء الكاملة.

- موافقة، على أن تكون المرات القادمة أكثر بساطة!

إذن فهناك مراتٌ قادمة! لا بد لي إذن من تعليق صور زفافي في كل نواحي البيت.

وقضينا قرابة الساعة نثرثر على وقع الملاعق على الأطباق، حقًّا هي فتاة لا يُمل حديثها ولا تنتهي حكاياتها، مضت تكمل لي حكاويها عن أسرتها الصغيرة المكونة من أختٍ وحيدةٍ تصغرها بعامٍ واحد بجانب والديها، وعن هجرتهم لأمريكا لعدة سنوات حيث قضت سنوات دراستها الثانوية هناك، ثم قررت الأسرة العودة لمصر بعد أن وجدوا أن مستوى المعيشة الذي اعتادوه في مصر لا يطيقه مرتبا الوالد والوالدة برغم ساعات عملهم المضنية فوق ما اعتادا عليه هنا.

- عفوًا فهناك شيء أنا لا أفهمه؛ الناس هنا تحارب من أجل الهجرة إلى أمريكا لتحسين مستوى معيشتهم حيث المرتبات الخيالية، كلامك هذا ضد تلك الصورة التي يراها أغلب الناس.

- هذه الصورة صحيحة وأمريكا أرض الأحلام لمن هم دون مستوى معيشيّ معين في بلادهم، فتصبح الحياة الجديدة في أمريكا جنة بالنسبة لهم، أما بالنسبة لأسرتي فقد كان والدي مديرًا في شركة استثمارية كبرى وأمي طبيبة تخدير لها اسمها،وكنا أنا وشقيقتي في مدرسة من أكبر المدارس الدولية وأشهرها هنا في التجمع الخامس، ولنا عضوية في اثنين من أرقى نوادي العاصمة، وفي لحظة أحلامٍ وردية رأت أسرتنا أن الحياة اللائقة بنا هي هناك في فيلا راقية بضواحي لوس أنجيليس حيث لا عشوائيات ولا تلوث هوائي مائي سمعي بصري ولا طرقات للسير تحمل لافتة للمجانين فقط، والأهم من كل ذلك أن هناك نظامًا وقانونًا يسري على الجميع، ورأينا أنفسنا أسرة محظوظة إذ جاءت هجرتنا قبل ثورة يناير فتجنبنا فترات الفوضى والانفلات الأمني التي تلتها.

ثم لم نلبث بعد الهجرة أن رأينا الجانب الآخر من الصورة؛ سوق العمل هناك لا ترحم، وما اعتاد عليه والدي من مجهود صار عليه أن يضاعفه هناك بينما عمره يناهز الخمسين، وأن يؤدي بنفسه ما كان يوكله في مصر إلى بعض مرؤوسيه، وأن كفائته النادرة هنا يزاحمه فيها هناك المئات ممن هم أصغر منه سنًّا حيث الأولوية هناك للأكثر شبابًا وصبرًا على العمل بلا توقف، وأنه لا اعتبار لنظام الأقدميات في العمل، أما أمي وبعد أن كانت تعرف جدول عملها لأسبوعٍ مقبل وفي أفضل مستشفيات القاهرة صارت تضع اسمها على قوائم الاحتياط في مستشفيات L A (اختصارًا لاسم لوس أنجيليس) وتترقب أي اتصال هاتفي يطلبها للعمل في أي ساعة من ليلٍ أو نهار.

والمدرسة التي اعتدنا على مستواها الراقي في القاهرة لم نستطع الالتحاق إلا بمن هي أقل منها بمراحل، لدرجة أنني كنت أفضُل طالبة في صفي في أمريكا في مادة الأدب الإنجليزي، وبعد سنواتٍ ثلاث قرر الوالدان العودة إلى مصر

خاصة بعد أن فشلت أنا وشقيقتي في الحصول على منح دراسية جامعية، أنت بالتأكيد تعرف مصاريف الدراسة في الجامعات هناك، حتى إنني قضيت عامي الجامعي الأول هنا في مصر بعيدًا عن أسرتي أملًا في الحصول بعده على منحة أخرى في أمريكا ومعادلة ساعات ما درسته، لكن بدلًا من أن يحدث ذلك كان على أختي أن تلحق هي بي.

لم يكن قرار عودتنا سهلًا أبدًا، بل كان أصعب بكثير من سابقه العكسي، تكفيك دوامات أحاسيس الفشل وتبخر الأحلام، والأصعب منها أن صار استعادة سابق حياتنا حلمًا صعب المنال، فالشقة الفاخرة هنا في التجمع والسيارة الفارهة اللتان بعناهما قبيل الهجرة تضاعف ثمنهما في مصر كما تضاعفت أسعار كل شيء، وحصيلة العمل المضني لأبي وأمي خلال سنوات الهجرة تلك كان تآكل مدخراتنا التي حملناها معنا في سد العجز بين راتبيهما وتكلفة الحياة الباهظة هناك، لكن جاءت وفاة جدي لأمي كطوق نجاة سحبنا إلى بر مصر من جديد؛ إذ كان كل ما تبقى من مدخرات أبي لا يكفي لاستعادة الشقة والسيارة، فساهمت أمي من أجل ذلك بقسطٍ وافرٍ من ميراثها من أبيها بعد أن اشترطت على أبي تسجيلهما باسمها.

أما أبي فقد توسط من طوب الأرض كي يجد عملًا شاغرًا في القاهرة في منصب مقارب لما كان يشغله قبل سفرنا، فعدنا غير آسفين لا على الفيلا الهادئة في L A ولا على طرقات السير المنظمة، ناهيك طبعًا عن فارق الإحساس أننا كنا في مصر نعيش حياة الصفوة فصرنا نكابد في أمريكا كفاح الطبقة المتوسطة، وشجعنا على قرار العودة استقرار البلاد أمنيًا بعد ثورة يونيو وبعد انتخابات الرئاسة التي تلتها.

ثم مضت تحكي لي عن سنواتها التي قضتها هناك وكيف أن الانبهار بنمط الحياة الغربية الذي كانت تحسه قبل سفرها قد

تبخر بعده بعدة أشهر، وكيف أنها لم تسمح لزميلها (كيفين) بتذوق شفتيها بالرغم من تبادلهما بعض المشاعر الصادقة، لكنها كانت تعلم أنها مشاعر لا مستقبل لها، وهي لا تسمح بالتجول في حديقتها إلا لمن تطمئن نفسها بأنه سيكون ساكنها يومًا ما وليس مجرد زائر عابر.

ثم ضحكت في سخرية وهي تحكي لي عن (مروان) الذي أحبته في أول سنة لها في الجامعة ومنحته شفتيها وبعض أحضانها عُربونًا لصدق مشاعرها لكنها لما رفضت بإصرار أن تزوره في بيته.. هجرها بحجة أنها لا تحبه!

كنت مستمعًا طوال الوقت، وبرغم أنني لا يفصلني عن هذه الفتاة سوى سنواتٍ عشرٍ تقريبًا لكني أحسست وكأنها من جيلٍ آخر تفصلني عنه عدة أجيال، لكن ذلك الفارق بدأ يذوب فجأة لما وجدتها تناديني باسمي مجردًا بدون لقب دكتور...

- (سليم) هل أجد عندك إسدال صلاة؟ أريد أن أدرك الظهر والعصر فلن أكون في بيتي قبل أذان المغرب.

- ما هذا؟ أنتِ تصلين؟!

ولم أنتبه لقالب الطوب هذا الذي قذفته في وجهها إلا حين جدحتني بنظرة غضبٍ صامتة، فتلعثمت واصفر وجهي ونبتت على جبهته قطرتا عرق باردتان، لكني تداركت معتذرًا:

- أقصد بأنني أعلم أن كثيرًا من الفتيات تضطرهن ظروف الدراسة وصيحات الملابس لجمع صلواتهن في منزلهن حين يعدن إليه.

هزت رأسها في صمت ولم تعقب، فاقتربت منها وربت على كتفها وقلت:

- (دنيا)؛ أنا أسف.

ثم قبلتُ رأسها، فرفعت لي عينيها اللوزيتين وقد اختلطت

فيهما نظرات العتاب والصفح، ثم قالت وهي تضحك:

- سأعيد وضوئي بعد هذه القبلة حتى تجد لي إسدالًا أو سأضطر لأن ألفّ نفسي في ملاءة سرير بدلًا منه.

كان إسدالًا وحيدًا في البيت لم يستعمل مرة واحدة، بل كان ما يزال يقبع في مكانه الذي استقر فيه في دولاب الملابس منذ اشتريته لسلوى ظنًّا مني أنها ستستعمله يومًا ما، حتى ظننت أن (دنيا)ستفطن لذلك من رائحة القماش الجديد التي تفوح منه، لكنها سألتني في خبث وشقاوة:

- ماذا يصنع إسدال صلاة حريمي في شقتك أيها العازب؟

- لطوارئ مثل هذه الزيارة أيتها العفريتة.

ضحكَت ثم سألتني عن اتجاه القبلة ففرشت لها سجادة الصلاة ثم تركت لها غرفة النوم ومضيت أنتظرها في غرفة المعيشة، دقائق ووافتني هناك لتجدني قد أعددت لنا كوبين من الشاي فابتسمت وقالت:

- سلمت يداك يا (سليم)، هل هذا فقط لأنني ضيفتك أم لأنك شاب متحضر قد تخلص من رواسب الثقافة الذكورية.

أجبتها وأنا أسأل نفسي عن التغيير الذي جعلها – من بعد تناولنا الغداء – تناديني باسمي بدون لقب دكتور كما اعتادت:

- أولا أنا ضد هذه التسمية؛ الثقافة الذكورية، فطوال عشرات القرون من كل التاريخ البشري في أغلب أقطار الأرض وعلى اختلاف الحضارات والثقافات البشرية كان هذا هو التركيب الطبيعي للمجتمع؛ رجلٌ يسعى وراء الرزق الذي كان غالبًا يعتمد على الجهد البدني المضني، أو يحارب دفاعًا عن أسرته أو مجتمعه، ومن ثَم يجب أن تكون بقية مهامّ الحياة من مراعاة بيتٍ أو عنايةٍ بأطفال من مهامّ المرأة، ثانيًا حتى وأنا متزوج كنت أُعدّ لنفسي ما أحتاجه من قهوة أو عصير أو شطائر سريعة، في حين كانت زوجتي نفسها هي من تصر على ألا

أشاركها مهام المطبخ بالرغم من مهارتي في إعداد الطعام كما ذقتِ بنفسك.

ضحكت وهي تقول:

- لا يشكر في نفسه إلا إبليس يا (سليم).

نظرت لها بطرف عينٍ لائمة فقالت:

- أنا أمازحك فطعامك رائع بالفعل، وهذا دليل على انقراض ثقافة الرجل الذي يكد ويحارب بينما تنتظره الزوجة في المنزل، فما كنت تعرضه على طليقتك من مساعدة لم يكن يفكر فيه رجل الأمس أصلًا، الدنيا تغيرت يا (سليم) والمرأة صارت تزاحم الرجل في كل مجالات العمل.

- لن أختلف معكِ بل سأزايد عليه فأقول وعمل الرجال اليوم صار يغلب عليه العمل المكتبي المريح، ومن يعمل يدويًا اختصرت له تقنيات العصر كثيرًا من الجهد البدني القديم، فحتى لو كانت زوجته لا تعمل فهو قادر على مدّ يد العون لها خصوصًا مع تعقيدات تربية الأبناء اليوم من دروس وتمرينات رياضية ودورات تدريبية إلخ، لكن لاحظي أن عُمر هذه المستجدات لا شيء إذا ما قورن بأعمار البشرية جملة، بل إنكِ ستجدين المليارات من البشر من لا يزال نمط حياتهم حتى اليوم هو النمط القديم حتى في قلب أوروبا والعالم الغربي، فلا تستطيعين ادّعاء انقراض الأصل الذي لا يزال متجذرًا.

- ما أتمنى أن يعيه الشباب هو قاعدة أن لكل مقامٍ مقالًا، فلا يصح أن تكدح الزوجة مثلها مثل الزوج تمامًا وتشاطر البيت مصاريفه، ثم تكون مطالبة بكل أعباء المنزل والأطفال وحدها.

هززت رأسي موافقًا لها، فغيرت هي مجرى الحديث كأنها تذكرت شيئًا:

- تأثيثات بيتك هل هي ذوقك الخاص أم ذوق طليقتك؟

- تشاطرنا فيه الرأي في كل شيء.

- ذوقكما فريد؛ فبينما بهو الاستقبال وحجرة النوم من الطراز التقليدي بل والعتيق فإن المطبخ وحجرة المعيشة والمكتب والحمامات من الطراز الحديث بل شديد الحداثة، كأنهما ينتميان لبيتين مختلفين تمامًا ثم جرى دمجهما عنوة.

- الكثيرون قالوا لنا مثلما قلتِ، في حين أن هذا كان الذوق الشخصي لكلٍّ منا من البداية لدرجة أننا ضحكنا دهشةً حين اكتشفنا هذا الرأي المشترك في حين كان كلٌّ منا يشفق من صدمة الآخر حين يخبره بما يروقه.

- من كلامك عن طليقتك أشعر كم كنتما متفاهمين بل متطابقين فضلًا عن أن تكونا عاشقين متحابين، فكيف تطلقتما؟

أجبتها بالصمت المطبق فلم تكن الكلمات لتطاوعني، فتلعثمتْ معتذرة عن تدخلها في حياتي الشخصية، فابتسمتُ وقلت مخففًا عنها:

- لستِ بحاجة لأي اعتذار، فلقد سكتُ لأفكر في سبب طلاقنا لأنني حتى الآن لا أجد له سببًا سوى النصيب.

ابتسمت كأنها تحاول تصديقي ثم رشفت آخر رشفةٍ من كوبها ثم قامت وهي تقول:

- أرجو ألا تكون قد انزعجت من زيارتي المفاجأة تلك.

- بالعكس لقد سررت بها كثيرًا حتى إنني لا أرى سببًا لاستعجالك بالرحيل.

- لا أستطيع التأخر أكثر من ذلك، ولكن ثق أنني سأشتاق طهوك كثيرًا.

ابتسمت وقلت:

- المطبخ وصاحب المطبخ في انتظارك في أي وقت.

- إذن توقع زيارتي عما قريب.

وعندما وصلنا لباب الشقة صافحتني وأنا أفتح لها الباب ثم قبلتني قبلة واحدة على خدي.. لكنها لم تكن بطعم تلك القبلة التي حيّتني بها يوم حفل صفحتنا.. كانت قبلة بطعمٍ آخر وملمسٍ مختلف، حتى إنها تركت بصمة رطبة من رُضابها فوق خدي وعشرات التساؤلات في عقلي.

(١٣)

- مساء الفل يا دكتور (سليم)؛ لكم أحب نطق هذا الاسم الباشاواتي.

هكذا بدأت مكالمتها معي وهي تضحك حتى ذابت منها – كالعادة – عدة كلمات في بعضها البعض.

- مساء الخير يا (مها)، كيف حالك؟

- أنا وأختي (مارلين) هنا بجوارك في الداون تاون، (مارلين) تريد أن تشكرك على التخفيض الكبير في فستان الزفاف وأن تدعوك بنفسها لحضور إكليلها.

- أنا لم أصنع شيئًا يستحق الشكر وبالطبع يسعدني حضور إكليل أختك.

- إذا لم تكن مشغولًا هل تمانع في الانضمام إلينا؟

- دقائق وأكون عندكما.

هما أختان وسيلحظ ذلك كل من يراهما معًا، وبالرغم من أن مارلين أطول من أختها قامة وأسمر منها بشرة وأقصر منها شعرًا إلا أن ملامحهما تكاد تتطابق، ظللت لفترة مرتبكًا من مفارقة أن هذه مسلمة وتلك مسيحية بينما هما تتعاملان كأختين توءمتين، لو كانتا صديقتين لما كان الأمر محيرًا، فكم من أصدقاء حميمين أعرفهم ما زاد اختلاف الديانة ولا نقص من صداقتهم، لكن هذه الفتاة التي تحدت أسرتها في طلاقها وشردت عن ديانتهم ثم تعود دماء القربى بينهم إلى مجاريها الطبيعية فهذا جديد تمامًا على مسامعي.

وبعد حوالي النصف ساعة من أحاديث المجاملات المعتادة حضر خطيب (مارلين) وجلس معنا خمس دقائق ثم صحبها وانصرف.

كانت أول مرة أجلس فيها مع امرأة في مكان عام منذ

طلاقي، وكأنما كانت (مها) تنتظر انصراف أختها كي تجيبني على بعض تساؤلاتي فقالت بدون مقدمات:

- هل تعلم أنني حتى الآن ما زلت أحمل بطاقة شخصية بديانتي القديمة؟

فغَرت فمي مستفهمًا فأردفت هي ضاحكة:

- كمية العقبات والمصادفات الغريبة التي مرت بي في قضية طلاقي جعلت أمي تقول لي؛ تلك إشارات الرب لكِ بخطأ طريقك.

- أنا أذكر ما قلتيه عن فشل خطة شهادة الانتساب للروم الأرثوذكس ومن قبل عدم إمكانية الدفع باختلاف الملة عن (أمير)، ثم أشهرتِ إسلامك، فهل واجهتِ عقبات أخرى؟

- يااااه.. اسمع إذن..

بعد أن أشهرت إسلامي – عن اقتناع بالمناسبة – وحصلت على شهادة بذلك من الأزهر قام المحامي بتقديمها للمحكمة لكن قامت ثورة يناير!

وتوقفت أعمال المحاكم والقضاء، بل وأشعل بعض المخربين النار في مجمع المحاكم الذي كانت تتبعه المحكمة التي تنظر قضيتي، وكان عليّ أن أنتظر عودة المحاكم للعمل ثم أتقدم بعدها بدعوى جديدة للطلاق.

وأخيرًا حصلت عليه بعد قرابة العام.

وصار أمامي هدفان؛ أن أغير الديانة في بطاقتي، والأهم أن أغير شهادة ميلاد (ماريا) ابنتي إلى مسلمة مولودة لأبوين مسلمين!

قاطعتها:

- الهدف الثاني مستحيل طبعًا، فديانة الأب تسجل في خانات الشهادة.

ردت وهي تضحك وتتآكل حروف الكلمات كالعادة وسط ضحكاتها:

- هل تصدق أنني فشلت في الأولبينما نجحت في الثاني؟

- كيف ذلك؟

- كلمة السر في الحالتين كانت ثورة يناير!

أما شهادة ميلاد (ماريا) فقد سعيت من خلال معارفي المتشعبة بحكم عملي السابق حتى وصلت لموظف في مكتب الصحة، وبحكم التعاطف منه معي كمسلمة حديثة الإسلام ثم بحكم فوضى المصالح الحكومية وقتها مع تغليف الحكمين بألفين من الجنيهات قمت بتمزيق شهادة الميلاد الأصلية وكتابة شهادة جديدة تم فيها تغيير ديانة الأبوين!

- هل هذا معقول؟

- الشيء الوحيد الذي كنت محظوظة فيه في مشوار طلاقي هذا هو الأسماء، فلا اسمي ولا اسم طليقي (أمير) يوجد فيه اسم واحد يمتنع أن يكون اسمًا لمسلم، وبالطبع فإن اسم (ماريا) مقدس في كلا الديانتين.

- وماذا عن (أمير) نفسه؟ ماذا لو علم بما قمتِ به؟

أجابت وكأنها كانت تتوقع سؤالي:

- ولأنني أعلم مقدار بخله فقد لاحقته بعدة قضايا في عدة محاكم، ما بين نفقة لي إلى نفقة لابنته إلى مسكن حاضنة إلى تبديد قائمة منقولات، فقام هو بالخطوة التي كنت أتمناها وغيّر مكان سكنه واختفى بحيث لا تصل إليه دعاوى المحاكم... فعلًا كان الهجوم خير وسيلة للدفاع.

- بنفس السهولة بل أسهل كان يمكنك تغيير ديانة بطاقتك خاصة وأن القانون في صفك.

- ألم أقل لك: إن كلمة السر هي ثورة يناير؟ فبعدها تم فتح

ملفات المسيحيات اللاتي أسلمن، السلفيون يدّعون حبس عشرات المستسلمات منهن في أديرة الصحراء و إكراههن للعودة إلى المسيحية، والكنيسة تطالب بفتح ملفات من تقول إنهن تعرضن للاختطاف أو للتغرير بهن باسم الحب ثم تحويلهن للإسلام، بالتأكيد أنت تذكر تلك الأيام وكيف نُفخ في نار القضية وكيف دخل شباب الثورة على الخط فقالوا إنها قضية مفتعلة لتحويل الأنظار عن الهدف الأساسي للثورة من تطهيرٍ للبلاد ورسمٍ للمسار الديموقراطي فيها، فكان دخولهم هذا زيادة في النفخ في النار.

كنت أتصور أن مجرد دخولي بورقة إشهار إسلامي في الأزهر إلى مصلحة الأحوال المدنية سيجعلني أخرج منها ببطاقتي الجديدة مرفوعة على أكتاف الهاتفين بنصرة الإسلام ودعواتهم لي بالتثبيت على ديني الجديد، لكني فوجئت بأن ذلك النفخ في قضية المتحولات قد أصاب الجميع بالخوف وبالتوجس، خصوصًا أن الاتهامات صارت تلاحق بعضهم بالتواطؤ في تيسير الإجراءات خلافًا للقانون وللوائح، الكل كان يماطلني ويرمي بورقي من شباك موظفٍ إلى شباك موظفٍ ثانٍ ومن مكتب إلى آخر، وأنا ما يزيدني هذا إلا إصرارًا وعنادًا.

حتى وصل ورقي ذات يوم عند مكتب موظف أخذ يماطلني بشعار موظفي الحكومة المقدس:

فوتي علينا بكرة.

حتى جئته ذات يوم فوجدته يتصنع الحزن وهو يقول لي:

للأسف لقد ضاع ملفك!

كيف ضاع؟!

ألا تتابعين الأخبار؟ لقد هجم بعض البلطجية على المصلحة بالأمس وأتلفوا مئات الملفات والمستندات ومنها الملف الخاص بكِ.

ولأن الله قد وهبني شفافية من عنده فقد قرأت الكذب في عينيه، هنا قمت بما لم يخطر له على بال، فأغلقت باب المكتب علينا ونكشت شعري وكرمشت قميصي الذي كنت ألبسه ثم صرخت في وجهه. . .

إما أن يظهر هذا الورق حالًا أو سأصرخ بأضعاف ما تسمع من صراخ وأدّعي أنك تراودني عن نفسي وتتحرش بي، واصفر وجهه حتى تعرق ثم أخذ يقسم بأغلظ الأيمان على صدق دعواه بضياع ملفي، لكني مع أول صرخة مدوية مني. . .

الحقووووني!!

حتى تغير كلامه تمامًا وأخذ يتوسل لي ألا أفعل وأن أعطيه فقط فرصة خمس دقائق وسيأتيني بالملف بنفسه.

طبعًا لم أعطه فرصة أن يغادر المكتب فتفسد خطتي، فأمرته أمرًا أن يستعين بالهاتف المحمول في إحضاره، دقائق بالفعل وحضر أحد السعاة ومعه الملف، وبعد أن تأكدت من الملف ومن سلامة ما فيه من أوراق أفرغت غيظي في وجه ذلك الموظف المخادع الخسيس وأسمعته من الشتائم ما لم أكن أعلم وجودها في قاموس مفردات حديثي!

سكتت مستجمعة أنفاسها وأفكارها بعد هذه الوصلة الطويلة من حديث الذكريات، ثم ضحكت حين رأت ملامحي المندهشة التي ليس أقلها فمي الفاغر عن آخره وقالت:

- ألهذه الدرجة تدهشك قصتي؟

بلعت ريقي وأجبتها:

- من يراكِ لأول وهلة يا (مها) لا يتخيل كم أنتِ فتاة قوية مقاتلة ولا يتصور كمّ ما مررتِ به من دراما في حياتك.

ضحكت حتى دمعت عيناها ثم قالت:

- هل أنت وليٌ للرب مكشوفةٌ عنك الحجب؟ لقد كنت

حتى فترة الجامعة أضيق بالتربية المحافظة لأبويّ وبأسرتنا المنغلقة وأقول يا ربي ما هذا الملل؟! من البيت للمدرسة لمدرسة الأحد؟! ومن زيارات الأقارب المحفوظة لرحلات الترفيه الأسرية المقررة المكررة التي أفجر رحلة فيها كانت قضاء عدة أيام في رأس البر؟ ما هذا الفيلم الأبيض والأسود يا إلهي؟! يا ربي ارزقني بعض الإثارة في حياتي ولون شريطها ببعض الألوان.. وكأن باب السماء كان مفتوحًا على مصراعيه وكأن الملاك ميكائيل قد حمل شفاعة دعائي بنفسه، فصارت حياتي كمهرجان (هولي) الهندي للألوان وأخذت الأيام ترميني بالمساحيق والمياه الملونة ولكن بدون توقف وليس لعدة أيام من أيام الربيع كما في المهرجان الهندي.

وبعد أن هدأت بنا وصلة الضحك التي لفتت أنظار من حولنا من موائد المطعم، سألتها:

- وكيف سارت بكِ الأيام بعدها في ذلك الموكب الهندي؟

- حتى الآن لا جديد في موضوع البطاقة، أما نهر حياتي الثائر فلم يعد لهدوئه أبدًا.

- كيف ذلك؟!

ولعدة ساعات تناولنا في خلالها الغداء وعدة مشروبات أخذت تطوف بي في حجرات حياتها بعد الطلاق...

زادت قطيعة أسرتها لها بعد حصولها على الطلاق وخصوصًا بعد إشهارها لإسلامها، حتى إنها لما استأجرت شقة جديدة صغيرة لتقيم فيها مع طفلتها (ماريا) لم تخبرهم بعنوانها، وبالطبع توقفت عنالعمل في الأفلام التسجيلية لسببين، أولًا بسبب حساسية الموقف مع المخرج (مجدي) بعد تغيير ديانتها وثانيًا لأن المنظمة التي كانت تنتج الأفلام قد توقفت أصلًا عن التسجيل في مصر، فبعد الثورة صارت كل منظمة أجنبية تعمل في مصر متهمة من أجهزة الدولة ومن نشطاء

الثورة على حدٍّ سواء!، وما بين اتهامات العمالة إلى تهم الطعن في الدين إلى تهمة تشويه صورة المجتمع آثرت تلك المنظمة جمع كاميراتها وشرائطها والرحيل عن مصر حتى حين، وعادت (مها) لتطرق أبواب البرامج الإذاعية التي كانت قد هجرتها، ولأنها تعلمت الجرأة والقتال فلم تمانع من الإلحاح في مزاحمة من احتلوا مكانها الذي هجرته، وبالفعل حصلت على بعض الحلقات هنا أو هناك...

- مهما كان قلة ما أجنيه فقد كان بمثابة بعض الأكسجين يساعدني على التنفس وعلى الحد من تآكل مدخراتي.

ولأنني أوقن منذ طفولتي بأن يد الله دائمًا معي تسندني وتحوطني ولن يكلني أبدًا فقد ساق لي جارتي الجديدة الدكتورة (ابتهال) وأسرتها الجميلة، صارت وقتها بمثابة الأم لي وبناتها بمثابة الأخوات، كما أنها بوصفها أستاذا للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم فقد أخذت تعلمني مبادئ الدين خطوة خطوة، وما حببني فيها هو وسطيتها وتفتح أفقها، فبرغم إقرارها بشرعية الحجاب إلا أنها تركت لبناتها الحرية في عدم التحجب فكنت لا أُحس بالغربة وسطهن.

- هل تحسين بالغربة بين المحجبات حتى بعد إسلامك؟

- لا أقصد ذلك ولكن بنات الدكتورة (ابتهال) صرن وقتها أسرتي بالفعل.. أقضي معهن أغلب وقت فراغي وتلعب بنتي مع أطفالهن، فكانت الحياة وسطهن وبدون نقلة نوعية أحس بها في الطبع أو المظهر أو الأفكار عاملًا مساعدًا لي في حياتي الجديدة.

مططت شفتاي ولم أعقب فعقبت هي:

- أنت لا تعرف كمّ المفاهيم الخاطئة التي تلقنتها وأنا صغيرة عن المسلمين، بالضبط كما أدهش أنا من كم المفاهيم المغلوطة التي أجدها عند المسلمين عن المسيحيين.

توقف الكلام لدقيقة قبل أن تكمل هي حدودتها التي كانت تحكيها لي بشغف لا يقل عن شوقي أنا لسماع باقي تفاصيلها..

فقد اهتمت أسرة الدكتورة (ابتهال) بمساعدتها في حياتها الجديدة، فقامت ابنتها الكبرى بتعريفها بعدة أصدقاء لها يعملون في مجال الإنتاج الإعلامي والترفيهي التلفزيوني، فعاد قلمها ليشارك من جديد في كتابة نصوص حلقات بعض المسلسلات التلفزيونية هذه المرة،ولكن بعد أن غيرت قليلًا من اسمها الذي تتعامل به، فصار (مها صبحي) بدلًا من (مها يعقوب) ذلك الاسم القديم الذي استغل (مجدي) المخرج اتصالاته في غلق الأبواب دونه.

وعادت لتلتصق بالمكتب بالعشر ساعات يوميًّا في تحرير نصوص الحلقات، وعادت حصالة نقودها ليتزايد وزنها.

وبحركة بسيطة في سحب ملف (ماريا) للتحويل لها من مدرسة لأخرى تم استبدال شهادة ميلادها القديمة بتلك الجديدة.

وتطوع أحد أصدقاء عائلة الدكتورة (ابتهال) ممن لهم علاقة قوية بحزب الحرية والعدالة الإخواني والذي اكتسح الانتخابات النيابية وقتها، وطلب من الدكتورة (ابتهال) أن تعد موضوع تغيير بطاقتها أمرًا منتهيًا، وبالرغم من أن الدكتورة لا تحب تلك الجماعة فقد جارته أملًا في حل مشكلة البطاقة، ولما فشل ذلك الصديق حزنت الدكتورة وفرحت في نفس الوقت وقالت:

- ألم أقل لكنّ أن هذه الجماعة جماعة كلام لا أفعال؟

ثم رشفت (مها) من فنجان قهوتها وهي تقول:

- وما تزال البطاقة كما هي بالرغم من مرور أكثر من عامين، والموظف الذي كان يتحاشى تحويل بطاقتي بعد ثورة يناير

اتقاءً لأي مشاكل مع الكنيسة صار أكثر حذرًا بعد ثورة يونيو!

ثم ابتسمت وسكتت.. فبادلتها ارتشاف فنجاني وقلت:

- لكن كيف عادت مياه علاقتك بأسرتك إلى مجاريها كما أرى؟

ابتسمت وقالت:

- كلمة السر هي الزواج، فقد أثبت لهم عدم زواجي طوال هذه السنوات أن مشكلتي كانت مع (أمير) نفسه، وأن تحولي عن ديانتهم كان قناعة عقلية مني وليس نبضًا من قلب عاشقةٍ، وأسرتي برغم صعيديتها إلا أنها ليبرالية إلى حدٍّ بعيد، أما كيف كسر جبل الجليد بيننا فذلك يحتاج إلى حديثٍ آخر فأنا سأعتذر منك وأستأذن لأني تركت (ماريا) مع أمي وقد تأخرت عليهما.

******

- نعم يا دكتور (سليم)، أذكر (مها) بالفعل حسب وصفك بالرغم من أنني لم أمكث في الحفل إلا قرابة الساعة.

- هذه هي من أريد أن أحدثك بمشكلتها يا سيادة الرائد.

وما إن شرعت في سرد حكايتها حتى قاطعني قائلًا:

- هذه تفاصيل تحتاج إلى جلسة خاصة، هل تقبل دعوتي على فنجان قهوة بعد ساعتين من الآن في مول سيتي ستارز بمدينة نصر؟

- بكل سرور يا (صبرة) بك.

وقبل الميعاد كنت أنتظره على إحدى الطاولات الداخلية في أحد المقاهي، وحضر هو متأخرًا نصف ساعة تسبقه اعتذاراته عن تأخيره الخارج عن إرادته.

- بل أنا من أعتذر إليك أنني تسرعت في سرد ما لا يسرد على الهاتف.

- لا عليك يا (سليم) . . . هل تمانع أن نرفع الألقاب ونكتفي بشريف وسليم؟

رددت مبتسمًا:

- بل أنا بطبعي لا أحب الألقاب.

رد هو ضاحكًا:

- نفس طبعي بالضبط، مع أن الضباط والأطباء هما أكثر الفئات حساسية تجاه مسألة اللقب هذه.

وعلى وقع فناجين القهوة أخذت أحكي له قصة (مها) وهو ينصت باهتمام ويقاطعني حينًا مستفسرًا وحينًا آخر شاكًّا في بعض التفاصيل. . . التفاصيل هي أكثر شيء أكرهه ولكن مع ضابط مباحث فمهما كان الحوار وديًّا فهو بطبعه يذوب في أدق التفاصيل مستكشفًا كنهها.

وأحسست بالارتباك وأن أحكي له أنها استصدرت شهادة ميلاد لطفلتها بديانة مسلمة للأبوين ولذلك أحجمت عن ذكر أي تفاصيل مدعيًا عدم علمي بها.

وفوجئت بأنه يعرف الدكتورة (ابتهال) بل يعرف ابنتها الكبرى – التي تقارب (مها) في السن – أكثر منها لكونها من نشطاء الأحزاب الليبرالية التي تشكلت بعد ثورة يناير.

ولمعت عيناه لمعانًا خاصًّا حينما أخبرته بمحاولة صديق أسرة الدكتورة (ابتهال) مساعدة (مها) عن طريق معارفه في حزب الحرية والعدالة وفشله في تلك المحاولة!

- ولم تتزوج بالفعل بعد حصولها على الطلاق؟

- بكل تأكيد.

- ومتأكدٌ أنت من عودة علاقتها الودية بأسرتها؟

- أقول لك لقد كانت تشتري مع أختها فستان إكليلها بينما

تركت ابنتها في أثناء ذلك في رعاية أمها.

ابتسم في تعجب وهز رأسه وهو يقول:

- عجيب أمر هذه الأسرة.

وفي نهاية اللقاء أعطاني بطاقة تعارفه الشخصية طالبًا مني أن أوصلها لـ (مها) لتتصل هي به كي يرى ما يمكنه فعله لمساعدتها.

****

بعد أسبوعين كنت أنتظر (مها) في نفس المطعم الذي قابلتها فيه هي وأختها، حضرت وابتسامتها تسبقها إليّ وتضيع حروفها بين ضحكاتها، ولوحت ببطاقتها الجديدة في الهواء وهي تقول لي:

- هل إذا قبلتك هنا الآن سيحمر وجهك خجلًا ممن حولنا من الناس؟

ضحكت وقلت:

- هل لهذه الدرجة تبدو ملامحي أنها لإنسانٍ خجول؟

- إذن فخذ هذه!

ثم طبعت قبلة امتنان عميقة على خدي الأيسر، ثم ما لبثت أن ضحكت بعدها وقالت:

- يجب أن ترى وجهك الأحمر فيالمرآة الآن يا أبيض البشرة.

ثم جلسنا وجلست معنا عيون كل من كان حولنا في ذلك المطعم المزدحم دائمًا برواده، وأخذت تقص علي لقاءها الأول بالرائد (صبرة) وكيف أحست بالارتباك وهو يحاورها قرابة الساعة حول قصة إسلامها وطلاقها بالرغم من أنه بذل جهده في تصنع الود في الحوار وتخفيف الارتباك، ولما عادت إليه بعد أسبوعٍ كما طلب منها استغربته كثيرًا لمّا قال لها وهو يعطيها بطاقتها الجديدة:

- في أي وقت تعدِلين عن قرارك وتريدين العودة للمسيحية – بأي ملة تختارين – فقط ما عليكِ إلا أن تتصلي بي وستكون عندك بطاقة ديانتك القديمة في يومين.

أجبتها:

- أنتِ تعلمين أن بعض المتحولين من المسيحية للإسلام يندمون بعد فترة على قرارهم هذا لأسبابٍ مختلفة، ويعانون الأمرّين في استعادة سابق حياتهم وخصوصًا أوراق هوياتهم لو كانوا قد غيروا أسماءهم.

هزّت رأسها عن فهم وقالت:

- في البداية كنت أتوجس من لقائه وأقول لنفسي إذا كان حزب الإخوان لم يملك شيئًا لمساعدتي في عز سطوته، فهل سيبالي ضابط أمن وطني بمعاونتي خصوصًا مع ما تمر به البلاد هذه الأيام من أوضاعٍ حساسة سياسيًا ودينيًا واجتماعيًا؟ لكن الصورة اتضحت بعد كلامه الأخير هذا لي.

ضحكتُ بشدة وقلت لها:

- كيف كنتِ تثقين في قدرات هذا التيار الديني ونفوذه؟! والغريب أنكِ كاتبة فالمفترض أنكِ كنتِ تتابعين الأحداث عن كثب وتقرأين التحليلات السياسية في الصحف العالمية التي أجمعت وقتها على حتمية فشل ذلك التيار، بل تنبأ بعضها بسقوط رئيسه من قبل أن يسقط إذ لم يكن يدين له بالولاء أي مؤسسة من مؤسسات الدولة.

ضحكت هي أيضًا وهي تقول:

- (سليم).. أنا محررة حلقات إذاعية وتلفزيونية ترفيهية ولست صاحبة عمود سياسي في جريدة الأهرام، فكيف تخيلت أنني أتابع تحليلات الصحف العالمية؟

- ظننت ذلك بحكم عملك السابق مع تلك المنظمة وما

حكتيه لي عن أسفارك المتعددة للخارج معهم.

قهقهت بشدة فخرج صوت ضحكاتها رنانًا حادًّا ثم قالت:

- تذكرني بتلك الندوة التي حضرتها منذ فترة عن ظاهرة التحرش في الشارع المصري، وتحدث أحد الحضور عن أن التحرش بالنساء موجودٌ في كل بلاد الدنيا لكن بأشكال مختلفة، ففي بلاد يكون في الشارع وأماكن التجمعات العامة كما عندنا، بينما يصطاد المتحرشون في بلادٍ أخرى زميلاتهم في العمل أو في الجامعات، ثم ذكر عدة إحصائيات منها إحصائية عن مجلة فرنسية بأن نسبة التحرش في باريس تصل إلى ١٠٠ ٪ بين نساء باريس، فانبرت له إحدى الحاضرات وقالت: لقد عشت في باريس ولم أر شيئًا مما تقول فسألها المتحدث كم عشتِ في باريس فقالت: ثلاثة أسابيع.

وضحكنا سويًّا لثوانٍ ثم سكتنا لدقيقة قبل أن تسألني هي:

- بوصفك مثقفًا ومحبًّا للقراءة بل وتتابع الصحف العالمية، كيف تقيّم ثورات الربيع العربي؟ هل أفادت بلادها وشعوبها أم أضرتهم؟

وأخذت أفكر في سؤالها ولكن في ذلك المنحى الحزين مما أثاره السؤال عليّ من ذكرياتي الشخصية...

(١٤)

كانت (سلوى) أكثر مني حماسًا لثورة يناير، بل قل إن حماسي كان إحراجًا من حماسها، نزلَتْ ميدان التحرير عدة مرات فاضطررت للنزول معها، حاولتُ ثنيها بحجة أننا عروسان ما نزال نتنازع كؤوس الشهد والعسل بالرغم من مرور عدة أشهر على زواجنا، فكانت تغلق عينيها وتقول بنبرة حالمة: وددت لو أن زفافنا قد تأخر حتى نُزَف هنا في الميدان فيكون الميلاد ميلادين وصفحة الحياة الجديدة صفحتين.

قل إن طبيعتي النهمة للقراءة جعلتني من محبي المراقبة عن بعد... من مدمني التأمل للأحداث دون الانخراط في مخرطتها، فكان طبيعيًّا ومنذ التاسع والعشرين من يناير – اليوم الذي تلا مظاهرات جمعة ٢٨ يناير الحاشدة وأحداثها الدامية بين الشرطة والمتظاهرين – أن أزيح كل كتب مكتبتي جانبًا وأستبقي منها بين يديّ كتب التاريخ لأقرأ في صفحاتها كيف كانت الثورات في هذه الدنيا، وما قصُرت مكتبتي عن الإحاطة به تكفل السيد جوجل بإجابة أسئلتي عنه، كان السؤال الذي تشغلني الإجابة عنه؛ هل يمكن لثورة سلمية أن تكون بغير قائد وزعيم؟ وإذا وجدت فهل يكتب لها النجاح بدون رضًا من جيش الداخل أو قوى الخارج؟

ولم يمنحني إلحاح (سلوى) على المشاركة في فعاليات ميدان التحرير – والتي استمرت حتى الحادي عشر من فبراير – الوقت الكافي للبحث وقتها، وابتسمتُ إعجابًا بحماسها وأنا أراها تعتلي بعض منصات الثوار في الميدان لتلقي بكلماتها الحماسية الساخنة، لكني هلعت حين اعتلت منصة الإخوان وألقت خطبة عصماء عن أن دعوات الأنبياء في أقوامهم هي في حقيقتها ثورات ضد الأوضاع الاجتماعية الظالمة في مجتمعاتهم! وذلك ردًّا على فتاوى بعض الشيوخ السلفيين

بتحريم الثورة في الإسلام!

ولم أفهم كلمة واحدة مما قالت لأن عقلي وقتها كانت تشغله فكرة واحدة؛ ماذا لو أن أحدًا ممن حولنا – وأغلبهم من الإخوان أو من السلفيين الثوريين المؤيدين للثورة – كان ممن يتابعون مواقع الإلحاد والشك الديني على الإنترنت وتعرف عليها؟

ولم أسمح لخيالي بتصور ما يمكن أن يحدث إذا تعرف عليها أحد ''الإخوة''، ولكني تركت له العنان ليحاول فهم ما يدور في عقلية هذه المرأة...

- ما وجه التناقض في ذلك؟ نحن مختلفون دينيًّا لكن تجمعنا أهداف الثورة، بالضبط كما اعتلى منصة الإخوان عدة متحدثين مسيحيين.

- وكأن المسيحيين لا يحاربون هم أيضًا الإلحاد.

-أنا لست ملحدة بعد، وسواءٌ أكنتُ ملحدة أم لا أدرية أم لادينية فهذه الأيام شعارها لا صوت يعلو فوق صوت الثورة، الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية مطلب إنساني يستوي في طلبه الجميع.

ولذلك لم أستغرب حين بدأت الخلافات بين فرقاء الثورة أن أجدها تؤيد في استفتاء مارس – الذي كان أول خطوة لِما بعد تنحي مبارك – تؤيد اختيار الانتخابات أولًا ثم الدستور، كانت التيارات الدينية يؤيدهم المجلس العسكري الذي أدار البلاد بعد التنحي يفضلون اختيار الانتخابات أولًا، بينما كانت تعارض التيارات السياسية الأخرى ذلك وتفضل البدء بالدستور ثم الانتخابات، كان صوت (سلوى) في ذلك الرأي نشازًا وسط جماعات الليبراليين التي أخذت تبحث بينهم عن أنسب الأحزاب الآخذة في التكون لتكون من أعضائه المؤسسين، كانت تتساءل وتقول لهم؛ ومن سيضع هذا الدستور؟ وكيف نضمن عدم تحكم المجلس العسكري في اختيار أعضاء

لجنة كتابة الدستور؟ وعليه فيجب إجراء الانتخابات أولًا، وحين اتهمها أحدهم بأن لها ميولًا إخوانية وقد سبق له رؤيتها تعتلي منصتهم أيام الثورة؛ نظرت إليّ ونظرت إليها ثم انفجرنا ضاحكَين حتى دمعت عيوننا وسط نظرات استغراب من حولنا.

لم أتوقف عن بحثي وقراءاتي التاريخية بعد النجاح المؤقت للثورة وعزل مبارك، لكني توقفت أو قل أصابني اليأس من الحلم بالتغيير أو انتظار صفحة جديدة للوطن بعد ذاك الاستفتاء وأنا أرى شركاء الثورة يتحولون إلى فرقاء، والكل يسعى ما وسعه السعي لجني الثمار وحده أو لتضييع الفرصة على الفريق الآخر لحصاد أي شيء...

ثورة ليس لها قيادة وتعصف بشركائها الخلافات الفكرية والأيديولوجية ولا ترضى عنها أعمدة دولة الداخل ولا تساندها إمبراطوريات الخارج؛ لهي ثورة تنتظر الختم الرسمي لشهادة وفاتها، لهي صفحة في تاريخ الوطن تمزقت قبل أن تتم كتابة سطرها الأول.

وامتنعت عن المشاركة في أي استحقاقٍ انتخابي، وعدت لبرج المراقبة من جديد، ليس فقط لمراقبة مسرح العرائس الذي نصب في البلاد طوال سنتين بعد التنحي، بل الأهم لمعاينة العواصف وهي تضرب رأس سلوى.

*****

آن أوان أن أفصل لك ما سبق أن أجملت عني وعن حبيبتي..

كنا نظن لحظة أن عُقدت خناصر يمنانا بدبلتي الخطوبة أننا ملكنا مفاتح الجنان، لكن خنصرَيْ يسرانا فتحا لنا أبواب ما لا حبيبٌ رأى ولا شاعرٌ كتب ولا خطر على قلب عاشق، صُهرنا في صبابة لوعة الهيام بردًا وسلامًا على قلبينا حتى ما عدنا نعرف رأس أولنا من أنامل ثانينا، ذبنا في عسل المودّة شهرًا من الجنون كما أخبرتك سابقًا، حلّقنا في خلاله في شواهق

سماء التيم حتى ذهلنا عن الدنيا في أبعد فندق في أهدأ بقعة في مصر ما يزعجنا فيها إلا هدير موج بحرها الهادئ.

وما انقطعت أسباب خمر الوصال الحلوة عن بناننا ولا عن شفاهنا ولا نزلنا من باسق مدارات ولهنا حتى بعد أن حطت أجنحتنا عش الزوجية ووطئنا تكاليف الحياة ودرنا في ضجيج عجلاتها، إن هي إلا ساعات يقضيها كلٌّ منا في مستشفاه حيث يعمل ثم نعود لاهفين إلى وكرنا فما نشتهي منه خروجًا.

كنّا – أنا وهي – أزهد الأطباء عن الطموح الطبي، لم نفكر مجرد تفكير في استكمال دراسات عليا أو السعي وراء عقود عملٍ في دول الخليج أو حتى ساعات عمل إضافية في أي مستشفى أو عيادة، طبيب مثلنا في مصر لا يأكل عيش حاف، لكنك تعلم أن اعتمادي كان على ميراثي من والدي، والذي توفاه الله قبل زفافي بسنة، كان رحمه الله يحب الادخار في شراء المحلات التجارية المتميز موقعها، كان قناصًا ماهرًا يجيد قراءة مستقبل المكان وهو لا يزال بكرًا معقول السعر، ثم لا تلبث نظرته أن تتحقق فتتضاعف قيمته السوقية وتقفز قيمة إيجاره قفزاتٍ فلكية، خمسة محلات تجارية بهذا الشكل تدر – لا شك في ذلك – عليّ أنا وأمي وأختي ما يجعلنا لا نحمل للدنيا أي همّ أبدًا.

كان والد حبيبتي – الأستاذ الجامعي والطبيب الكبير كما تعلم – يتميز غيظًا منا نحن الاثنين بسبب زهدنا في التعيين الجامعي الممهد طريقه لأبناء الأساتذة أو أزواج بناتهم، فاكتفى بتوريث كرسيه لابنه! نعم، هو شقيقها المتعجرف الذي حدثتك عنه حين صفعته حبة عيني، لكن الأب سلّم بالأمر الواقع لِما رآه من تمام الانسجام وتطابق الفكر والطبع بيننا، لقد اخترنا حتى نفس التخصص الطبي.

كنا نعود من ساعات عملنا المحدودة فنقضي بقية يومنا

في نفس الاهتمامات المتطابقة فيما بيننا؛ القراءة بلا ملل، مشاهدة نوعية معينة من الأفلام الأجنبية المتطابق ذوقنا فيها، وتبادل الحديث بلا انقطاع ولا شعور بمرور الوقت، وحين نخرج – إذا خرجنا – نختار يومًا وسط الأسبوع هربًا من الزحام الذي يكرهه كلانا، بل كانت أغلب نزهاتنا في نطاق شارع التسعين الذي قلما احتجنا للخروج من واديه، حتى الرياضة التي علمتني هي ممارستها كنا نلعبها سويًّا في المنزل مسترشدين بالشرائط المتخصصة وأفلام اليوتيوب.

ومن شهرٍ لآخر نختطف يومين أو ثلاثة نقضيهما على أحد شواطئ البحر الأحمر، كلانا يعشق السباحة ويمقت الزحام والضجيج فكان اختيارنا يتراوح عادة ما بين شواطئ مرسى علم ودهب ونويبع وطابا، وأحيانًا شرم الشيخ أو العين السخنة لكن في غير مواسم زحامهما، أما الساحل الشمالي والغردقة فكنا لا نفكر في زيارتهما أصلًا فلسنا من عشاق الصخب ولا جو المظاهر والتكلف المبالغ في تصرفات الناس.

وبدون أن أطلب منها توقفت حبيبتي ومنذ شهر العسل عن ارتداء لباس البحر المكشوف الذي اعتادته قبل زواجنا، وصارت ترتدي ما يصل إلى ركبتيها ويغطي كل جذعها ولا يكشف سوى ذراعيها، في حين تلتفّ حول عجيزتها البديعة قطعة قماش تمنع تحديد تفاصيلها الرائعة الاستدارة... لكم كنت أعشق تفاهمنا وتفانيها في إرضائي!

كنا نفس الشيء.

ما وقع سوء الفهم بيننا إلا يوم أن حاولت منعي من مشاركتها إعداد الطعام، حتى أنت تعلم أن الطبخ إحدى هواياتي فكيف نسيت هي ذلك؟ لم أغضب من معارضتها ولكن من منطقها حين قالت:

- أنت تنفق على البيت ألف يائه فلا أقل من أن أتولى أنا

تدبير شئونه.

ولم أقبل استرضاءها إلا حين عاهدتني ألا تفكر ثانيةً بمنطق تبادل المنفعة.. وبالطبع أن تتركني أشبع هوايتي المطبخية.

عدا ذلك الموقف كنا نفس النفس.

ولكن... ولا بدّ لأي سعادة في الدنيا أن يكون فيها ’’ ولكن ‘‘... فتاتي تحمل في عقلها أطنانًا من الشكوك الدينية، وهنا ذهبت السكرة...

متى تسللت كل تلك الذئاب إلى الحديقة وأنا لا أدري؟ بالتأكيد هي شكوكٌ حديثة، لا يمكن أن تكون قديمة ولم ألحظ أنا ذلك قبل زواجنا، هي نفسها لا تدري كيف ومتى بالضبط حدث ذلك، أم أن سلافة راح العشق كانت أكثر تعتيقًا من أن نلحظ معها إلا سكرات هوانا؟

هل لأنها لم تتلق دروسًا دينية في مدرستها الدولية التي تلقت تعليمها فيها؟ لا أظن، فبعض نجوم الدعاة الدينيين الجدد خريجو مثل هذه المدارس.

هل لأن أسرتها لم تكن تهتم إن كانت تواظب على الصلاة أم لا تصلي أصلًا؟ لا أعتقد أيضًا، فأخوها لا يواظب فقط على الصلاة بل على أداء العمرة سنويًّا.

هل لأن والدها يشرب أحيانًا في بعض المناسبات الاجتماعية وفي أعياد رأس السنة؟ ما هذا التفكير السخيف يا (سليم)؟ أنت بنفسك قمت بتوديعه إلى المطار في رحلته للحج والتي لم تكن رحلته الأولى.

فمتى وكيف شردت غزالتي مني؟ ولماذا شاطرتني بحبٍّ كل شأني لكن ما قاربت حظيرة إيماني؟

ما من واحدٍ منا إلا حام طائر الشك فوق رأسه مرة أو بعض مرة، أما هي فقد حط طائرها وباض بيضته قبل أن يطير،

وفقست البيضة بأسرع مما أتصور، ويومًا بعد يوم صارت أسئلتها الوجودية الوجبة الأهم الرئيسية في مائدة أحاديثنا، ثم صارت المحور الأهم لقراءاتنا ومحرك بحثنا على الإنترنت.

أستطيع أن أقول لك: إن الداروينية ليست نظرية علمية عند اللاأدريين والملاحدة بل هي عقيدتهم التي يعتصمون بحبلها، وتزداد قوة تلك العقيدة أو تنقص حسب درجة انتماء صاحبها للتصنيف السابق.

لا ليست عقيدة حديثة بل هي أقدم من داروين ومن سلفه لامارك، قديمة قدم نشأة الفلسفة المادية الطبيعية، نادى بها (أنكسمندر) اليوناني قبل الميلاد بستة قرون حين قال: إن العوالم الحيوانية ظهرت حين جففت الشمس أجزاءً من البحر فاضطرت كائنات البحر للعيش في اليابسة ثم تطورت تباعًا؛ إذن فالإنسان أصله سمكة! بل أزيدك فأقول أنه اعتقد أيضًا في تعدد العوالم بلا نهاية إما على التوازي فيكون لدينا أكوانٌ لا حصر لها أو على التوالي فتكون الحياة قديمة من قبل الأزل، يفنى عالم ليحل آخرُ مكانه... نعم هي نظرية الأكوان المتعددة اللانهائية لكن في شكلهما القديم البدائي.

كانت تأتيني سلواي بعشرات ما يثبت صحة فرضية التطور فكنت آتيها بما يفند عشرات أدلتها، بالمناسبة كانت تغضب حين أسميها فرضية وتصر هي أنها نظرية وأن الوقت هو ما يحتاجه العلماء لملء ثغراتها التي أقول أنه بسببها لا تستحق التطورية لقب النظرية بعد، وأحيانًا تدخل معي في جدال طويل حول تعريف النظرية وتعريف الفرضية.

تحدثني عن الأعضاء الأثرية في جسم الإنسان والتي ورثها عن أسلافه من الكائنات فضمرت إذ أصبحت لا وظيفة لها عندنا، فأجيبها بأن قائمة هذه الأعضاء تتناقص يومًا بعد يوم بعدما يكتشف العلم وظيفتها..

- فما بال العضلات خلف الأذن والمسئولة عن حركة صوان الأذن في الحيوانات ولا تزال تعمل عند الشامبانزي بينما هي موجودة بشكل ضامر عند الإنسان رغم أنه لا وظيفة لها؟

- كانت قائمة تلك الضوامر تضم سابقًا الزائدة الدودية وضرس العقل ولوزتَي الحلق وعدة غدد، بل الغدة النخامية بجلالتها بين الغدد كان التطوريون يعدونها عضوًا أثريًا، والعلم قد اكتشف وظيفة هذه الأعضاء تباعًا وفائدتها للإنسان واحدة بعد أخرى وسيكتشف يومًا سبب وجود هذه العضلات.

- الخياشيم والذيل اللذان يظهران في تكوين جنين الإنسان مثلما يظهران في أجنة باقي الفقاريات دليل على الأصل المشترك.

- هناك تفسير يعتقد أن هذه الخياشيم ما هي إلا مراحل تكوين قناة الأذن الوسطى وبعض الغدد الصماء، وأن هذا الذيل ما هو إلا العمود الفقري الذي يسبق تكون الساقين عند الجنين لذلك يبدو وكأنه ذيل.

- الجزيئات العضوية للخلايا لجميع الكائنات الحية وآليات شفرتها الوراثية تتشابه بشكلٍ يستحيل إلا أن يأتي عن طريق أصل مشترك.

- لو تكلمنا في الشفرات الوراثية وتركيب الخلايا فقضيتكِ خاسرة بالضربة القاضية، فتكوين جُزَيء بروتين الهيموجلوبين من شدة التعقيد بحيث أن احتمالية تكوين جزيء واحد منه بطريق المصادفة هي ١ على ١٠ أس ٦٢٠! علماء الرياضيات يقولون لنا: إن ما زادت عشوائيته عن ١ على ١٠ أس ٥٠ فاحتماله في الواقع صفر كبير، هذا بروتين واحد فما بالك بـ ٥٠٠ نوع بروتين تحتاجهم أبسط خلية حية لتتكون؟

- إذا كان لديك ملايين السنين من التطور فإن الصدفة واردة.

- بل إن عمر الكون كله منذ الانفجار الكبير لا يكفي لإجراء

كل تجارب تكوين الهيموجلوبين العشوائية، بل إن ما في الكون من مادة لا تكفي كي تمدنا بالمادة اللازمة لإجراء هذه التجارب... فقط الهيموجلوبين.. فما بالك بخلية حية بأكملها؟

- سيأتي اليوم الذي يضيء فيه العلم تلك الحجرات المظلمة ليفسر لنا حدوث ذلك بدون الحاجة لتلك التجارب العشوائية ولا لحساب احتمالاتها، لا تنكر أن نظرية التطور قطعت أشواطًا هائلة منذ داروين حتى اليوم.

- وكل شوطٍ تقطعه يثبت مدى تهافتها، وكلما فككت وحدة من وحدات الحياة الصغيرة إلى أجزائها الأصغر فإنها تقف عاجزة أمام تعقيد تلك الأصغر.. عفوًا لن أبيع عقلي على أمل وصول القطار يومًا ما لمحطته بينما القطار لا يزيد في سيره إلا بعدًا عن الهدف.

- وبماذا تفسر إذن السجل الأحفوري الذي أصبح يحوي حتى الآن على أحافير أكثر من مائتي ألف نوع من الكائنات ويظهر فيه كيف تتغير وتتطور ببطء في اتجاه أشكال الكائنات الحديثة كأنك تشاهد فيلمًا تسجيليًّا يحكي قصة التطور بالتفصيل.

- ومن يومٍ لآخر تظهر أحفورة إحدى الكائنات التي لا تزال موجودة في يومنا هذا، لنجد أن عمر تلك الأحفورة أقدم من عمر أسلافها المفترضين حسب نظريتكم وسجل أحافيركم، وكلما وجدتم أحفورة لما تعدونه سلفًا بدائيًّا للإنسان تظهر أحفورة بشرية للإنسان أقدم منها، فتنقلب المائدة على كل نظريتكم.

- الوقت كفيلٌ بمزيدٍ من الأحافير تسد كل تلك الثغرات.

- عدنا لدوجما " الوقت الكافي " الذي كلما عصفت بنا تفنيدات النظرية سارعنا للاعتصام بحبله الخيالي!

وهكذا لا يتوقف قاربنا عن الدوران في بحر الجدل ولا يصل لشاطئ.

الغريب في الأمر هو نهاية كل مناقشة من هذه المناقشات بيننا... يشتد الجدال بيننا ويحمى وطيسه، ثم فجأة تغرق أعيننا في تبادل نظرة طويلة، تعقبها قبلة أطول، ثم يكون ما يكون مما جدّ أذكره فظنّ ظنك ولا تسأل عن الخبر!

تأتيني بعشرات الكتب والمقالات العلمية فأرد عليها بأختها التي تفندها.

- أنت حتى لا تؤمن بنظرية التطوير الموجَه التي يؤمن بها كثيرٌ من أهل العلم ذوي الميول الدينية.

- لأني ببساطة لم أجد أي دليلٍ جازمٍ أو حتى قوي على حدوث التطور أصلًا حتى أعتقد بكونه مدبرًا، لماذا أفترض أساسًا أن التشابه – تشريحيًّا كان أو جينيًّا – يقتضي وجود أصل مشترك للمتشابهات؟!.. بل إنني أؤمن بالعلم التجريبي الذي أول مبادئه أن الفرضية التي لا يمكن اختبارها معمليًا لا يجوز التصديق بصحتها، ولذلك...

ثم لمعت عيناي فتداركتُ قائلًا:

- هل إذا سلمت أنا بصحة نظرية التطوير الموجه فهل أنتِ على استعداد للتسليم بها كذلك؟ بأن التطور حقيقة ولكن لا يمكن بل يستحيل حدوث آليته بدون عقلٌ إلهي يصممه وتدفع يد الرب مسيرته؟

ضحكت وقالت:

- ذكرتني بصناديد قريش حين ساوموا النبي محمدًا فقالوا: نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة.

أجبتها ضاحكًا:

- وأنا هنا أمثل زعماء قريش أم سيدنا محمد؟

أغمضت عينيها وقالت وهي تشير بإصبعها لقلبها:

- أنت هنا سيده ومولاه وحبته ورسول عشقه وإله حبه فرعونيه وإغريقيه ورومانيه.

وهكذا مضى بنا قارب الزواج – من قبل ثورة يناير ومن بعدها – في نهر من العسل يفيض بحياتنا، ولكن يمتلئ مجراه بكثيرٍ من شوائب الشك واللاأدرية التي في عقل حبيبتي، جاهدنا جهدنا لتصفية نهرنا من شوائبه بأوراق كتبنا التي قرأناها وبشبكة بحثنا التي قتلناها بحثًا عن أحدث الأبحاث والمقالات في ذلك.

قرأت بسببها عشرات الكتب والمقالات عن الدارونية والمادية واللاأدرية والإلحاد، ومضيت إلى أبعد منها فأخذت بطرفٍ من الفلسفة، وتقاذفتني مجاذبات فكر تلك العقول الأرقى، وحاولت قدري خوض بحرهم الذي خاضوه، ولاطمت أمواجهم ما بين طبيعية ومثالية ونقدية... ذرية ورواقية ولذية وشكية ونفعية ووجودية وجدلية وتحليلية ووضعية منطقية وحداثية وما بعد الحداثة، بحرٌ خضم كلما ظننت أني ألممت بفنون الإبحار فيه فاجأني من أمواجه ما يضطرني لاستبدال قاربي بقارب أكبر ولتعلم المزيد من فنون ملاحته.

ورب ضارة نافعة، فما قرأته بسبب (سلواي) جعل عندي حصيلة لا بأس بها ساعدتني في التواصل مع أصحاب بعض الرسائل التي صارت تأتيني على الخاص تبثني شكوك عقولها، ألم أقل لك أن صفحتنا جعلتني موضع ثقة الكثيرين ومحط نظر تقديرهم؟ وأن السيط أهم من رسوخ العلم؟ لكن بضاعتي على قلتها ساعدتني بحمد الله أن أنتشل بعض العقول الشابة من دوامات الشك، خاصة أنني لم أكن أتكلم إلا بالعلم أو بالمنطق والفلسفة، فلم يكونوا أبدًا بحاجةٍ للكلام مع شيخٍ أو مع قسيس... نعم تحاورت مع عدة شبابٍ مسيحيين،

وأمكنني رد أغلب من حاورت إلى حظيرة الإيمان.

وأمكنني انتشال أغلب المستنجدين بي من لجاج الشك إلى شاطئ الله تاركًا لهم تلمس درب ما بعد الوصول إليه، قلت لك: إنني ما نجحت في التواصل معهم إلا لأنني لم ألبس ثوب الداعية الديني.

كان كلامي إما علميًّا بحتًا أو فلسفيًّا محضًّا:

الطفرات الجينية لا تنتج سوى تشوهات أو تغييرات سطحية كتغير لون العين أو الجلد...

العين في الكائنات البدائية التي تحتل قاعدة هرم الكائنات في نظرية التطور – مثل الكائنات ثلاثية الفصوص – من شدة التعقيد بحيث تنسف النظرية نسفًا...

نظرية التطور تتلعثم حين تحاول سرد سجل تطوري للعين أو لريش الطيور أو للحصان...

كيف يمكن تطور كائن مائي ليخطو على اليابسة؟ ذلك يتطلب منها تكوين نظام رئوي وآخر كلوي مختلف تمامًا وفجأة.

لا يمكن أن يتطور زاحف إلى طير؛ ذلك لا يتطلب فقط نمو تلك الأجنحة شديدة التعقيد بل يتطلب كذلك تغييرًا كليًّا في شكل وطريقة عمل رئتها وآخر جذريًّا في تركيب عظامها.

أو أرسل لأحدهم ملفًا يشرح تركيب الحامض الرواثي DNA وأقول له؛ اقرأ بتمعن وقل لي كيف بربك يمكن أن ينتج كل هذا الإتقان والتعقيد المذهل من مجرد مصادفات أو طفرات أو تكيفات مع البيئة.

أنا أؤمن بتطور النوع الواحد؛ كلب بكلب حصان بحصان صرصور بصرصور، أما التطور بين الأنواع، أي من نوعٍ لآخر، فهات لي يا صديقي دليل واحد غير قائم على الخيال

وعلى ترجيح أقوىالاحتمالات كما يقولون في علم البيولوجيا الجزيئية.

ولم يكن أغلبهم يكابر، أو على الأقل يقر بحتمية التوجيه الإلهي للتطور...

وبعد انتشالهم من لجاج الشك إلى شاطئ الله أترك لهم مهمة اختيار الدرب للسير نحو الرب...

لكم كان ذلك يسعدني وفي نفس الوقت يهيج أحزاني؛ كيف نجحت مع أحدهم فيما فشلت فيه مع نور عيني؟ إنك لا تهدي من أحببت، ويا ليتني حافظت عليها تطفو بعوامة اللأدرية فوق أمواج الإلحاد، لكن جاءتها ثورات الربيع العربي بما قلب عوامتها لتغوص تمامًا في غمار ذلك البحر المظلم!

(١٥)

- (سليم)؛ هل يجوز للفتاة خلع حجابها في ساعات العمل الذي يشترط عليها ذلك؟

ليست رسالة من عضوة من أعضاء الصفحة الذين يعتقد أغلبهم أن لديّ على كل سؤال جوابًا، لاحظ أنها لم تخاطبني بدكتور (سليم)، ثقة مخيفة ومسئولية أخوف، كم مشرف لصفحات أخرى يمكن أن يستغل تلك الثقة في بث أفكار مغلوطة؟ أم أن الثقة أصبحت على ما لا يرام بين الشباب الحدث وبين علماء المؤسسات الدينية الرسمية؟

إنما الرسالة من (لبنى) مساعدتي في إدارة الصفحة.

من قال لها: إنني شيخٌ أو أنني أصلح أصلًا للفتوى؟ أم أن السؤال مدخل للفضفضة؟ فبرغم أنها أقلهن ميلًا للحديث إلا أنك تستطيع أن تقرأ في عينيها أن شفتيها تطبقان على نهرٍ من الأسرار، لو انفتح ذلك السد لفاض اللسان بما عندها من حواديت... وقد كان.

لم أتعمد أن أكون غير فضولي في معرفة سبب سؤالها، وكانت هي بالضبط من ذلك النوع من النساء اللاتي يجفلن من أصحاب الفضول وإنما يفتحن قلوبهن لمن لا ينبش وراء ما يخبئه ذلك القلب.

شخص محل ثقة وغير فضولي.. هذا بالضبط ما يبحث عنه ذلك الصدر كي ينفث إليه بكل دخان همومه.

ودردشة وراء دردشة ومكالمة بعد أخرى انتهى الأمر بنا أن أنتظرها في ذلك المطعم في الطابق الأخير من مول أيكيا القابع هو أيضًا في منطقة التجمع الخامس بالقاهرة غير بعيد عن مجرى نهر شارع التسعين، وأقبلت تفوح من بعيد رائحة أنوثتها الفياضة بالرغم من أنها – كعادتها – ارتدت ما لا يبرز

مكامن فتنتها ولا يخبئها أيضًا، وأضفت من رتوش الزينة على بشرتها الخمرية ما جعلني أتأملها رغمًا عن عهد وفائي الذي أبرمه قلبي لزوجتي.. لا يجرؤ قلمي أن يسميها طلي ق... أكمل أنت الكلمة فيدي لا تطاوعني.

بالرغم من حلاوة ابتسامتها إلا أنها لا تخفي ما وراءها من حزن، وتجاذبنا طرفًا من افتتاحيات الحديث المعتادة، ثم شرعت تكمل بناء جدار الثقة الذي انبنى بيننا فمضت تحكي لي تفاصيل ما سبق أن لخصته لي من قصتها الغريبة:

بالرغم من أن عمل أبي هنا في مصر كان يدر عليه راتبًا معقولًا إلا أنه كان تواقًا للهجرة إلى أمريكا، كنت في الرابعة من عمري عندما جاءته تلك الفرصة التي لم ترتح لها أمي بدون سبب سوى ما نسميه بحاسة النساء السادسة.

عرفنا فيما بعد أن هذه الفرصة جاءته عن طريق أرملة أمريكية شابة كانت مندوبة إحدى الشركات الأمريكية التي تتعامل معها الشركة التي كان يعمل بها أبي، وجاءت إلى مصر في زيارة عمل وخطف أبي قلبها بوسامته، إذا كنتَ ممن يرون أنني جميلة فأنا وريثة والدي في أغلب جيناته.

سافر أبي على وعدٍ لأمي باستدعائنا – هي وأنا – بعد أن تستقر أموره هناك، بالفعل استقرت أموره لكن بالزواج من تلك السيدة والحياة معها في منزلها مع ابنتيها ثمرة زواجها السابق قبل ترملها، لم يخبئ أبي عنها وجودي أنا وأمي في حياته فلم تطلب منه طلاق أمي لكنها قالت له إنه يعرف بالطبع أن القوانين الأمريكية لا تسمح بالجمع بين زوجتين، فهم أبي الرسالة وحاول إيصالها لأمي بأن تكتفي منه بالزيارات التي يقوم بها لمصر بين الحين والحين، قبلت الزوجة الأمريكية ذلك لكن أمي أبت عليها كرامتها الرضا به، رفض أبي الطلاق بادي الرأي لكن جدي لأمي هدده بالشكوى لدى السفارة

الأمريكية، فتمّ الطلاق ولم يلبث جدي هذا أن توفاه الله.

سعى أخوالي لتزويج أمي بعد طلاقها، ولكن إما أن ترفض هي المتقدم لعدم مناسبة سنه أو شكله – لاحظ أنه مُطالب بملء الفراغ الذي تركه أبي – أو أكون أنا العقبة في طريق ذلك، وقتها لم يكن الطلاق متفشيًّا مثلما هو الآن فكانت فرص أمي تقل بسبب وجودي في حضانتها.. أو هكذا كان يقول لها أخوالي.

عندما ناهزت العاشرة كانت الضغوط فوق احتمال أمي خارجيًّا وداخليًّا! فاقتنعتْ بأنني تخطيت السن التي لا تستغني فيه الفتاة عن أمها، وبغير أن أصدعك بتفاصيل كثيرة وجدت نفسي في الطائرة مع أبي مهاجرة إلى أمريكا لأبدأ الحياة هناك معه ومع زوجته وابنتيها القريبتين مني في العمر.

تقبلت زوجة أبي وابنتاها وجودي معهم بكل سهولة، ليس بالترحيب الحار ولا بالقبول على مضض، لاحظ أنها كانت تعشق أبي عشقًا وذلك سهل كثيرًا من درجة قبولي عندهم، خاصة وأننا حالة شديدة التكرار بل نمطية في المجتمع الغربي.

بصراحة أحببت الحياة في أمريكا، خصوصًا أن أحدًا لم يكن يضغط عليّ في مراجعة دروسي وأداء فروضي المنزلية، نسيت أن أخبرك أنني لم أكن أبدًا من هواة التعليم، لكني كنت أبرع في الحصص الرياضية والرسم والأشغال اليدوية، هناك في أمريكا لا يقيم أولياء الأمور مأتمًا إذا كان ابنهم ضعيفًا في التحصيل الدراسي طالما أظهر براعة في موهبة أخرى، لذلك لم يغضب أبي من تعثري الدراسي حين التحقت بالمرحلة الثانوية، هو يتفهم جيدًا قدراتي وكسلي التعليمي، لكني في المقابل كنت رئيسة المشجعات لفرق المدرسة الرياضية بل ومصممة رقصاتهن علاوة على ما أظهرته من مواهب في

الرسم.

كنت أحيانًا أتردد على مصر لزيارة أمي التي تزوجت بعد سفري بقليل وكأن قطار الزواج كان ينتظر مغادرتي كي يصل هو محطة أمي فتزوجتْ من قبطانٍ بحري، ولذلك كنت انتهز أيام غيابه في البحر كي تكون هي أيام زيارتي حين أقرر الزيارة... لم أكن أشعر منه بكثير ترحابٍ بوجودي ولا بقليله.

وكأي فتاةٍ تعيش في أمريكا وقعت في الحب مرتين في المرحلة الثانوية، نعم وقعت بيننا بعض التجاوزات لكني لم أسمح لأيهما باقتطاف زهرتي، فكانت أختاي أقصد ابنتَيْ زوجة أبي تضحكان مني وتقولان لي: أنتِ لا تعرفين مقدار ما يفوتك من متعة! لكن بقايا تربية أمي لي كانت حاجزًا صعبًا أمام تخطي هذه الخطوة الأخيرة!

وفجأة

مرض أبي بالسرطان، وتدهورت صحته بسرعة، واستنزف علاجه أغلب مدخراته، وكان الله رحيمًا به إذ فاض سره بدون عذابٍ طويل له ولنا، ولكن كانت الصدمة لي من القوة بحيث أرسب تلك السنة من جديد وأنا أصلًا لا أحب الدراسة، عندها جاءت أرملة أبي لي ووضعت في يدي مظروفًا يحوي عدة آلاف من الدولارات وقالت:

- هذا نصيبك مما تركه لنا المرض بعد وفاة والدك، أنتِ الآن في الثامنة عشر من عمرك وتستطيعين الاعتماد على نفسك.

- يمكنني أن أمكث هنا على أن أدفع إيجار غرفتي.

- أنا سأبيع هذا البيت أصلًا وأنتقل مع ابنتيّ إلى بيتٍ أصغر.

كان البيت ملكها إذ هو نفس المنزل الذي ورثته عن زوجها الأول، واضطرت لبيعه بسبب تدهور حالتها المالية بعد وفاة أبي، لكنها أمهلتني حتى يأتي للبيت من يشتريه.

لم أحبذ العودة لمصر فأنا أحس بالرفض الصامت من زوج أمي لوجودي خاصة بعد أن رزقا بأخٍ لي، زد على أنني اعتدت الحياة الأمريكية، وفي انتظار قدوم من يشتري بيت زوجة أبي بحثت حتى وجدت وظيفة نادلة في أحد المطاعم، لكنها بالطبع ليست بالوظيفة التي تكفيني مؤونة الحياة خصوصًا إيجار سكن في مدينة مثل لوس أنجيليس، هنا ظهر (توم) أول صديقٍ أحببته في الثانوية والذي كان قد التحق بالجامعة بينما تخلفت أنا بسبب رسوبي السابق، جاءني في المطعم الذي كنت أعمل به كي يعزيني في والدي، وبعد نهاية دوامي جلسنا في نفس المطعم وأفضيت إليه بكل ما أحمله في صدري من هموم فلقد كان حبنا وقت أن وقعنا فيه حبًّا صادقًا.

- لا لن تعودي إلى مصر ولن تضطري لاستئجار غرفة في بناية حقيرة.

- كيف ذلك يا (توم)؟!

- شقتي التي أقيم فيها بها غرفة لا أستخدمها، يمكنك استئجارها مني مقابل عنايتك بالشقة وبطعامي.

- توم! أنت تعرض عليّ الانتقال للمعيشة معك؟!

- أنا أعرفك جيدًا، أنتِ لم تسلمي نفسك لي ونحن حبيبان فهل ستفعلينها وأنا مجرد صاحب شقة تستأجرين فيها غرفة؟

الحقيقة أن الأمواج كانت أعلى من قاربي، حتى أمي لم تسألني ماذا سأصنع بعد وفاة والدي، ولن أكذب فأقول: إن هذا كان هو الحل الوحيد المتاح أمامي، فقد كان باستطاعتي العودة إلى مصر وفرض نفسي على أمي أو أخوالي، لكني فضلت الانتقال إلى شقة (توم) وأقنعت نفسي أنني بالفعل أستأجر غرفة عنده مقابل العناية بشئون منزله، وبالفعل كان تعاملنا بادي الأمر في حدود هذا النطاق، فمئات الآلاف من الأمريكان يشاركون غيرهم في شققهم بالإيجار بلا تمييز

بين ذكر وأنثى، ولم يحاول (توم) تجاوز حد علاقة الإيجار هذه معي حتى استكانت نفسي له تمامًا، وبدأت زهور حبه القديمة تنبت في قلبي من جديد، فكنت أتفنن في العناية ببيته وبطعامه وكان هو يقبل يديّ امتنانًا للدفء الذي أبثه في البيت الصغير كما كان يقول لي، ومن قبلات يدي إلى قبلات خدي كان لا بد للشيطان أن يثبت وجوده بيننا...

- عدني بأنك فور انتهاء دراستك الجامعية ستشهر إسلامك وتتزوجني.

- ولماذا الإسلام؟

- لأن في ديني لا يمكن أن أتزوج سوى مسلم.

- أعدك.

- أتقسم؟

- أقسم بحبك.

وسمحت للشيطان أن ينجز عمله مخدِّرة ضميري بقسمه هذا... لقد اعتبرته زوجي.

وهنا توقفتْ عن السرد لأول مرة ودفنت وجهها بين كفيها!

- ما بكِ يا (لبنى)؟

- لا أصدق أنني انجرفت فحكيت لك هذه التفاصيل بالرغم من أنني كنت قد عزمت على إخفائها عنك كما أخفيتها حتى عن كل أهلي وصديقاتي هنا، لكنك تبدو محلًّا للثقة ومريحًا بشكل غريب بل بشكل مريب يجعل من أمامك غير قادر على إخفاء شيء عنك.

ابتسمت من كلامها ابتسامة رضًا وحياءٍ فأطرقت هي في خجل وقالت:

- لا بد أنك الآن تستحقرني أو على الأقل لا تنظر لي نفس نظرة التقدير القديمة.

ربت على كتفها ربتتين في حنان ثم قلت مبتسمًا:

- لا تجعليني أغضب منكِ وأنتِ منذ ثوانٍ كنتِ تنعتينني بأنني محل ثقة.

ابتسمت هي في ارتياح ثم أكملت قصتها بينما أنا أسأل نفسي أن كنت أعني كلامي هذا فعلًا أم أنني أطيب خاطرها مجاملًا!...

واستمرت بنا الحياة أنا و(توم) هكذا وأنا أعلل نفسي بالأحلام أرقب يوم تخرجه أن يفي بوعوده لي، وزادت الأحلام جمالًا يوم أن أحضر كتبًا عن الإسلام ليقرأها، لقد بكيت يومها من الفرحة كما لم أبكِ من قبل؛ إذن فهو صادق في كلامه معي ويريد أن يعتنق الإسلام عن دراسةٍ لا عن نزوة هوى، وكنت أخجل كثيرًا عندما كان يسألني عن بعض تفاصيل الدين فأعجز عن إجابته جهلًا، ومع تكرار أسئلته اكتشفت أنني لا أعرف عن ديني إلا بعض القشور بل أقل القشور، ويا للعجب بدأت أتعمق في ديني عندما أخجلني جهلي فبدأت أشاطره قراءة كتبه تلك!

وفجأة وقعت الصدمة الثالثة في حياتي بعد صدمتَي طلاق والديّ ووفاة أبي، لكنها كانت الصدمة الكبرى، لا لم يهجرني (توم) كما تبادر لذهنك...

لقد مات (توم)!

وتوقفت عن السرد لدقيقة تغالب دموعها التي غلبتها، وتوقفت أنا عن التنفس من المفاجأة، حتى الحركة في المطعم من حولنا توقفت صورتها كما تتوقف الحركة في الشارع لحظة وميض البرق، ثم ذهب تأثير البرق وعادت الحركة للمطعم وعاودت رئتاي التنفس من جديد بينما استجمعت هي شظايا روحها فراحتتكمل حكايتها...

كنت أنا وهو في رحلة في عطلة نهاية الأسبوع، ومثل كثير

من الأمريكان قررنا قضاء تلك العطلة في زيارة المناطق الطبيعية خارج المدينة، وكطبيعة أغلب الفتيات فإن مثانتنا لا تحتمل برودة الطقس كثيرًا فنحتاج لدورات المياه لمراتٍ أكثر منكم، ويضطر (توم) وقتها للوقوف عند أقرب استراحة ويملأ بالمرة سيارته بالجاز أو يحتسي بعض القهوة، لكنه في مرة منهم لم يكن بحاجة لأي شيء فقرر انتظاري في السيارة، لذلك تعمدت ألا أتأخر وأن أخرج إليه مسرعة، لأشاهد بعيني سيارة مسرعة طاشت فراملها وعجلتها من سائقها تتطوح على الطريق السريع وتدور لتنقلب فوق سيارتنا وينسحق (توم) بداخلها!

ظللت بعدها في حالة صدمة واكتئاب، ثم أفقت فجأة على نفسي وأنا أسألها؛ ماذا لو تأخرت الحادثة نصف دقيقة فقط؛ هل كان يمكن أن أموت أنا أيضًا؟ أن ألقى الله مهملة في صلاتي وعلى علاقة غير شرعية؟ هل كانت وعود (توم) لي بالإسلام وبالزواج لتشفع لي وقتها؟

بغير أن أطيل عليك وضعت نفسي في الطائرة عائدة إلى مصر، هربت من إحساس النحس الأمريكاني وأنا أرى أقرب الناس إليّ يموتان أمام عيني، وهربت من إحساس الذنب حيال حياة العشيقة والتي صورتها لي المفاهيم الأمريكية أنها حياة زواج ولكنه شفهي بغير عقد، والأهم فرارًا من التشرد بعد أن كان عليّ إخلاء شقة (توم) لعدم قدرتي على دفع إيجارها.

عدت إلى مصر لأعيش إحساس الضيف الثقيل، فبرغم أن شقة أمي واسعة بحيث أمكن تخصيص غرفة لي، لكن القلب لا يخطئ استقبال السهام الباردة مِن قلوب مَن حوله، فقط هي أمي من شعرت ببعض الدفء عندها، بينما وصلتني رسائل زوج أمي وأخي الصامتة.. نعم.. حتى أخي لم أشعر منه بكثير ودٍّ سوى أحاسيس من قبيل: هذه إذن أختي! لا بأس أن تكون لي أختٌ على ألا تكون ثقيلة الظل أو أن تعيش عليّ دور

الأخت الكبرى.

طبعًا أخبرتهم عن (توم) ولكن على أنه كان زوجي، لعل لقب الأرملة جعل أسرتي وأهلي يتعاطفون معي، ولم يسألني أحد منهم عن عقدٍ للزواج أو شهادات وفاة، وإنما سعوا جميعًا لتزويجي في أقرب فرصة.. هذا هو الحل الأنسب كي يستريح الجميع.

لكن من سيقبل زواج أرملة تحمل شهادة الإعدادية؟ حتى وإن كانت شابة وجميلة – هكذا يقولون عني – وعاشت في أمريكا؟ بالفعل تقدم لي الكثيرون لكنهم ما بين عجوز يريد ممرضة أو أرمل يريد مربية لأطفاله أو محدث نعمة بكرش فاسد الهندام ويريد تلك الفتاة التي تتحدث مثل الأمريكان كي تكون واجهته الاجتماعية.

ومن كثرة ضغوط أمي وأخوالي بدأت أنا في السعي لتزويج نفسي بجانب خروجي للبحث عن عمل كي لا أكون عالة على زوج أمي، مؤهلاتي الوحيدة كانت مظهري الحسن ولساني الأمريكي بينما شهادة الإعدادية تلك لم تفتح لي سوى أبواب العمل كمضيفة أو موظفة استقبال في المطاعم والفنادق الفاخرة خصوصًا مع سابق خبرتي الصغيرة من عملي كنادلة في أمريكا... لا بأس فمرتباتها أمكنتني من إعالة نفسي، بالطبع مع استمراري في البحث عن الزواج فعمل مضيفة المطعم ليس بالذي يؤمن مستقبل صاحبته.

لذلك عرفت أصابعي طريق مواقع الزواج، كل من صادفتهم عليها مستعدون لكل شيء إلا الزواج! هذه الأرملة الشابة التي تربت في أمريكا لا بد أنها صيد سهل تفتقد المتعة ولا تحمل تعقيدات عقول الشرقيات.

وفجأة دقت الفرحة بابي!

طبيب باكستاني يعيش في نيوجرسي، مطلق وبدون أولاد

ويبحث عن زوجة تفهم الحياة الأمريكية وفي نفس الوقت تكون مسلمة تعرف دينها.. إنها أنا! خصوصًا بعد أن انتظمت في الصلاة وبدأت أفكر في ارتداء الحجاب لولا ممانعة إدارة الفندق حيث أعمل.

تعارفنا – أنا والطبيب الباكستاني – وانسجمنا بسرعة، هل هو أكبر مني بسبعة عشر عامًا؟ لا يهم؛ هذا دليل النضج العقلي والاستقرار المادي، ثم إن وجهه وسيم زاده السن جاذبية، لقد تحدثنا عبر الكاميرا عدة مرات ليتأكد كلٌّ منا من هيئة الثاني.

وبسرعة أكبر اتخذ هو خطوات الزواج، وها أنا وأمي وخالي في انتظار استقباله في المطار... ويا لهول المفاجأة!

لا لم يعطيني أي معلومة مغلوطة، لكنه نسي أو تناسى أن يخبرني أنه قصير أقرب للقزم لا يتجاوز طول قامته الـ ١٥٠ سم... أي أنني أطول منه بربع متر!

لن تتخيل كمّ الضغوط عليّ من أهلي لقبوله وماذا صنعت لمقاومة ضغوطهم، لم يتوقفوا عن محاولة التأثير عليّ إلا بإثبات أنني لا أهدد بمحاولة الانتحار بل أنا صادقة فيها! وأنقذوني إلى المستشفى، وللمرة الثانية أشعر بالذنب الرهيب، هل كان يمكن أن ألقى الله مرة أخرى ولكن كافرة هذه المرة؟

وقررت ارتداء الحجاب.

وكان قرارًا ليس بالهين خصوصًا وأن شَعري هو أجمل ما فيّ!

قالتها وسكتت لثانية لترى تأثير كلماتها عليّ، ثم تبتسم في ثقة وهي ترى عينيّ تختلسان نظرة سريعة إلى شعرها لأعيد اكتشاف أنها محجبة.

ثم أردفت..

ومُنعت من العمل في الفندق إلا أن أخلع الحجاب، والمطاعم

التي تقبل تعيين محجبات لن يكفيني راتبها لأعيش في نصف مستوى المعيشة التي اعتدتها، فأنا كما قلت لك أعول نفسي إعالة تامة، فقط توفر لي شقة أمي وزوجها الإقامة المجانية.

وهكذا فأنا منذ قرابة السنة امرأة محجبة ولكن أضطر لخلع حجابي خلال مباشرة عملي في الفندق.

ثم ابتسمت وقالت:

هل عرفت الآن لماذا سألتك عن الحجاب يا (سليم)!

****

طبعًا لم أحك إلا أقل القليل من تفاصيل قصة (لبنى) لـ(تسنيم)؛ أولًا: لأني من ذلك النوع الذي يحفظ السر جيدًا، ولذا أسمع كثيرًا من يقول؛ تبدو محلًا للثقة، ثانيًا: لأن الرجال بطبيعتهم أصلًا لا يحبون سرد التفاصيل، لذلك اقتصرت على أن قلت لها: نريد عملًا مجزيًا يناسب مؤهلات (لبنى) لا تضطر فيه لخلع الحجاب.

- للأسف يا (سليم) مطاعم أبي لا توظف مضيفات، أولًا لطابع أبي المتدين الذي يرى عمل المضيفات عنده لا يخلو من شبهة شرعية...

ثم ضحكت وهي تقول:

- وثانيًا: لأن أمي تغار جدًا على أبي، فيوم أن زين بعض أصدقاء والدي له الاستعانة بمضيفات يرتدين العباءة التركية كزي رسمي لهن، فيكنّ علامة مميزة للمطاعم ودعاية للزي المحتشم الجميل، يومها وقفت أمي كالسد المنيع أمام هذا الاقتراح ولم أشاهدها غاضبة مثلما شاهدتها ذلك اليوم.

- هل يمكننا مثلًا التوسط لها عند أصحاب أحد الفنادق أو المطاعم من أصدقاء والدك؟

- الواسطة ستكون لقبولها في العمل أما أن تكون لاستثنائها

من شروط الزي فهذا غير ممكن، بخلاف أن نوعية المطاعم التي تريد أن تعمل فيها (لبنى) تخاطب إما الأجانب وإما أفراد طبقة معينة في مصر وهؤلاء غالبًا لا يكون الحجاب مرحبًا به عندهم، لدرجة أن بعض المطاعم لا ترحب باستقبال زبائن محجبات، تخيل؟!

- نعم، سمعت عن ذلك.

- بالإضافة إلى أن أبي في الأيام الأخيرة صار واسطة عكسية.

رددت باستغراب:

- كيف ذلك؟

صمتت قليلًا قبل أن تكمل:

- عندما أراك الليلة في إكليل (مارلين) سأقول لك كيف.

أغلقت (تسنيم) المكالمة وهي تسأل نفسها؛ كان يمكن لـ (لبنى) أن تنتقل للعمل في مطعم من الذين لا يشترطون خلع الحجاب وتعوض فارق الراتب بدخلها الذي تتقاضاه من صفحة حنين، أم أنها اعتادت على مستوى معيشي ونوعية مميزة من جو العمل لا تستطيع تغييرهم؟ترى هل تحادثت (لبنى) مع (سليم) في موضوع حجابها فقط لتسأله عن حكمه الشرعي؟! وابتسمت لذلك الخاطر ثم سرعان ما غاصت ابتسامتها وعادت لتذكر أحزانها، إنها في الفترة الأخيرة لا يوجد ماءٌ في صحرائها الجافة سوى الأوقات التي تسرقها من يومها للعناية بصفحة حنين أو للتواصل مع (سليم) وباقي مشرفات الصفحة و اللواتي صرن صديقات بمرور تلك الشهور على إنشاء الصفحة، غير ذلك فالهموم تطاردها من كل اتجاه.

لا وقت الآن للهموم – قالت (تسنيم) لنفسها – فلديّ ما هو الآن أهم من مطاردة عصافيرها داخل دهاليز عقلي؛ (منال) مصففة الشعر ستأتيني في خلال ساعتين، بالرغم من أنني

لا أضع مساحيق الزينة إلا أن (منالًا) تتفنن في طريقة لفّ الطرحة فلا ينافسها فيها أحد، وترسم بريشة زينتها على ملامح الوجه ما لا تلاحظه العين العابرة، كما أن لها لمساتها على الفستان وعموم المظهر النهائي، في خلال تلك الساعتين عليّ الانتهاء من شئون (حسين) قبل أن أعرج به على أمي كي ترعاه حتى عودتي من الإكليل وحفل الزفاف من بعده.. لا أحبذ ترك ابني في رعاية الخادمة الآسيوية، وبالرغم من تمعّر وجه أمي لما عرفت أنني ذاهبة لحضور إكليل إلا أن (حسينًا) قرة عينها... لا بارك الله في السياسة التي فرقت الأصحاب بل وقطعت الأرحام...

طنط (ليليان) التي كانت جارة وصديقة أمي منذ طفولتهما، ولم يعكر صفو محبتهما لا نقاب أمي يوم أن كانت منتقبة ولا كهنوت والد ليليان الذي يحمل رتبة قسيس، لكن تقطعت بهما الأوصال منذ أول انتخابات رئاسية بعد ثورة يناير بسبب حماس أمي الشديد للمرشح الإخواني الفائز، ثم تجافتا منذ أحداث ٣٠ يونيو ٢٠١٣ إلى أن هجرت كل منهما الأخرى في أغسطس من ذاك العام العصيب، بعد أن تبادلتا الاتهامات بالخيانة للوطن ثم الحظر على كل ما هو تواصل، من يومها وأمي شديدة الحساسية نحو المسيحيين، كأنها تحاسبهم جميعًا على صدمتها – كما تقول – في صديقة عمرها.

وعادت عصافير الهموم مرة أخرى إلى رأس (تسنيم)، إذ جذبتها رائحة السياسة للحط فوق عشها من جديد، ودارت رأسها غير مصدقة أن زوجها (أحمد) يمكن أن يصدر منه ذلك؛

هل يمكن أن يصل به الفجور في الخصومة لهذا الدنو؟ سألت (تسنيم) نفسها...

منذ شهرين وهو يصر على أن أنتقل للحياة معه في الرياض

حيث يعمل، ولما رفضت بسبب خوفي من الغربة خصوصًا وأنني صرت لا آمنه بسبب سابق مشاكلنا إذا به يلمح بما تحوّل إلى تهديدٍ صريح؛ المجنون يلوي ذراعي بما يعرفه عن سابق علاقة أبي أيام شبابه بمن صاروا قيادات في الجماعة المحظورة، ولأن أبي قد فتح الله عليه أنهار الرزق فما أسهل أن تلصق به تهمة تمويل الإرهاب وأنه من الأذرع الاقتصادية المستترة للجماعة، خصوصًا إذا جاء البلاغ من مواطن شريف هو زوج ابنة المتهم! العناد يورث الكفر، و(أحمد) يحمل درجة الدكتوراه في العناد مع مرتبة القرف!

لا أظن أنه هو من فعلها... فقد بدأت فعلًا رائحة الاتهامات تصل إلى أنف أبي وملفاته لا تزال في أدراجها، في حين كان (أحمد) لا يزال يرغي ويزبد آمرًا إياي باللحاق به في الرياض، أبي يذهب به الظن إلى أنه ربما هو من فعلها لغسل يده عنا حتى لا تطاله أي شظايا قادمة وهو زوج الابنة الكبرى التي كانت تساعد والدها في إدارة أعماله، في حين أن المصدر الذي سرب لوالدي رائحة الاتهامات يؤكد له أنها أقدم من تهديدات (أحمد).

ولأول مرة أرى أبي وأمي يتشاجران، لكم طلب منها أن تقطع صلتها واتصالاتها ولو مؤقتًا ببعض صديقاتها حتى تمر عواصف السياسة...

-لكنكِ لم تفعلي رافعة شعارات الوفاء والشهامة والعيش والملح، فانظري أين ذهبت بنا شجاعتك وشهامتك.

- وهل تظن أن ملفك ما كان ليفتح لو أنني فعلت ما طلبته مني؟

لقد كان أبي محتاطًا منذ بدأت العواصف السياسية، بل قل إنه شمّ رائحة العاصفة منذ انتخابات الرئاسة الأولى وكان متشائمًا وقلقًا من عواقب نتيجتها عكس أمي التي ابتهجت

يومها أيما ابتهاج بفوز مرشح الإخوان، واستغربت أمي بدء أبي في تسييل أصوله العقارية، واتهمته بخيانة التجربة الإسلامية حين بدأ في تحويل بعض أرصدته للخارج من باب الأمان، لكنها عادت لتشجعه على تحويل المزيد لمّا سقطت التجربة بعد عام!

طبعًا لن أحكيَ كل هذا لـ (سليم)، أم لا مشكلة في أن أحكيَ له؟ إنه فعلًا شخص يبعث على الارتياح في نفس من يعامله.. لا أستبعد أن حديث (لبنى) معه كان من باب الفضفضة دونما مآرب أخرى.

أنا فعلًا بحاجة للفضفضة وليس حولي من أفضفض له، أليس هو مشرف صفحة أوجاع القلوب؟ فها هو قلبي يُطعن ممن يفترض أنه زوجي وها هي أسرتي تنذرها عاصفة لا يعلم مداها إلا الله. لقد أطفأتني الهموم، حتى السنجاب الذي اشتريته مؤخرًا ما عاد يبهجني، وانطفأت حماستي كذلك لفريق محبي الدراجات الهوائية الذي أكون في غاية السعادة وأنا أشارك في جولاته صباح كل يوم جمعة.

أشياء بسيطة تضفي على الحياة الباهتة ألوانًا، وبدون البهار لا يكون للمائدة طعم.

الحمد لله الذي حرّم الانتحار!

(١٦)

كما أخبرتك من قبل عن رسائل الخاص التي كانت تأتيني منها المئات فأنتقي منها بسرعةِ ما اكتسبته من خبرة ما يستحق العناية وعناء الرد.

أكثرها من فتيات، وأغلبها بكائيات تباريح الحب الذي ظهر لصاحبته أنها ما كان ينبغي لها أن تبذله لهذا الذي لا يستحقه.

لماذا في الحب قليلًا ما نتعلم من تجارب غيرنا بل ومن تجاربنا نحن السابقة أحيانًا؟

تشابه غريب بين قصصهن كأنهن جئن لطبيب الحميات يشتكين الأنفلونزا الموسمية، الأعراض واحدة ومعروفة، والوقاية منها سهلة ومعلومة للجميع، والكل يسقط فريسة لها، ولا نلبث بعد التعافي منها أن نتساهل في الوقاية ظانين أنها لن تصيبنا هذه المرة.

لكن أنفلونزا الحب لا مواسم لها.

جميلٌ ذلك الإحساس أن تكون محط ثقة الشباب ومستراح همومهم ومستعصم مشورتهم.. جميل ومخيف في نفس الوقت؛ إذ يضع فوق كاهلي عقودًا من العمر فوق عمري، فيجعلني أشعر وكأني كهلٌ في الخمسينات من عمره تخاطبه الشابات بـ: حضرتك وبـ: يا أستاذنا، بينما أنا لم أغادر محطة الثلاثين إلا بمحطتين من محطات الشباب الجميل، أي لمّا أبلغ أشديّ بعد، طريفٌ ذلك التصنيف الجديد لمنظمة الصحة العالمية لعمر الإنسان إذ جعل سنّ الشباب يمتد حتى الخامسة والستين، لا أصدقهم في هذا بينما أصدقهم حين جعلوا سن المراهقة تمتد إلى الخامسة والعشرين، فجلّ الشكاوى التي تأتيني هي شكاوى أعراض المراهقة..

الجنس.. هي الكلمة المفتاح لأغلب الرسائل..

شُبّان لا يرتبط بإحداهن إلا بحثًا عنه، وعادة ما يرتبط بأكثر من واحدة؛ فتاة جاءتني رسالتها الباكية أنها اكتشفت صدفة من محمول حبيبها أنه يعرف عليها خمس فتيات!

وشاباتٌ تتقن إليه أيضًا ولكن في إطار الزواج.. أو الحب.. أو حتى الوعد بالزواج، المهم ألا يتسلل إليها إحساس أنها مجرد دمية جنسية.

وغولٌ اسمه العادة السرية يلتهم العقول والقدرات الذهنية والصحة النفسية قبل أن يتلهم الصحة الجسدية.

وثقبٌ أسود اسمه الدارج المواقع الإباحية، بينما وصفه العلمي الإدمان المدمر للمخ وللمستقبل الجنسي.

وبعضهم أو بعضهن تواتيه الشجاعة في بلادنا للصراخ طلبًا للنجدة من بئر الشذوذ العطن المظلم الزلق، إذ أنه لا يستطيع إطلاق صرخته تلك فيمن حوله.

هؤلاء عادة ما أحولهم إلى أطباء نفسيين مؤتمنين حذقوا إلقاء دلاء الإنقاذ لمرضى الشذوذ، عدا صارخ واحد تقيأت بسبب ما سرده عليّ، ثم بعد تفكير رأيت أن صرخته لا تدوي فقط في برية الطب النفسي...

كنتُ يا دكتور (سليم) أيام المدرسة الخاصة محدودة العدد صاحب شخصية ضعيفة، لكن من أول يومٍ في الجامعة بدا للجميع أنني صاحب شخصية شديدة الضعف، أذكر يوم أن جاء أحد الشبان من خلف فتاة وقرصها من خصرها فالتفتت لتحسبني أنني الفاعل فتصفعني، فلم أزد على أن سالت دموعي ولم أجرؤ على فعل أو قول شيء آخر.

لا أدري إن كانت (رضوى) راقبت ذلك الموقف أم كيف لاحظت ما أنا عليه من شخصية، لكنها في النهاية قررت أن تجعلني تابعًا لها، تأمرني قائلة: اذهب واشتر لي شطائر.. خذ

هذا الورق للتصوير ولا تتأخر.. خذ مفاتيح السيارة واجلب ما على مقعدها الخلفي من أكياس بلاستيكية.. إلخ أمثال طلبات السخرة تلك، وأنا أستجيب بدون أدنى مقاومة.

ثم في يوم دعتني إلى حفل عيد ميلادها في بيتها، وهناك حلقت لي بالماكينة نصف شعر رأسي وسط ضحكات أصدقائها وصديقاتها وأنا لا أملك سوى تلك الدموع التي حدثتك عنها.

وفي يومٍ آخر دعتني – أو قل بالأصح أمرتني – للحضور عندها في بيتها أنا وفتاة أخرى اكتشفت أنها نسخة مني في انسحاق الشخصية – لست أدري كيف تصطادنا (رضوى)، ويومها ألبستني قميص نومٍ حريمي ثم أخذت تتفنن في صباغة وجهي بمساحيق التجميل، في حين ألبست الفتاة جلبابًا كالذي يرتديه الرجال في الريف وأمرتنا بالرقص لها، ثم جاء خطيب (رضوى) ليشاركها حفل الإهانات والطلبات الغريبة، ثم تطور الأمر أن اعتدى عليّ جنسيًا أمامهما.. نعم اعتدى عليّ خطيب (رضوى) أمامها وهي لا تزيد عن إطلاق ضحكاتها الشيطانية، وأنا لا أملك سوى الدموع ولا أستطيع حتى أن أبكي بصوتٍ عالٍ.

الغريب بعدها أنني أحسست بمتعةٍ ما حدث! ودخلت في صراعٍ عنيف ما بين الرفض واللذة، لكنني لم أجرؤ بعدها على رفض طلبٍ لـ(رضوى) ولا لخطيبها!

ومرت سنوات الجامعة سريعًا، وكأني كنت أنتظر فرصة الهرب من (رضوى) فسافرت في أول فرصة عملٍ جاءتني في الخليج عن طريق أحد معارف والدي الذي لا أدري كيف نجحتُ طوال تلك السنوات في مفاداة أن يلاحظ ما أنا عليه من شذوذ.

سافرت لأبدأ فصلًا مختلفًا من قصتي مع الشذوذ لكن مع

صاحب البيت الذي كنت أستأجر شقة صغيرة في بنايته التي يقطن فيها مع أسرته، الغريب أن زوجته كانت تعرف بما يحدث بيننا، الأغرب أنها كانت تنتهز فرص سفر زوجها لتدعوني عندها في البيت حيث تكون بصحبة صديقة لها، فتلبساننني بدلة رقصٍ لأرقص لهما، ثم تمارسان معي الشذوذ باستخدام أدواتٍ جنسية مخصصة لمثل هذه المواقف المعكوسة يقمن هن فيه بدور الذكر بينما اعتدت أنا دور الأنثى!

ويبدو أن صاحب البيت قد شك أو اكتشف ما يحدث، فضربني علقة ساخنة وهو يهددني بالقتل أو بتسليمي للشرطة، لكن يبدو أيضًا أنه خاف من الفضيحة فاكتفى بترحيلي من بلاده.

عدت وأنا أشعر بأنني نجوت من الموت وأن عليّ أن أنجو بنفسي من براثن الشذوذ الذي جعلني والميت سواء، بل لعل الميت في راحة مما أعانيه من صراعات جعلتني أفكر في الانتحار غير مرة، لكني جبان – كما تعرف – فلم أجرؤ على الإقدام على قرارٍ كهذا.

وتنفست الصعداء بعد عودتي تلك، فأنا لست ذلك الشاذ الذي يبحث عمن يروي جفاف طينته، بل لا بد أن يأخذ أحدهم بزمام الحبل من رقبتي ويجرني إلى زريبته، وعشت النظافة لمدة سنة حتى بدأت أعتادها.

وفجأة ظهرت (رضوى) من جديد! لكن بعد أن تطورت وتطورت وسائلها.

حفلات جماعية وديكورات غريبة وملابس أغرب وممارسات عنيفة أو شديدة العنف مع بعضهم البعض وموسيقات بشعة تدوي في خلفية كل ذلك بينما تدور الكاميرات لتسجل كل ما يجري.

عدة حفلات في عدة أشهر لم أملك منها فكاكًا.

حتى جاء يوم أن لحق أبي بأمي في قبرها، ووجدتني فجأة أقف في العراء وسط أعاصير الدنيا وليس لدي حائط أستند عليه، لأول مرة أشعر بأنني ليس لي إلا أن أعتمد على نفسي.. أن آخذ قراراتي، ولأول مرة أقول لـ(رضوى): لا.. لا أدري كيف قلتها، لدرجة أنني أحسست لحظتها بأن أحدًا غيري هو من يرد عليها، حتى هي صدمت ونظرت حولنا لتتأكد بأن هذا الصوت يأتي مني أنا.

وهنا بدأت التهديدات بالفضائح بالشرائط المصورة بل وبالقتل، ووجدت حبلي مساقا مرة أخرى لحفلة أخرى من حفلات شيطانهم، لكن هذه المرة كان إحساسي مختلفًا، كان شخص آخر بداخلي يصرخ بالرفض لكل ما يحدث ولكل ماضيّ بل لي أنا نفسي، شخص آخر بداخلي يتفل عليّ ويقول لي: سأقتلك وأمحو عار ماضيك لأعيش بدونك في نظافة ..

أنا عضوٌ في صفحتك ولكن تحت اسمٍ آخر بالطبع غير هذا الاسم المستعار، صفحتك بالنسبة لي هي الحياة التي أتمناها.. الخيال النظيف الذي أسترق ساعات السباحة فيه هربًا من قذارة حياتي.. الفيلم الذي أتوق لأن أعيش أحداثه حتى وإن كانت عذابات حب وتباريح هوى ضائع، صفحتك هي غذاء الأنا الرافض الذي ينمو بداخلي حتى صار شخصًا آخر يهددني بالقتل إن لم أتطهر من نجاستي.

أمامك لتساعدني من اليوم حتى موعد الحفلة القادمة التي لا أعرف متى ستكون، لكنك ستعرف الموعد وصاحب الشخصية الحقيقية حين تقرأ خبر انتحار شابٍّ ألقى بنفسه تحت عجلات المترو في محطة الشهداء، ليكون ذلك أول قرارٍ لي أتخذه في حياتي!

انتهت قصته

وانتهيت من التقيؤ

ووجدتني أخاطب الرائد (صبرة)!

(١٧)

- لست أدري كيف أشكرك يا سيادة الرائد على اهتمامك بالرغم من أن الموضوع لا يتبع إدارة مباحث أمن الدولة، أنا مدين لك للمرة الثانية.

- أولًا اتفقنا على إزالة الألقاب فيما بيننا، ثانيًا بل أنا المدين لك هذه المرة لأن (رضوى) هذه التي أمسكتني طرف خيطها قد جرّت وراءها بكرات من الخيوط كنا نبحث وراءهم في إدارتنا، فانفرطوا كحبات العقد كل واحدة تسحب أختها؛ من شبكات دعارة، لشذوذ، لإنتاج أفلام منزلية إباحية، لتجارة أعضاء بشرية، لاستغلال أطفال شوارع، لتجارة مهلوسات كيميائية، ولا تزال الحبات تتساقط وما خفي كان أقذر.

هتفت في استغراب:

- تجارة أعضاء بشرية؟

- طبعًا يا (سليم)، ضحايا هذه الأنشطة الجنسية يمارسون شذوذهم في أخفى الخفاء عن كل من حولهم لما تسببه لصاحبها من خزي، هؤلاء يمكن اختفاؤهم بسهولة مثل أطفال الشوارع، مع الفارق أن أطفال الشوارع مستودع أمراض شبه مؤكد، لذلك فأعضاء هؤلاء أنظف.

- سبحان من سبّب الأسباب، فمن واتته الشجاعة منهم ليصرخ طالبًا نجدته تسبب دون أن يدري في تساقط هؤلاء كقطع الدومينو المتراصة.

- وبفضلك حصلت أنا على نجمة ذهبية في سجل خدمتي في أول ملف أتولاه بعد انتقالي للإدارة المعنية بملفات النشاطات السرية تحت اسم المنظمات والمؤسسات الدولية.

- العفو يا (شريف)، أنت إنسان خدوم وتستحق أكثر من ذلك.

صمتنا للحظات قبل أن أردف أنا:

- هل سنراك في احتفال اليوبيل الأول لصفحتنا؟

- بكل تأكيد، ما لم يأتني ما يمنعني.

وأنهيت المكالمة وأنا أفكر في عدة أمور متوازية؛ في علاج ذلك الشاب ضحية الشيطانة (رضوى) وهل ستكون عنده إرادة العلاج من شذوذه، وفي حفل صفحتنا التي خفَت بريقها بعض الشيء تبعًا لعامل الزمن ولذلك نحتاج لذلك الحفل لاستعادة بريقها من جديد، ولهذا اقترحت (تسنيم) تقليل هامش الربح من حصيلة بيع تذاكرها لجذب أكبر عدد ممكن من الحضور، بينما اتفقت (مها) عن طريق علاقاتها في مهنة كتابة سيناريوهات الحلقات التمثيلية مع إحدى الفضائيات الحديثة لتغطية بعض فعاليات الحفل..

مسكينة (تسنيم)؛ بعد أن كانت تتواصل معي شغفًا بمعرفة تفاصيل قصة حبي وطلاقي التي أثارت كل مكامن الفضول وغريزته عند المرأة، صارت تتواصل معي إفراغًا لشحنة همومها التي تراكمت فوق رأسها دفعة واحدة، وفي ليلة زفاف (مارلين) لم تكن لا المناسبة ولا الزحام مواتيين لكي تقص عليّ سوى رؤوس عناوين.

وبعد ترددٍ كبير منها تلاقينا في اليوم التالي في أحد مقاهي مول أمريكانا بلازا الرابض في الضفة الجنوبية لشارع التسعين أمام مبنى الجامعة الأمريكية غير بعيد عن فيلا والديها.

- أشعر بالذنب لخروجي معك وأشعر أكثر بالتردد في أن أفضي إليك بهمومي التي لا ذنب لك في تحملها...

ثم ابتسمتْ ابتسامة خفيفة حزينة وأكملت:

- لكنك من اخترت تغيير مجالك من طب الجلدية إلى النفسية بسبب صفحة حنين، وأنا بالفعل أحتاج لأن ألقي من فوق كاهلي بما أعانيه، وبالرغم من أنها أمور عائلية شديدة

الحساسية إلا أنني أشعر وكأن رأسي سينفجر إن لم أحكِ همومي هذه لأحد..

وقصت عليّ ما سبق أن حكيته لك عن تهديدات زوجها وتزامن ذلك مع ظهور مشكلة والدها..

واستمر اللقاء لثلاث ساعاتٍ تقريبًا، استهلكتْ فيهن عدة رِزَم من المناديل الورقية حتى أفرغت كل شحنات همومها، وأخبرتني بعدها كم هي سعيدة بأنها ارتاحت بعد الفضفضة، وتسألني أن توافيني بالمستجدات إن كنت مهتمًّا لمعرفة ذلك، ولكن عن طريق الواتساب كي لا تشعر بالذنب ثانيةً.

وطبعًا كنت في منتهى الشغف لمعرفة ما استجد عندها طوال تلك الأشهر التي فصلت بين يوم لقائنا وبين يومنا هذا، وما أكثر ما استجد عندها...

والدها سارع بالابتعاد عن المشهد المصري حتى يهدأ التهابه، وقبل انتقاله إلى انجلترا التي يحمل إقامتها باع أغلب فروع مطعمه كحقوق امتياز (فرانشايز) محتفظًا بفرعين اثنين فقط موكّلًا إدارتهما لزوجته ولتسنيم.

- هل تصدق أنني لم أتحدث مع والدي هاتفيًّا منذ انتقاله للندن؟

- لماذا؟

- كلما أمسكت بالهاتف لأحدثه – سواء وحدي أو من ضمن اتصال عائلي به يختنق صوتي بالعبرات وتغلبني دموعي.

كما أنها رفعت قضية خلع على زوجها برغم قسمه لها ولأهلها أن تهديداته تلك كانت نزقًا مجردًا لم يدخل أبدًا حيز التنفيذ، ولكن من يصدقه وقد تزامنت تهديداته تلك مع فتح ملف أبيها... وحسنًا فعلت..

فما إن رفعت قضيتها حتى انفجر بركان غضبه وخرجت حُممه

تهددها بالبلاغ عنها هي نفسها وبحرمانها من ابنها والذي يجب حمايته من أن تربِّيَه إرهابية، لكنها في الدردشات الأخيرة بيننا ألمحت لي بأن المال سيقول كلمته لإنهاء مشكلتها وإقناع زوجها في إطلاق سراحها منه في هدوء، وأن مشكلة حياتها لم تعد الطلاق الذي صار مسألة وقت وإنما ابنها (حسين) الذي بدا وكأنه يشعر بكل ما يجري فأخذت نفسيته في التدهور من جديد.

و(مها) تلاطم أمواج الحياة فتتعلم في سبيل ذلك من فنون السباحة ما وسعها التعلم، فبجانب عملها في كتابة سيناريو الحلقات، وبجانب دخلها من صفحة حنين الذي تراجع نوعًا ما –ولذلك نحاول استعادة توهجها الأول –فها هي تستغل علاقاتها المتشعبة في اقتناص بعض صفقات السمسرة الصغيرة؛ صديق يفكر في استيراد شحنة من مجففات الشعر من الصين؟ أنا سأسوق لك جزءًا كبيرًا منها وعمولتي بالطبع محفوظة، صديقة تريد افتتاح كافيه ولكن تريد فكرة لم يسبقها إليها أحد؟ أنا لدي فكرة مبتكرة والفكرة لها حقوق ملكية لها ثمنها، بجانب أنها تعطي دروسًا خصوصية في مادتي التاريخ والدراسات الاجتماعية لطلبة المرحلة الإعدادية... المهم أنها تريد البقاء هي وطفلتها في مستوى معيشي كالذي اعتادته، وطفلتها تكبَر ومصاريفها تزداد، كما أنها لا تريد في نفس الوقت أن تتقاضى أي مساعدة مالية من والديها بالرغم من عروضهم المتكررة عليها وبالرغم من علاقتهم الطيبة الفريدة من نوعها.

الجديد كذلك عندها هو طفلتها (ماريا) التي بدأت تودع الطفولة فبدأت في إطلاق أسئلتها:

أين بابا يا ماما؟

لماذا لا نعلق صليبًا في بيتنا مثل الذي في بيت جدتي؟

ولماذا لا توجد مصاحف في بيتها؟

ما هي المواعدة dating يا ماما؟ ومتى يمكنني ذلك؟

لماذا لا تتزوجين يا ماما؟ أريد إخوة لي مثلما لزميلاتي وزملائي في المدرسة.

يبدو أن الزواج هو الحل لمشكلات الكثير من النساء، مثلما هو الحل أيضًا لـ (لبنى) التي عرضت (مها) عليها أن تستأجر غرفة عندها في شقتها حتى تتخلص من إحساس الضيف الثقيل الذي تحسه في بيت أمها لكنها اعتذرت منها شاكرة...

- هذا حلٌّ غير مُجْدٍ يا (سليم)، عاجلًا أو آجلًا ستتزوج (مها) وغالبًا ستتزوج في شقتها هذه، وقتها ستكون عودتي لبيت زوج أمي في غاية الصعوبة والإحراج.

لكن (مها) مدت لها يد المساعدة بشكلٍ آخر، إذ أمدتها بمن يريدون دروس محادثة باللغة الإنجليزية؛ لكنتها الأمريكية الصرفة وسعرها المنافس جلب لها المزيد من طالبي هذه الحصص، حتى إنها استبدلت ذلك المطعم الذي يشترط عليها خلع الحجاب بكافيه إيطالي لا يشترط سوى المظهر الجذاب واللغة بالطبع للتواصل مع مرتادي المقهى من الأجانب، وبذلك تقضي جلّ يومها بعيدًا عن تقطيبة وجه زوج أمها حتى في تلك الشهور التي يغيب فيها مبحرًا وراء طلب رزقه.

أما (دنيا)...

غالبًا هي من تدق جرس الباب الآن، لا أحد يأتيني في هذا الوقت سواها ولا يمر شهر دون أن تتذوق طبيخي...

- هذه المرة أنا من سأطبخ لك يا (سليم) لكن لا تجاملني في رأيك في طهيي.

قالتها وهي تدخل مباشرة من باب الشقة إلى المطبخ حاملة

عدة أكياس بالتأكيد تحمل ما تود تجربة طهيه فيَّ.

هذه هي الوحيدة منهن التي فشلت في فهمها.

ودخلت إلى الحمام ثم خرجت وقد استبدلت ثيابها بزي رياضي وهي تقول:

- لا أريد أن تعلَق بثيابي رائحة الثوم والبصل والشواء!

لم أعد أندهش لتصرفات هذه الفتاة، لكني أحمد الله أنها انتقت زيًّا فضفاضًا عكس صيحات هذه الأيام في الأزياء الرياضية النسائية التي تتفنن في استحضار المزيد من هرمون التستوستيرون في دماء من يرونها من الرجال...

لا.. لم تغب (سلوى) عن بالي يومًا، وما يزال قلبي يقطر المسك عليها، فدمها هو دمي والمسك بعضٌ من دم غزالي.

لكني أيضًا لست قديسًا ولا ملاكًا، والإخصاء النفسي فشل في أن يتطور إلى إخصاء عضوي، صحيحٌ أنني لم أمسس غزالة بعدها، لكن النهر الثائر لا يعدم أن يجد تصاريفه، وقد أخبرتك في البداية كيف كانت فرسي تضج أحيانًا برغبات فارسها، فماذا يصنع الفارس بعد أن شردت فرسه في حقولها البعيدة، وفرّقت بينهما دوامات متاهاتها التي تاهت فيها.

لا بد لعفته من مخرجٍ في أحلام نومه.. وأحيانًا في أحلام يقظته! لكنه يحفظ عفته أن تتلوث بأحلامٍ تعكر بياض صفحتها، فيمزق أولًا بأول ما قد يعرضه شيطان الغواية عليه من صور مفاتن زهرات صفحته الأربع!

- أنت بحاجة للزواج يا (سليم).

هكذا انتشلني صوت (دنيا) فنظرت إليها مدهوشًا وأنا أقول لنفسي:

يبدو أنها قد سرقت موهبة قراءة الأفكار من (تسنيم) التي شغلتها مشاكلها عن ممارسة هوايتها معي.

ثم أردفت قائلة وهي منهمكة في تجهيز الطعام للطهي ولا تنظر إليّ:

- هل فاجأك كلامي أم أحرجك؟

أجبتها وأنا أمد لها يد العون متجنبًا أيضًا النظر في عينيها:

- لا هذا ولا ذاك ولكني أفكر في سببه الذي دفعكِ لقوله.

- لا يمكن أن تقضي زهرة شبابك هكذا تبكي ذكريات حبك الذي لا يسلاه قلبك.

- وما أدراكِ بسلا قلبي أو بسلواه؟

- لا تسأل هذا السؤال لفتاة، خصوصًا إذا كانت مساعدتك في صفحتك التي أنشأتها تأبينًا لحبك وعلى اسم حبيبتك، وخصوصًا إن كانت هذه الفتاة تزور بيتك فما تجدك تخلصت من ذكرى واحدة من ذكرياتها.. إنها الوجه الذي ما تزال عيناك تشرقان على صفحته كل صباح في صورتها تلك التي تحتل مشرق غرفة نومك..

ثم حولت وجهها إليّ ضاحكة وقالت:

-يا رجل أنت لا تزال تحتفظ بمستحضرات تجميل بشرتها في حمامك.

ابتسمت متصنعًا الخبث محوِّلًا مضربي من الدفاع إلى الهجوم:

- يبدو أن لديكِ عروسًا لي.

ردت الكرة وكأنها كانت تنتظر الإجابة..

- ثلاث عرائس جميلات وليست واحدة.

لا.. أنا لم أستعد لمثل هذه المباراة ولم أتمرن جيدًا على ملاعبة (دنيا) التي لا أفهم أين تذهب بأفكارها ولا من أين تستقيها، فاكتفيت بالنظر إليها مستفهمًا فقالت:

- ما رأيك في (مها)؟ فتاةٌ من معدن صلب، عركت الحياة وعركتها، امرأة بعشرة رجال كما يقال وإن كنت لا أحب هذا التشبيه الذي يقلل من شأن المرأة، كما أنها ينبغي أن تتزوج تثبيتًا لها على دينها وإعانة لها على دنياها.

سكتُّ ولم أعقب فأكملت هي:

- أم يصدنك عنها وجود ابنتها معها؟ وأنكما إن رزقتما بأطفال سيكون أخوالهم مسيحيين؟

نظرت إليها باستنكار وقلت:

- هل ظنك في أنني أفكر بهذه الطريقة؟

- إذن فليس لديك مانع!

- أنا فقط أستنكر كلامك.

- وأنا فقط أفكر معك بصوت عالٍ.. أو ما رأيك إذن في (لبنى)؟ الحسناء التي ظلمتها الظروف؟ أم أنكم معشر الأطباء لا ترتبطون إلا ببنات كليات القمة كما يسمونها فكيف سترتبط بمؤهل تحت المتوسط؟

وضعتُ السكين التي كنت أقطع بها الخضروات ونظرت إليها متصنعًا الجد وقلت:

- (دنيا)؛ كُفي عن هذا الكلام.

تجاهلت ردي وأكملت:

- هل عرفت أن طلاق (تسنيم) مسألة أيام؟ مؤهل من كليات القمة مثلك وثراء باذخ، هذه أنسبهن، أم أنتدينها الزائد وميول أسرتها الإخوانية لا يناسبانك؟ خصوصًا وأن لديها طفلٌ شديد الحساسية النفسية؟

نظرت إليها بطرف عيني وقلت متصنعًا المكر:

- نسيتي الرابعة!

ردت على الفور:

- أنا لا أصلح لك! أنا أصغر منك بأكثر من عشرة أعوام ولم يسبق لي الزواج...

ثم نظرت في عيني نظرة محيرة وهي تقول:

- أليس كذلك؟!

ولأول مرة منذ بداية الحديث تسعفني خواطري فرددت عليها:

- ومن قال أنني أقصدك أنتِ!

ردت مندهشة:

- فمن؟

- أن أعود لطليقتي.

ضحكت وقالت:

- ملعوبة يا دوك.. هيا لنتناول الطعام قبل أن ننزل.

سألتها مستغربًا:

- إلى أين؟

- لأختار لك ربطة عنق تناسب فساتين وصيفاتك في حفل صفحتنا المنتظر.

جلسنا نأكل وأنا أفكر في هذه الفتاة الغريبة؛ إنها إما تحبني بطريقتها الخاصة وإما أنها تعدني الأخ الأكبر الذي تفتقده.

- فيم شرد ذهنك؟

هززت رأسي نافيًا أن لا شيء فأردفت هي:

- تستغربني، أليس كذلك؟ أنا نفسي أستغرب نفسي.

ثم قالت كأنها تذكرت شيئًا فجأة:

- (سليم)، بمناسبة الحديث عن طليقتك، طوال هذه السنة؛

ألم تسع للقائها؟ ألم تقابلها ولو صدفة؟ ألا تسعى لتقصي أخبارها أو أحوالها؟ ألا تعرف إن كانت قد تزوجت أم ارتبطت بأحد؟

- هل ستصدقينني إذا قلت لكِ: لا؟

- لا؛ ماذا بالضبط؟

- كل ما سبق.

- فكيف تعرف أنها لم ترتبط إذا كنت لا تستقصي أخبارها؟

- لست بحاجة لتقصي أحوالها.

ابتسمت وقالت:

- أثقة فيما كان بينكما؟ أم لا تريد أن تصدق أنها قد تكون لغيرك؟

لماذا يصر البعض أن يسأل أسئلة لا نملك أي إجابة عنها؟!

(١٨)

اليقين الرياضي المبني على حسابات تعطيك النسبة المئوية الكاملة ١٠٠٪ عندما نضعه أمام ترجيحات البيولوجية الجزيئية التي تميل لتبنّي ما تعده أقوى الترجيحات مدعومة بما تتمناه بعض الأهواء؛ فأيهما يكسب؟

لا أحد يجادل اليقين الرياضي إلا مكابرةً.

وأوشكت (سلوى) أن ترفع الراية البيضاء في مناقشاتها معي...

- فمهما أعطاكِ التشابه التشريحي أو الجيني الوراثي من صلصال ليستخدمه خيالك كي يربط الكائنات الحية كلها في سلسلة تطورية واحدة، فإن حساب التفاصيل يقطع باستحالة ذلك بدون يد تشكل ذلك الصلصال وعقل يدفع تلك السلسلة نحو التكون والتطور، فأصغر تفصيلات تلك السلسلة –الخلية الحية– مستحيلة على الصدفة، وتفصيلات تفصيلاتها ممتنعة عن الطفرة، وفجوات السلسلة أكثر بكثير من خاناتها المملوءة..

وأخذ كلامي السابق هذا يملأ عقل حبيبتي فلا يجد له دفعًا، وبدأ يعجز أمام فكرة أن الوجود بدون خالق مجرد كلام فارغ...

حتى وقع الربيع العربي!

وتقلبت الأرض العربية بكل ما عليها؛ شعوبًا وحكامًا وأنظمة وأفكارًا ومعتقداتٍ وعادات وموروثات، حتى التاريخ أعيدت قراءة أحداثه بمناظير مختلفة أحيانًا وشاذة أحيانًا أخرى... حتى المناخ أصابه التغيير.

واستعرت المذابح في بعض البلاد العربية، وتواترت حواديت التعذيب حتى الموت والاختفاء القسري للمئات، وقصفت

قرى بالسلاح الكيماوي ودكت أحياء سكنية فوق رؤوس ساكنيها، وسُحقت يد التغيير تحت أحذية الحرب الثقيلة، ودهست أحلام الشباب تحت قطارات مطامع النخب علمانيها وعسكريها وقوميها وإسلاميها، فابتلعت دوامات اليأس عقولهم، وتصادمت تلك القطارات ببعضها البعض فتزعزعت أنظمة وتقوضت أركان واهتز ما كان يومًا من الثوابت الفكرية والعقدية التي لا تتزعزع، وتعطلت صوامع وبِيَع وصلوات ومساجد كان يذكر فيها اسم الله كثيرًا.

ومزقت (سلوى) كل أوراق حساب احتمالات تكوّن الخلية مع كل صور السجل الأحفوري في وقت واحد، ورفعت راية:

أين الله من كل ما يجري يا (سليم)؟

ألا ينصر دينه؟ ألا يغيث أمته؟ ألا تسمع آذانه صيحات أقبية التعذيب أو أدعية المحاريب؟ ألا يهتز قلبه للأطفال الذبحى في سورية أو للعيال الهلكى في اليمن؟ أفلا يرسل سيف الحق كي يقاتل غيلان الشر؟

فإما أنه أهملنا أو أنه يرضى بالشر أو لا يستطيع دفعه أو أنه غير موجود أصلًا!

نفس الحجة الأبيقورية عن معضلة الشر تتردد بعد خمسة وعشرين قرنًا ولكن على لسان سلواي هذه المرة.

وعبثًا حاولت إمدادها بمئات الردود وعشرات الحجج، وإنما راحت هي تفتش في مجلدات التاريخ تسأله عن مذابحه، وكأنها اكتشفت التاريخ بعد أن لم تكن تعرفه من قبل فصارت تبكي لأهوال الحرب العالمية وفظائع هجمات المغول ومذابح الحروب الدينية في أوروبا وجرائم إبادة الهنود الحمر بالملايين في أمريكا، وابيضت شعرة في رأسها بسبب محاكم التفتيش الإسبانية للمسلمين واليهود، وشعرة أخرى لِما لاقاه (كونتا كنتي) من أهوال هو والملايين من رفاقه الأفارقة المخطوفين

من ساحل أفريقيا الغربي ليصيروا عبيدًا في القارة الأمريكية، وقبل أن تبيض بقية رأسها هلعًا من الحروب الأهلية ومطاحن الثورات في التاريخ؛ أغلقت كتب التاريخ معلنة اعتناق ما كان في رأسها مجرد شكوك..

لا إله!

- فمن خلق الخلق؟

- يومًا ما سنعرف إن كان هناك خلقٌ أصلًا أم لا.

- أو نموت قبل أن نعرف لنفاجأ بملاقاة من أعمينا عقولنا عن أدلة وجوده.

- سأقول له؛ أدلة غير كافية.

- سيقال لكِ: هل تستطيعين نفيها؟

- سأقول: إن الشر الذي كان في عالمك قد أطار عقلي عن أن يفكر في صواب أدلة الوصول إليك.

- لكن الشر في عالمه لا ينفي وجوده.

- فلماذا أعبد إلهًا شريرًا؟

- بل هو الخير بل هو محض الخير وإنما الشر من إرادتنا ومن صنيعنا نحن.

- إذن فنحن نخلق إرادتنا دونه، فهو بذلك يسمح ضمنيًّا بكل هذا الشر.

- هل كنتِ تفضلين أن يخلقنا بلا إرادة حرة لنا؟

- فما ذنب ضحايا حرية إرادتنا التي جعلها ربك لنا.

- عند الله تجتمع الخصوم فلا تُظلم نفسٌ شيئًا.

- فكرة أن يحاسبني برغم أنه خلقني من غير أن يسألني هي في نفسها فكرة ظالمة، أنا لم أطلب دخول الامتحان أصلًا، ولو خُيرتُ من البداية لما اخترت أن أوجد في هذه الدنيا

الشريرة.

- فلنمتنع إذن عن إنجاب أي طفل حتى نستأذنه أولًا، وإذا حدث الحمل رغمًا عنا فلا يحق لنا أن نربي وليدنا أو نعاقبه على أخطائه.

- وهل من العدل إذا جحدَنا أبناؤنا أو عصوا أمرنا أو حتى كفروا بأبوتنا أن نلقيهم في أتون نارٍ خالدين فيه أبدًا؟

- ألا يستحق طغاة التاريخ الذين أهلكوا من البشر ملايين أشد العذاب وأدومه؟

- وهل الإله يضره أن نكفر به؟

- فمن غيره يملك ميزان العدل المطلق ليقرر مستحقات العقوبة وموجبات الجزاء الحسن؟

- ما فكرة يوم الحساب إلا وليدة عقول المستضعفين يعتصمون بها لتحمّل الظلم في هذه الحياة، على أمل أن يأتيهم القصاص يوم القيامة بحقوقهم.

- إذن فأنتِ تقبلين فكرة الحياة الواحدة التي لا خالق لها والمليئة بالشر والظلم، بينما تستنكرين عدل الإله إن جاء على مرحلتين؟

- إن كان عادلًا فلماذا خلق الشر!

هكذا كنا ندور في دوامات حوارٍ بيزنطي لا هو يصل شواطئ العقل ولا هو يغادر بحار الانفعال والصدمة، ففي ساعات دوران آلات الحروب والفتن لا تلومن عقولًا إن طاشت عن صوابها من هول ضجيج ما ترى.

لكن رأس (سلوى) كان يحمل الفيروس –فيروس الإلحاد– الذي واتته ظروف حضانته، فما لبثت أن تركت دين اللاأدري ونطقت شهادة الإلحاد الصريح!

هل لو قلت لك: إن هذه كانت أعظم صدمة لي في حياتي

ومصيبة أفدح من موت أبي فهل ستعدني عاقًّا له إذ أُحب حبيبتي أكثر منه؟ اسمح لي أن أخالفك.

أبي استراح بوفاته من مزمن مرضه، وداء حبيبي لا شفاء ولا راحة.

والدي يحدوني الأمل في لقياه في جنات ربي، وسلوتي سيقطع الموت كل خيوط الوصل بيننا.

وتغيرت مرآتها في عيني، كأني بصورة أنثى لا أعرفها في حين تقول لي الصورة بأنها هي هي حب حياتي، فلا أصدقها حتى وإن أقسمت بقسمات وجهها التي حملت نفس ملامح حبيبتي.

وبتُّ أجفو في كل ليلة أتأمل وجه الملاك النائم بجواري أستنطقه وأستحلفه:

- أأنت أنت ملاكي؟ أم تلبست بشيطانِ؟

ألعق قطراتٍ من عرقها؛ هو نفس المذاق نفس الفوح الزاكي

أتحسسها بطرف أناملي؛ نفس النتوءات واللميس الراقي

صدق من قال: إن الإنسان كلمة!

ما يفكر به.. كلمة.

ما يتفوهه.. كلمة.

لغة جسده ومنطق ملامحه.. كلمة.

حتى شفرة خلاياه؛ شريط من المعلومات الوراثية؛ كلمة.

وهذه الكلمة التي بين أحضاني كانت لي يومًا أنشودة الفرح فصارت نشيد أحزاني.

من قال: إن الحب أقوى المشاعر؟ لقد اهتزت قواعد بنيان حبنا بفعل ذلك الزلزال، اهتزت لكنها أبدًا ما تداعت.. وما كان لها أن تتداعى، ولكن أن يقدر شيء على هز ذلك البنيان

الراسخ لهو بالتأكيد ذو بأس عظيم.

حتى علاقتنا الحميمة تغيرت شفرتها، أحيانًا لا أطيق الاقتراب منها، وأحيانًا أضاجعها بعنفِ الجندي الروسي حين كان يعلن ويرسخ هزيمة النازي بين أفخاذ بنات برلين.

هل كانت تفهم؟ بالطبع كانت تفهم، لا توجد امرأة لا تلاحظ ولا تفهم..

- ماذا أصنع لك أكثر من ذلك كي ترضى عني؟ حتى سجادة صلاتك أعطرها قبل أن أفرشها لك لتصلي؟

- سأكون أنا خادمك إن شاركتِني صلاتي.

- تريدني إذن أن أبيع عقلي لحبك؟ ألا يكفيك قلبي؟

- بل أدفع أنا قلبي وعقلي وكل كياني ثمنًا لاستردادك من الشيطان.

- إن كان فعلًا شيطانٌ شريرٌ قد اختطفني؛ فلماذا خلق الله الشر!

المربع صفر هو محطتنا النهائية لكل حوار من هذا القبيل.

فكيف نشأ الجمال.. الإحساس.. المشاعر؟!

كيف تولدت الغزائر؟!

كيف نشأت الشهوة؟!

من أبدع الفن؟!

بل كيف تولد العقل...؟!

كيف خرج ذلك الجبار بعلومه وفنونه وفلسفته وموسيقاه وشعره واختراعاته من مجرد نشاطات كهروكيميائية في المخ؟

كيف يمكن أن يتولد من المادة كل ما غير مادي؟

لا.. لن أبيع أنا لكِ عقلي يا حب عمري لأصدق أن الموناليزا مجرد نثرات أحبار على ورق، وأن قانون "واحد زائد واحد

يساوي اثنين'' يمكنه وضع جنيهين في حافظة نقودي، ولا أن العاصفة يمكنها تركيب أجزاء سيارة مفككة حتى ولو طالت مدتها لمليار سنة!

لن أصدق مهما حاولتِ...

والحقيقة أنها أبدًا ما حاولت!

وإنما اكتفت بشعار؛ لك دينك ولي إلحادي، ومهما جاهدتها على أن ترجع في إلحادها شيئًا لا تطعني وإنما تصاحبني في الدنيا عشقًا وهيامًا.

وأخذت حبيبتي تتفقه في لادينها الجديد...

لا ثوابت وكل شيء نسبي!

التدين لا بأس به إن كان يربح صاحبه نفسيًا، المهم هو حُسن تعاملك مع الناس ولو كنت تعبد فأرًا!

الأخلاق نسبية، والعيب ما تعارف عليه الناس.

الجسد ملكٌ لصاحبه فلا عيب في سلوكه أيًّا كان ولا شذوذ.

ماذا؟ .. لا.. أنا هنا لم أعد أحتمل المزيد!

(١٩)

يا لَحياة الرجال البسيطة ويا لَقلة تفاصيلها

حدثت (دنيا) نفسها..

لا بدّ أن في عقولهم مساحات شاسعة خالية، تلك التي نملؤها نحن بملايين الكماليات؛ كماليات الزينة والأدوات الشخصية ومساحيق التجميل وأصناف الملابس ودهانات وكريمات لأجزاء الجسد كل جزء على حدة.

وعشرات الآلاف من الألوان لا يرونها هم إلا سبعة ألوان فقط.

لا أصدق أن (سليم) هاوي الآداب والفنون لم يلحظ الفرق بين لوني أحمر الكرز والأحمر الياقوتي إلا بمساعدتي!

وكماليات لا يكتمل الحوار بين اثنتين بدون سرد تفاصيلها بل الحوار بدونها أبتر، بينما هم يختزلونها كأنهم يقرؤون رؤوس عناوين الصحيفة اليومية.

وملايين الصور البصرية لا يكلفون عقولهم عناء الاحتفاظ بملفاتها.

ليس لهم إذن أن يدّعوا أن الإبداع موهبة ذكورية، أيّ امرأة منا إن أخلت غرف عقلها من أطنان الكماليات تلك ستنافس إبداعهم وربما تتفوق.

صحيحٌ أن هناك غرفًا أخرى معطلة عن العمل في عقولنا إذ تغمرها فيضانات العواطف وبحار الأحاسيس، لكن هذه لا حيلة لنا فيها، بل يستحيل الإبداع على إحدانا – بل قل: تستحيل الحياة نفسها – إن كانت تلك الغرف خاوية يتردد صدى الصوت في جنباتها.

حتى وإن كانت عاطفة شجن وأحزان.. أو حتى إن كانت أحاسيس غموض وإبهام.

مثلما هي بالضبط أحاسيسي مع (سليم)...

- لا يعقل يا (دنيا) أن نجوب كايرو فيستيفال مول كله بحثًا عن درجة لونٍ في ربطة عنق!

تصنعتُ الغضب وقلت:

- ألهذه الدرجة مللتَ صحبتي؟

وأحسن هو الرد إذ دعاني لتناول حلوى الشيكولاتة على إحدى الكافيهات بعد أن أحسسنا بالجوع إذ فاتت أربع ساعات كانت كافية لهضم الغداء الذي طهوته له، وجلسنا نثرثر أكثر من ساعة على وقع قطمات الشيكولاتة التي لا تقاوم.

بالطبع أعلم كم هو يسعد بالساعات التي يقضيها معي، لو شممت فرمونًا واحدًا من فرموناته يفوح بالضجر مني لما تكررت زياراتي له، ولَمَا تحججت باختيار ربطة العنق للخروج معه، ولَمَا تعمدت إهمال أكثر من ربطة كانت مناسبة طمعًا في المزيد في صحبته.. أحس بالنشوى وأنا أعقد الربطة تلو الربطة حول عنقه.

وينظر هو في عيني متسائلًا دون أن ينطق لسانه:

ماذا تريد هذه الفتاة مني؟!

له الحق أن يتساءل فأنا نفسي أتساءل!

كنت صادقة لما أخذت أزين في عينيه الزواج من زميلات الصفحة الثلاث، فأنا أشفق عليه من حال الوحدة والحزن على فراق حبيبته.. هل هي فعلًا لا تزال حبيبته؟

وكنت كاذبة لمّا ادّعيت أنني لا أصلح له.. أليس كذلك؟ أم أنه فعلًا لا يصلح لي؟!

لا أعرف بالضبط ما هو بالنسبة لي.

أحيانًا أراه أبي بوقاره وحكمته بالرغم من فارق السن الكبير بينهما، لذلك كنت أتعلق بذراعه في المول كطفلة أنشُد الحماية تحت جناح أبي القوي والذي فقد الكثير من قوته بعد تجربة أمريكا الفاشلة.. لكن رائحة (سليم) باحت لي أنه فهم تعلقي هذا فهمًا خاطئًا.. تبًّا لعقول الرجال التي لا ترى من الألوان سوى سبعة فقط.

وآونة أخرى أراه ابني المحتاج لحناني ولدعمي النفسي بعد محنة طلاقه... بالرغم من أنه لم يقص تفاصيلها عليّ كأنني لم أكتسب ثقته بعد.

وأوقات أراه فارسي في زمانٍ عزّ فيه الفرسان الذين يقدرون على حمل سيف المسئولية.. كثير من الشباب في سن (سليم) لا يزالون يعيشون مراهقتهم.

شبان لا يروننا سوى دُمى جنسية ولا يكفون عن نصب الشباك صيدًا للغزلان منا.

إذا أبدى الشاب منهم إعجابه بذكائي فهو في الحقيقة يقصد مقاس صدري!

وإن أثنى على قوة شخصيتي فهو غالبًا يعني رسمة شفتيّ!

أما من يمتدح خفة ظلي فهو بالتأكيد يرمي بذلك وثبة أردافي!

كلهم تفضحهم نظرات شبقهم الوقحة ورائحة فرموناتهم الفاحشة.

لكن (سليمي) عيناه بريئتان من الفحش والصفاقة.

صحيح؟ لماذا لم ألمح ذلك منه ولو مرة؟

هل يراني طفلة؟ أو طائشة ومراهقة إذ أتردد على بيته؟ أم أن قلبه ما يزال مشغولًا بأوجاعه؟

ألهذه الدرجة لا يزال يعشقها؟ أم أن لحن أنوثتي لا يتناغم مع

أوكتاف أوتار إثارته؟

لا أظن، فكم فاحت منه رائحة الرغبة فيّ رغمًا عن محاولته كتمانها، لقد اختبرت ذلك بنفسي أكثر من مرة بأوضاع الانحناء الأنثوية التي تبدو عفوية، أسأل الله أن يغفرها لي، لكني كنت بحاجة لأن أفهم حتى لا تمتلئ غرف الأحاسيس في عقلي بكمالياتٍ لا طائل من ورائها.

لقد فضحته نظرة عينه وأعلن اختضاب وجنته حرارة ما سرى وقتها في دمائه.

لماذا لم يحاول إذن ولو مرة أن يلتقم شفتيّ؟

ويلٌ له إن فعلها؛ ليذوقن لحظتها طعم صفعتي المدوية..

بل يا ليته يفعلها..

ترى أيجرؤ أن يفعلها؟

تبًّا للرجال؛ ألا يروننا سوى دُمى جنسية؟!

(٢٠)

في نفس قاعة العام الماضي كان حفلنا الثاني.. مع بعضٍ من التغيير، بالتأكيد اختلف الفستان الموحد لمساعدات الصفحة؛ تفصيلته ولونه وبالطبع اختلف معه لون ربطة عنقي.

وخفضنا سعر التذكرة إلى مائة جنيه فقط بالرغم من ارتفاع التضخم في الأسعار في خلال ذلك العام، وذلك كي نحافظ على نفس مستوى إقبال الحفل السابق.

وتم تخصيص فقرة من الحفل لمشرف الصفحة – الذي هو أنا – سألقي فيها كلمة ثم أتفاعل مع أسئلة ضيوف الحفل.

وفضائية من الفضائيات – كما أخبرتك من قبل – تغطي طرفًا من الحفل في تقرير إعلامي لها.

مع بقاء الفقرات الفنية الشبابية المنتقاة والاستشارات المتخصصة وطبعًا البوفيه ثم الفترة المفتوحة لتعارف أعضاء الصفحة فيما بينهم والتي جاء أكثرهم من أجلها!

وكما كان الحفل الماضي فقد أُوكل إلى (لبنى) مهمة التقديم والربط بين فقرات الحفل مع اختلاف أنها قد خلعت حجابها في هذا الحفل!

- لا لم تخلع حجابها مؤقتًا يا (سليم) لكي تظهر أجمل في الحفل، وإنما هو قرار اتخذته بعد طول صراع تماشيًا مع موضة خلع بعض الفتيات لحجابهن.

هكذا أجابتني (تسنيم) لمّا سألتها، وتذكرت كلام (لبنى) لي لما قالت: إن شعرها هو أجمل ما فيها، إنه بالفعل سلاسل كثيفة من خيوطٍ حريرية بنية اللون تنساب في نعومة طبيعية إلى أسفل ظهرها، شعر ناعم بغير فعل مكواة شعر ولا كرياتين ولا بروتين؛ هذه مؤثرات أنهكتها النساء استخدامًا وأفرطن فيها حتى صار مفعولها مبتذلًا لا يخفى على عين أحد، بينما

الجمال الطبيعي يخرج لسانه للجميع ويقول؛ أنا لا أخفى.. أنا لا أضاهى.

وأدركت ساعتها كم كانت تعاني في قرار حجابها لأنه بالفعل كان يُخفي نصف جمالها، لكنها حافظت على نفس مستوى تبرج وحشمة فستان الحفل السابق فلم تجعله أضيق ولا أقصر.

بالطبع جاملتها لما سلّمت عليها وأخفيت ضيقي من خلع حجابها وإنما أثنيت لها على جمال شعرها

- لم تكوني محقة يا (لبنى) لمّا وصفتِ لي أن شعرك جميل.

ردت مندهشة بفزع:

- ألا تراه كذلك؟!

- بل؛ لأنكِ لم تقولي: إنه شديد الجمال.

واخضب وجهها محمرًّا وكأن الحرير في حاجة لمن يشهد له بالنعومة وتمتمت ببعض كلمات الشكر، فأكملت أنا:

- لماذا لا تعودين إذن للمطعم الذي تركتيه من أجل الحجاب؟

- عمل ذلك المطعم مسائي فقط، وهذا هو الوقت الذي أصبحت أعطي فيه دروس الإنجليزية، في حين تكون مناوبتي صباحية في الكافيه الذي أعمل فيه.

رسمت ابتسامة وأنا أقول:

-أسأل الله أن يوفقك ويحفظك.

أجابتني بابتسامة مغتصبة كأنها فهمت بعض ما عنته كلماتي وقالت:

- أنا فعلًا بحاجةٍ للدعاء يا (سليم)، بل إنني كتبت قائمة دعوات سأعطيها لـ (تسنيم) لتدعوها لي في رحلة العمرة التي تعتزم القيام بها قريبًا.

حافظت على ابتسامتي وأنا أتساءل في نفسي: كيف لا يجذب ذلك الجمال في حلته الجديدة تلك عريسًا يقدّره؟!

وجاءني الرد فورًا بعدها من الرائد (صبرة) الذي حضر جانبًا كبيرًا هذه المرة من الحفل، إذ سألني عنها وعيناه تقطران إعجابًا بها، فأخبرته من قصتها طرفًا، ولم أحكِ له بالطبع شيئًا من أسرارها التي ائتمنتني عليها، لكن ما إن ذكرت له مؤهلها الدراسي حتى عض شفته لا إراديًا وقال بحسرةٍ واضحة:

- خسارة.. الحلو لا يكتمل، كأنك صنعت كعكة زفافٍ رائعة لكن نسيت أن تضيف إليها السكر.

وضحكتُ من تشبيهه حتى قطعت علينا (مها) اللقاء إذ جاءت للترحيب بصبرة، وتبادلا التحيات دون أن يأتيا أبدًا على ذكر ما أسداه لها من خدمة، وحرصت على تقديمه لزميلاتها الثلاث وتعريفه بهن، وحرصت أنا على متابعة تلك اللحظة التي تقدّم له فيها (تسنيمًا) فلم يحدث شيء مما توقعته..

يا لي من ساذج، هل توقعت مثلًا أن (صبرة) يعرف كل أصحاب الملفات في جهازهم؟ أم أنني نسيت أنه يعمل على ملفات المنظمات الدولية والتمويل الخارجي بعيدًا عن ملفات السياسيين؟أم خمنت أن (تسنيمًا) ستجفل عندما تعلم أنه ضابط أمن وطني؟

لكني فوجئت بصبرة يسألني:

- هل (تسنيم) هذه هي ابنة سامح غنيم صاحب محلات أضنة كباب الشهيرة؟

أومأت برأسي مجيبًا بنعم، فاكتفى هو بهز رأسه أيضًا ولم يعقّب.

ومضت فعاليات الحفل كالمعتاد حتى جاءت فقرتي، الغريب أنني لم أجد قلبي يدق ولا ركبتاي ترتجفان برغم أنها المرة الأولى لي في حياتي في مواجهة الجمهور، ولكن يبدو أن جو

الألفة الذي ظلل الحفل – إذ إن أغلبنا يعرف بعضنا البعض وإن كان على الطريقة الافتراضية للفيسبوك – قد كسر حواجز الرهبة والتكلف.

والغريب أيضًا أنني اكتشفت في نفسي موهبة الحديث التلقائي، أجبت على الأسئلة بلباقة وحضور ذهن – هكذا قالوا لي، هل اتفق الجميع على مجاملتي بنفس العبارات؟ ربما، لكن ما حملته لي (مها) بعدها كان خلاف ذلك.

*****

اتفقنا أن نتقابل أنا و(مها) في نفس المطعم الذي شهد مقابلاتنا من قبل، هي من الفرص القليلة لي للخروج وللحديث المباشر مع الناس كسرًا لنمط حياتي البيتي الذي ظل كما هو منذ طلاقي لا أخرج فيه إلا قليلًا.

بدأت (مها) الحديث بإخباري بأن لديها موضوعين للحديث ستبدأ بالخاص بي منهما:

- الفضائية التي غطت حفلنا تريد التعاقد معك لتقديم فقرة في برنامجها المسائي (ع العشا)

رددت بدهشة ضاحكًا:

- ماذا؟ كيف؟ ولماذا؟!

ضحكت بطريقتها المعهودة وهي تجيب:

- أنت تعرف أن البرنامج يمتد من ثلاث إلى أربع ساعات كل ليلة متضمنًا عددًا من الفقرات، سيتم تخصيص فقرة منها حوالي النصف ساعة لك..

سكتتْ للحظات وهي تتابع وقع كلماتها على ملامحي ثم أكملت:

- مخرج البرنامج ومدير القناة أُعجبا بطريقتك في الحديث وفي إدارة الحوار، وتعجّبا أن هذه هي المرة الأولى لك في

مواجهة الناس والتحدث إليهم، وقررا استثمار طريقتك تلك وشعبية صفحة حنين لتقوم بتقديم تلك الفقرة، يكون مضمونها بالضبط كما كان ليلة الحفل؛ تفاعل مع قلوب الشباب والإجابة على أسئلتهم.

سألتها مستفسرًا:

- وذلك كل ليلة في كل حلقة.

أجابت مستدركة:

- اعذرني فقد نسيت، بالطبع ليس كل ليلة، إنما ستكون فقرة أسبوعية؛ مرة أو مرتين أسبوعيًّا، ولكن صدقني لو نجحت الفقرة ستتحول إلى فقرة يومية وربما يصير لك فيما بعد برنامجك الخاص بك!

قالتها وهي تنظر إليّ مبتسمة كأنها تزف إليّ بشارة التخرج في الجامعة أو الرزق بمولود، بينما أنا عقدت المفاجأة مواطن التفكير عندي فلم أزد عن النظرة غير المعبرة عن أي شيء، فأخذت وهي مندهشة من رد فعلي الذي بدا لها باردًا تعدد لي مزايا أن تكون لي طلة فضائية وهو الشيء الذي يتقاتل غيري للفوز به، وكيف يمكنني بإثبات حضوري وبفضل طلتي التي تراها جذابة بل شديدة الجاذبية كما قالت لي، كيف يمكنني بذلك أن أصعد في سماء الفضائيات حتى أكون أحد نجومها المشار إليهم بالريموت كنترول...

- فأنت لا تقل حضورًا ولا وسامة ولا ثقافة عن أيٍ من نجومها، ويومها قد نضطر لحجز موعدٍ من مدير أعمالك للقائك بعد أن نقنعه أننا أصدقاؤك ولسنا معجبات نحتال للقائك.

قالت جملتها الأخيرة وهي تبتسم ابتسامتها الحلوة حتى ضاقت عيناها تمامًا كأنما أغمضتهما، ثم سكتت منتظرة أي تعليق مني.

قلت بعد أن جمعت شتات أفكاري:

- غريب فعلًا هذا الذي يحدث؛ فعندما أنشأت صفحة حنين كنت أريدها صفحة لي أنا وذكريات أحزاني فقط فإذا بها تصير كما تعرفين، والظهور الإعلامي الذي كان آخر ما أفكر فيه يأتيني حتى بابي بالرغم من أن فرصة كهذه قد يقتتل من أجلها أصحاب الطموح كما قلتِ، فأيهما أصدق؛ الحكمة التي تقول: استغنِ عن الشيء فيأتيك طواعية؟ أم نظيرتها التي تقول: لن تحصل على الشيء إلا أن تريده بمنتهى القوة حتى ليخيل إليك أنك تمتلكه بالفعل؟

ردت من فورها:

- بل الأصدق منهما تلك التي تقول: الفرصة لا تطرق الباب مرتين.

قالتها وهي تتظاهر بجمع متعلقاتها همًّا منها بالرحيل، فأمسكت بها ضاحكًا راجيًا إياها بالبقاء:

- حسنًا لا تغضبي؛ فقط اعذري دهشتي.

فسكنت حركتها وهي تهتف ضاحكة:

- ماذا أصنع هنا يا ربي؟ ومن هذا الرجل الغريب الذي أحادثه؟!

ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها بطاقة تعارف وقالت وهي تعطيها لي:

- هذه بطاقة مخرج البرنامج، هو يتوقع منك اتصالًا غدًا بين الواحدة والثانية ظهرًا.

تناولت منها البطاقة وقرأتها كعادة الناس ثم دسستها في جيب قميصي وأنا أقول:

- هذا موضوعي أنا، فما هو الموضوع الثاني؟

اعتدلت في جلستها وتغيرت ملامحها للجدية ثم قالت:

- الموضوع الثاني خاصٌّ بي، أنت تعلم ظروفي الشخصية بالتفصيل، وكل ليلة عندما آوي إلى فراشي دائمًا ما أتساءل إلى متى سيستمر بي الحال هكذا والسنوات أسرع مرورًا من أن نلاحظها، صحيحٌ أن لي أسرتي وعلاقتي بهم فوق الطيبة، لكن ماذا عن (ماريا)؟ بعد عمرٍ يعلم الله مداه فما هو الخيط الذي سيربطها بدينها من بعدي وأهلها كلهم مسيحيون؟ شرعًا – في الإسلام وفي المسيحية – فلا ميراث لي من أهلي ولا لها من أبيها، فكرة أنني يمكن أن أرحل فجأة تاركةً إياها قشة في مهب الريح تنغص عليّ كل عقائد التوكل على المولى التي هي شعاري الأول في هذه الحياة.. نحن بحاجة إلى سند في هذه الدنيا.

يا الله! كم أنا من أناني؛ كان هذا أول ما جاء في بالي.

كيف لم أشعر بما تمر به (مها) وبما يحترق بصدرها إلا عندما حكته هي لي؟ بالضبط كما لم أنتبه من قبل إلى أحقيتها هي وزميلاتها في أرباح الصفحة إلا عندما لفت سؤالها القديم انتباهي، وأفقت من أفكاري وهي تقول:

- في الأيام الماضية جاءتني (رجاء) صديقتي وابنة الدكتورة (ابتهال) التي حدثتك عنهما كثيرًا من قبل؛ جاءتني بخاطب، أربعيني متزوج وله أبناء ولكن زوجته مريضة مرضًا مزمنًا يعوقها عن الاهتمام بمتطلباته.

قالت الكلمة الأخيرة وأشارت بأصابعها ما بين قوسين ووجهها يتخضب حمرة ثم أكملت:

- وهو بحاجة لزوجة تهتم به ولا تمانع في أن تكون زوجة ثانية.

- وهل ظروفه تلك تناسبك؟ هل قابلتيه؟

- قابلته؛ هو لا يزال في تمام صحته بل هو رياضي القوام بشكلٍ لافت، ليس برائع الوسامة ولكنه مقبول الشكل رجولي

الملامح، أما ظروفه المادية فمتيسرة جدًّا بل منذ اللقاء الأول أخبرني بأنه لا يريدني أن أعمل وهو متكفلٌ بجميع مصاريف ابنتي، والأهم أنه لا يمانع في الإنجاب بل يريده.. (ماريا) تمزق قلبي عندما تقول لي: إنهاتتمنى أخًا أو أختًا لها مثل زميلاتها وصديقاتها، لكن هناك مشكلة يا (سليم) وهي ما أردت أخذ رأيك فيها.

- أرجو أن أكون عند ظنك بي.

- هو يريدني محجبة، يقول لي بأن أخواته وزوجات إخوانه وبنات إخوته جميعهنّ محجبات، وكذلك كل المتزوجات من نساء عائلته، يقول: إنه يغار أولًا، وثانيًا: إنه لا يريد لأسرته أن تشعر بأنني مختلفة عنهم أو غريبة بينهم خاصةً عندما يعلمون بموضوع سابق مسيحيتي..

- وأنتِ لا تحبذين الحجاب ؟

- ليست مسألة تحبيذ بمقدار ما هي حرجٌ أسري، إذا كان حجابي سيقرب ما بيني وبين أسرته فإنه سيصنع هُوةً كبيرة بيني وبين أسرتتي أنا، سيكون بُوقًا ينادي بهذه الأسرة المسيحية التي أسلمت ابنتها ولا مشكلة لديهم، سيكون محرجًا لأحدهم إذا خرجتُ معه خاصة وأن أقاربنا وجيران بيت أبي لا يعلمون بمسألة إسلامي بشكل صريح، والأهم أنه سيكون كالحاجز في تعاملي معهم؛ شيء سيذكرهم كل ثانية وأنا معهم بأن ابنتهم هذه أسلمت، بينما الآن لا يكادون ينتبهون له إلا عندما يسمعون صوت الأذان مثلًا.

سكتَتْ وبادلتها الصمت أفكر حتى استنطقني السكوت فقلت:

- ما أعلمه أن الحجاب واجبٌ شرعًا لم يختلف في وجوبه عالمان، وبرغم أنني لست مفتيًا لكني أرى أن لكِ وضعًا خاصًّا.

سكتُ للحظة أرتشف فيها ما بقي من فنجان القهوة ثم قلت:

- لماذا أرتاح لأن تمسكي العصا من منتصفها؟

أجابتني مستفسرة:

- بمعنى؟

- إذا كنتِ لا ترفضين الحجاب في حد ذاته ومقتنعة بهذا الخاطب كزوج؛ فكوني له كما أراد، ولكن ظلي مع أسرتك كما اعتادت منكِ عندما تزورينهم أو تخرجين مع أحدهم.

سكتتْ تفكر في هذا الرأي الغريب ثم قالت:

- لا أظن أن (خالدًا) قد يوافق على هذا الأمر.

- اسمه (خالد)؟ لن تخسري شيئًا إذا نقلتِ له هذا الرأي مصدّرة إياه بحرج موقفك مع أسرتك التي تحبين إرضاءها مثلما يحرص هو مع أسرته.

****

لست أدري لماذا بعدها أحسست بعبء تحمل فتوى لم أكن أهلًا لإطلاقها، كأنما أردت إشراك غيري في حملها معي، فتلقائيًّا هاتفت (تسنيمًا) وحكيت لها، وموضوع الخاطب ليس سرًّا بيني وبين (مها)... نسيت أن أخبرك أن (مها) طلبت إشراك أختها (مارلين) معنا في إدارة الصفحة تغطية لأي قصور منها بسبب احتمال زواجها.

- ألم تفهم شيئًا آخر من كلامها؟

- شيء مثل ماذا؟

سكتت (تسنيم) لثوانٍ ثم قالت:

- ألا تفكر في الزواج يا (سليم)؟

- هل تعتقدين أن..؟ لا، لا أظن ذلك، لقد كانت تتحدث عن (خالد) وقوامه الرياضي ومظهره الرجولي بإعجاب.

- أو ربما تستنطق غيرتك أو تجس نبضك.

تنهدت تنهيدة عميقة وقلت:

- هل تصدقين أنني إلى اليوم وبعد مرور أكثر من سنة ونصف على طلاقي لم أستجمع شتات نفسي ولا أشلائي المبعثرة؟

- وهذا هو الشيء الذي لم أنجح في تخمين سببه ولا أنت شفيت فضولي تجاهه، بالرغم من أنني حكيت لك تقريبًا جميع أسراري...

ثم تصنعت لهجة الغضب وقالت:

- ولن أقص عليك شيئًا مرة أخرى!

ضحكتُ من كلامها وأجبتها:

- وهل يرضيكِ أن أفتش سرًّا ائتمنتني عليه من كانت يومًا أقرب إنسانٍ إلى قلبي؟

أجابت من فورها:

- كانت ولا تزال!

صمتُ ولم أرد فعقبت:

- أنا آسفة يا (سليم).

- أبدًا؛ أنا كنت فقط أفكر في صحة تعقيبك.

- هل انقطعت الصلات بينكما تمامًا من بعد الطلاق؟

- أقول لكِ سرًّا؟ حتى لا تتهميني بأنني أخفي عنكِ شيئًا؟ من بعد الطلاق بقليل اشتريت خطا للمحمول لا أستعمله أبدًا سوى أنني أتصل منه بهاتفها المحمول أسمع صوتها لدقيقة ثم أغلق الخط.

- وهي تردّ كل مرة على نفس الرقم المجهول صامت الرد المتكرر اتصاله؟

- أظن أنها فهمت، بل أظن أنها تبادلني نفس التصرف؛ إذ

تأتيني اتصالات متكررة من رقمٍ مجهول لا ينطق إلا بالصمت هو الآخر.

وكأن دمعة فرّت من عينها فقالت: وصوتها يختنق بالعبرات.

- حرام.. حرام والله كل هذا الحب...

ثم تماسك صوتها وقالت:

- لو كانت لي دعواتٌ مستجابة لجعلت إحداها عنكما؛ إما أن يجمع الله بينكما من جديد... أو أن يفهمني كيف صار ما صار.

ضحكت وقلت:

- ألست ذاهبة إلى العمرة؟ اجعليها من ضمن دعواتك هناك.

ردت بلهجة تمتلئ مكرًا:

- أن يجمع الله بينكما؟ أم أن أفهم سر ما حدث؟

سكتّ لثوانٍ ثم قلت:

- أن يصنع الله الخير لنا جميعًا وأن يهديني... ويهديها!

(٢١)

في وقتٍ واحدٍ تقريبًا...

تستعد (مها) للعقد على هذا العريس بعد أن اقتنع على مضض بفكرة الحجاب تحت الطلب، ستقيم في شقتها وسيتولى هو دفع إيجارها مع بقاء العقد باسمها، المريح بالنسبة لها هو أن (ماريا) قد أحبته وهو يظهر العطف الصادق نحوها، بينما لا ترتاح هي لكونها ستضطر بناءً على طلبه لترك الأعمال التي كانت تلتقط منها زرقها وستكتفي بكتابة ما اتفق لها من سيناريو بعض الحلقات بجانب مشاركتها في صفحتنا...

- لا أدري ما يضايقه في عملي خصوصًا وأنه سيزورنا يومين في الأسبوع، أي أن عملي لن يؤثر على شيء في حياتي معه.

أما (تسنيم) فسوف تعرج بابنها بعد أداء العمرة على لندن لتزور والدها الذي أوحشها حضنه وهي الأثيرة لديه من بين أبنائه؛ ابنة أبيها كما يقولون، وحددت موعد العمرة ثم الزيارة لتتناسب مع افتتاح والدها لفرعٍ لمطاعمه هناك في لندن...

- لقد اعتاد العمل يا (سليم) منذ أن كان في الجامعة برغم دراسة الهندسة الصعبة، فبالتأكيد لن يستسيغ الآن الاكتفاء بالجلوس والاستمتاع بمقاهي لندن.

و(لبنى) أعجب بها مهندس إضاءة يعمل في القناة التي غطت طرفًا من حفلتنا، لكنها مترددة ليس لأنه مطلق ولكن لأن ابنتيه تعيشان معه وكبراهما ذات الاثني عشر عامًا لا تعطيها إلا تقطيبة الحاجبين. اكتفت (لبنى) بمشورتنا نحن ولم تخبر أمها لأنها تعلم موافقتها المسبقة على أي زواجٍ لها، وتعلم ما ينتظرها من تبكيت أمها لو أنها رفضت الزواج منه، فآثرت ألا تخبرها حتى تتخذ قرار الموافقة إن وافقت.

و(دنيا) تخرجت في كلية الإعلام، وكانت في غاية الحماس للعرض الذي قدمته لي القناة الفضائية، وبلغ بها الحماس مبلغ التحليق في سماء الفضائيات لترانا نشترك سويًّا في تقديم برنامج خاصٍّ بنا بعد أن تنجح فقرتي التي سأقدمها وتجتاز هي فترة تدريبٍ ناجحة في نفس القناة... أجمل ما في الشباب أحلامه.

وبالفعل كان وجود (مارلين) ضروريًّا في إدارة الصفحة لتغطية تقصير من قصرت من زميلاتها بسبب تلك المشغوليات التي طرأت عليهن جميعًا، خاصة وأن (مارلين) لا تعمل بينما يتغيب زوجها بالأسبوعين كل شهر سعيًا وراء رزقه في إحدى شركات منطقة خليج السويس الصناعية.

أما أنا فكما قلن لي جميعًا؛ لن تخسر شيئًا إذا جربت الظهور الإعلامي.

وها أنذا أستعد لتقديم أولى فقراتي.

بروفات الكاميرا كانت أسهل بكثير مما تخيلت، حتى المخرج سألني إن كنت معتادًا على مواجهة الكاميرا من قبل أو كانت لي سابق تجربة في مسرح الجامعة أو حتى في الإذاعة المدرسية، ورفع حاجبيه متعجبًا أن هززت رأسي نافيًا.

يبدو أنها ستكون تجربة واعدة.

أو لا تبدو!

فلا تعجبني سياسة التحرير والإعداد عندهم التي تركز على القصص الغريبة.. أو قل المثيرة.. أو قل الأشد جذبًا لفضول المشاهد ومكامن الإثارة عنده.

ولا يعجبني أكثر أن إدارة القناة أخذت تلفت انتباهي لبعض ما لا يعجبها مما ننشره على صفحتنا.

ما شأن قناتكم بهذا؟

لقد أصبحنا الآن في مركب واحدة وما تنشره عندك يؤثر عندنا وما تقدمه عندنا يؤثر عندك.

يبدو هذا صحيحًا؛ فبعض ما قدمته – على مضض مني – على هذه الشاشة من مادة قصصية قد أثار علامات استفهام بعض أعضاء الصفحة والجروب، الناس بطبعها لا تفصل.. لا تستطيع أن تكون قاضيًا وراقص باليه في نفس الوقت.

ويبدو أيضًا أن إحساس أنني في القناة ذلك المبتدئ الذي يشق أول طريقٍ له في سماء الإعلام في حين أنني في صفحتي بمثابة رئيس مجلس إدارة، يبدو أن ذلك سيعجل بقرارٍ ما، خاصة وأنني لم أكن ولا صرت ملهوفًا على الظهور الإعلامي.

ما أجمل تواضع الطموح، كم هو مريح للأعصاب!

(٢٢)

غابت (تسنيم) بصحبة ابنها عن القاهرة شهرًا، قضت منه أسبوعين في أرض الحجاز ما بين مكة والمدينة وأسبوعين آخرين في أحضان أبيها بلندن، ساهمت قدر وقت فراغها المتاح في إدارة الصفحة، وها هي تعود لمطار القاهرة لتعتذر عمليًّا لأصدقائها عن تقصيرها معهم، فبجانب الشحنة الإيجابية التي غسلت بها هموم زواجها السابق الذي انتهى بطلاقٍ له طعم الخلع وقد انتوت أن تستغل تلك الشحنة في تطوير الصفحة بمجموعةٍ من الأفكار انقدحت في ذهنها في ساعات صفائه وستعرضها على صديقاتها وعلى (سليم)، بجانب ذلك انتقت لهم من الهدايا ما رأت أنها توافق ظروف كل واحدٍ منهم..

المقدمتان على الزواج – مها ولبنى – اخترت لهما قمصان نومٍ حريرية... قالت (تسنيم) لنفسها، ومارلين التي بدأ الدبيب في أحشائها على استحياء شهوره الأولى انتقيت لها بطانية أطفال تصلح للبيت وللخروج معًا، أما سليم ودنيا فقد احترت بعض الشيء وأنا..

وقطع حبل أفكارها صوت ضابط الجوازات وهو يناولها جواز سفرها:

- حمدًا لله على السلامة مدام (تسنيم).

تناولت الجواز ومضت وهي تسحب (حسينًا) بيدها، لكن ناداها صوت الضابط من جديد بعد أن لفت انتباهه لأمر ما مساعده أمين الشرطة الذي يجلس على شاشة أخرى بجواره:

- لحظة مدام (تسنيم).

التفتت إليه فأشار بأصابعه طالبًا جواز السفر من جديد، تناوله منها وتفحص شيئًا فيه ثم أخذ يدق بأصابعه على اللوحة أمامه وهو يتبادل حديثًا هامسًا مع مساعده ثم سألها:

- ما صلتك بسامح غنيم؟

ردت وضربات قلبها تتسارع:

- والدي.

- لهذا السبب كنتِ في إنجلترا؟

- نعم؛ لأزوره هناك.

- فلماذا عرجتي على إسطنبول قبل الذهاب للندن؟

جاوبت وقلبها يكاد يفشل في التحكم في سرعة ضرباته حتى تلعثمت مخارج حروفها:

- كان أبي وقتها في إسطنبول للتعاقد مع شيف تركي لمطعم الكباب التركي الذي افتتحه في لندن فذهبت إليه هناك ومنها انطلقنا سويًّا إلى لندن.

سدد الضابط المزيد من نظرات الشك إليها وقال:

- افتتح مطعمه قبل أن يتعاقد مع الشيف؟ ولماذا أنتِ متوترة هكذا؟

وكأن (حسينًا) قد شعر بتوتر الموقف فالتصق بساق أمه يحتضنها وأخذ في النحيب، فازدادت هي توترًا وهي تجيب الضابط:

- افتتاح المطعم كان منذ يومين أي بعد أن طرنا من إسطنبول إلى لندن.

وكعادتها كانت عيناها أول ما يستجيب لما يدور حولها، فسقطت دموعها بالرغم من مجاهدتها لها كي تبدو قوية أمام ابنها ومتماسكة أمام ضابط الجوازات الذي طلب منها أن تستريح جانبًا حتى يفرغ من ختم جوازات باقي ركاب الطائرة ثم يتفرغ لمشكلتها.

جلست (تسنيم) على أحد المقاعد واحتضنت ولدها بشدة

كي تشعره بالأمان أو لكي تتوقف عيناها هي عن سيلانها اللاإرادي أو لكي ترتب أفكارها؛ هل تتصل بأمها أم بالمحامي أم بزوج خالتها المستشار أم بالسائق الذي ينتظرها بالخارج أم...

- مدام (تسنيم) ؟ هل أنتِ بخير؟

رفعت دموعها لأعلى فوجدت آخِر من كانت تتوقعه.

- سيادة الرائد (صبرة) ؟!

- هل حدثت مشكلة؟

وبغير تردد منها راحت تحكي له لكن بعد تجمعت أعصابها هذه المرة...

- وبعد انتهاء مراسم العمرة كانت خطتي أن أطير للندن حيث أزور والدي هناك وأشاركه فرحة افتتاح مطعمه التركي، ولكن ولأنه كان في إسطنبول في زيارة سريعة لينهي إجراءات استقدام الشيف التركي قبل افتتاح المطعم، فقد فضلنا أن أوافيه هناك ومنها نطير إلى لندن، ولكن يبدو أن هذا قد سبب لي مشكلة هنا.

صمت (صبرة) يفكر لثوانٍ ثم قال:

- يبدو أنها زيارتك تلك لتركيا، خصوصًا وأنك تعلمين توتر علاقاتنا معها وتعلمين أن والدكِ..

ثم قطع حديثه وقال:

- انتظريني دقيقة.

وذهب للقاء ضابط الجوازات الذي هب فور رؤيته مبتسمًا لمصافحته واحتضانه على طريقة الأصدقاء المصريين عند اللقاء، وتبادلا حوارًا طويلًا استرقا خلاله عدة نظرات لـ(تسنيم) حيث تجلس، ثم بعد عدة دقائق مرت عليها كأنها ساعة عاد (صبرة) إليها وقال:

- حظنا جميل أن الضابط دفعتي وصديقي، وقد أفهمني أنكِ لستِ على قوائم ترقب وصول أو غيره، لكن المشكلة عند والدكِ كما تعلمين، وقد عقّدتِ الأمر أكثر بزيارتك الخاطفة لتركيا وهو ما لفت انتباه سيادة الأمين، وقد أفهمته أنني أعرفك معرفة شخصية فوافق على السماح لكِ بالخروج من المطار على أن يحتفظ بجواز سفركِ ليستكمل إجراءاته.

سكت (صبرة) وأوقفت عين (تسنيم) ذرف دموعها ثم قالت:

- وماذا بعد؟

- لا تقلقي، سوف أتابع الأمر معه ولكن اتركي لي رقم هاتفك.

***

بعد قرابة الأسبوعين جاءت رسالة لتسنيم من رقم غير مسجل عندها عبر تطبيق الواتساب:

- مساء الخير مدام (تسنيم) أنا الرائد (شريف صبرة).

بعد تردد ردت متصنعة الجهل:

- الرائد (شريف صبرة) من؟

- الذي لاقاكِ في المطار منذ أسبوعين وحكيتِ له مشكلة جواز السفر.

- عفوًا؛ ربما هناك خطأ ما؟

أدرك (صبرة) حرصها فكتب:

- وقبل المطار بشهرين تلاقينا في حفل صفحة دكتور (سليم) وقدمتْني إليكن زميلتكن (مها) وكنتنّ تلبسن فستانًا موحدًا بدرجة من درجات اللون الأحمر القاني، وأتذكر أنك تكتفين بابتسامة بشوشة ولا تصافحين الرجال.

تهلّل وجه (تسنيم) بعد ارتيابه وردت:

- مرحبًا بحضرتك سيادة الرائد، اعذرني على حرصي في بداية الدردشة.

- بالعكس لقد سعدت بذلك جدًّا، بالرغم من أن انطباعي الأول عنكِ لا ينبئ بذلك.

وذيل جملته بوجهٍ مبتسم، فردت عليه بوجهٍ ضاحك ثم بجملة:

- تقصد دموعي التي لا تتوقف؟ هذه طبيعة فيّ أفشل في السيطرة عليها، بجانب الضغط النفسي الذي مارسه عليّ ابني (حسين) وقتها.

- وكيف هو الآن؟

- كأي طفل، تغيرت حالته تمامًا بمجرد ركوب السيارة خارج المطار... ما الأخبار سيادة الرائد؟

- الموضوع بسيط، ولقد كنت أحب أن أراسلك لأقول: إن جواز سفرك معي فانظري كيف أوصله لكِ، لقد تفهّم صديقي اللبس بعد أن شرحته له بهدوء بعدما كان لا يفهمه من كلامك بسبب توتركِ وقتها، أفهمته أيضًا أنه لا غبار عليكِ عندنا..

قاطعته سائلة:

- هل كانت هناك تحريات عني؟

- ابنة سامح غنيم؛ ماذا تنتظر خاصة بعد أن خرج هو خارج البلاد اتقاءً لما لا تُعرف أبعاده؟

- أقسم لك أن والدي ليست له انتماءات.

رد قائلًا:

- أعرف بدون أن تقسمي، ويا ليت الأمور تُحل بالحلف واليمين، ولكنكِ بالتأكيد تُقدرين ما تمر به البلاد من حربٍ على الإرهاب وأي دولة تمر بظروفٍ أهون من ظروفنا ترفع شعار الإجراءات الاستثنائية مثلنا وأكثر..

توقف عن الكتابة ثم كتب لها:

- قد لا يكون كلامي مطابقًا لوجهة نظرك؛ لكن صدقيني هذه هي الحقيقة.

- صدقني أنت إنني لا أحب السياسة وأتمنى العيش في سلام بغير أن تطالني شظايا الإجراءات الاستثنائية.

- أعرف جيدًا بغير أن تقولي.. أقول: إنني كان يمكن أن يكون جواز السفر بحوزتي، لكن أمين الشرطة الذي نبه صديقي الرائد إليكِ شخص ماكر وغير سهلٍ أبدًا ويوميًا يسأل صديقي عنكِ وعن مشكلتك، يمكن لصديقي أن يغلق الموضوع من عنده فليس هناك أي شيء رسمي، لكنه لا يأمن ثرثرة هذا الأمين ولا مكره... خصوصًا وأن والدك معروفٌ ومحل طمع.

- فماذا تقترح عليّ حضرتك؟

- أقترح أن ترسلي للأمين شخصًا محنكًا يجيد التفاهم.

- أنا مستعدة لكل شيء في سبيل أن أعيش في هدوء، ولكن؛ لو حدثت تسوية مع سيادة الأمين فكيف سيعرف سيادة الرائد؟

أُعجب (صبرة) بذكائها وقال:

- فعلًا هيئتك المسالمة الطيبة لا توحي بما أنتِ عليه من فطنة.

أرسلت إليه تعبير وجهٍ مبتسم فيخجل، فردّ عليها:

- عندما يتوقف الأمين عن تصديع رأس صديقي سيفهم أن شيئًا ما قد صرف نظره.

- أها.. فهمت!

- بالمناسبة؛ صديقي لا يعرف شيئًا مما اقترحته عليكِ، ولن

يهتم لمعرفة كيف حدث ما حدث، هل فهمتني؟

- بالتأكيد (صبرة) بك.

- وبالمناسبة أيضًا أرجو أن تمسحي هذا الحوار بمجرد انتهائنا منه، أنا أعرف حرص الإخوان ولكن لا بأس من التأكيد.

- أقسم لك إنني لا أنا ولا أحد من أسرتي....

وقبل أن تكمل كتابة رسالتها كان هو قد أرسل إليها وجهًا يضحك ثم جملة:

- مجرد مزحة أردت بها تلطيف جو الحوار.

ردت عليه بعدة وجوه ما بين ضاحكٍ ومبتسمٍ بخجل ومرتدٍ لنظارةٍ سوداء!

(٢٣)

تقابلت (مها) و(لبنى) على الكافيه كما تواعدتا، وجلست كلٌّ منهما تشكو للأخرى مشاكلها في الزواج الجديد:

- لم أكن أعلم أنك تدخنين الشيشة يا (لبنى).

- قليلًا ما أدخنها، لكني أشعر بأنني بحاجة إليها اليوم لأحرق فيها همومي بدلًا من أعصابي، فأنا أعيش مع حماتي وضرتي وسلفتي وأخت زوجي في بيتٍ واحد.

ردت عليها مندهشة:

- أمعقول ما تقولين؟

- الأربعة في شخصٍ واحد هي ابنة زوجي الكبرى التي أخبرتكم عنها، لا أصدق أن هذه لها من العمر اثني عشر عامًا فقط، إنها تسبق سنها بعبقرية نادرة ولكن عبقريتها تنحصر فقط في التفكير في إيذاء مشاعري وتعكير صفو ما بيني وبين أبيها.

- وأنا من جئت لأشكو لكِ همي فوجدت حالي أهون من حالك، على الأقل أنا لا أعيش مع أهل زوجي.

- هل بينكم مشاكل؟

- ليس بيننا أي شيء.. بالمعنى الحرفي لكلمة أي شيء.. يتجاهلونني تمامًا، لم يحضر أيٌّ منهم عقد زواجنا ولم يأت أحد منهم للمباركة لنا، إذا كانت أسرتي قد فعلت نفس الشيء فلهم عذرهم، بل أنا التي لم أخبرهم بأمر زواجي إلا بعد إتمام عقده، وبذلت جهدًا خرافيًّا في استرضاء أسرتي حتى رضوا رضاء من لا يريد قطع شعرة معاوية، لكن عادت بعض مياهنا إلى بعض مجاريها على كل حال، أما أم (خالد) وأخواته فيتجاهلون اتصالاتي، حتى عندما حكى هو لي مصادفة بأن أمه تحتاج لدواءٍ لا يجدونه استنفدت اتصالاتي الواسعة حتى

عثرت لها عليه، لقد قبّل زوجي يدي امتنانًا أمّا هي فلم تكلف خاطرها بكلمة شكرٍ واحدة.

- لعل أهله يحبون أم أبنائه ويعتقدون أنهم يجاملونها بهذه الطريقة.

- بل هو من تزوج تحت ضغط أمه وأخواته عليه بعد مرض زوجته العضال، وأخذوا يرفعون عن كاهله حرج ذلك بأنه لم يقصر أبدًا في حقها، فلا تثريب عليه إن أخذ حقه من هذه الدنيا كرجلٍ لا يزال مكتمل الرجولة طالما سيحفظ لأسرته كيانها.

غمزت لها (لبنى) في خبثٍ وسألتها:

- وهل هو فعلًا لا يزال رجلًا مكتمل الرجولة؟

نخستها في كتفها وقد اخضب وجهها:

- ماذا بكِ يا (لبنى) لقد صرتِ شقية بعد الزواج.

ضحكتنا سويًّا وعقبت (لبنى):

- أنا فقط أمازحك لأهون عليكِ، ولكن إذا كان ما تقولين؛ فلماذا يحمل أهله عليكِ هكذا؟

هزت (مها) رأسها في أسًى وقالت:

- صدموا لما عرفوا أنني كنتُ ثم أسلمت.

ردت بدهشة:

- هل هؤلاء متدينون فعلًا كما قلتِ لي؟ فما بال القصص التي نسمعها عن المشاكل التي تحدث أحيانًا في الأرياف والمناطق الشعبية بسبب إسلام فتاة، وتهليل السلفيين لذلك والتعهد بحمايتها من غضب الكنيسة عليها، والسعي لتزويجها بل والتكفل بمصاريف ذلك الزواج؟

- هم ليسوا سلفيين ولا حتى متدينين، هم فقط أسرة محافظة للغاية، يتحفظون على تلك الزوجة القادمة من وسطٍ مختلفٍ

عنهم، ينظرون بريبة لأسرتي؛ تلك الأسرة التي تقبلت تغيير ابنتها لدينها، ويقولون لزوجي؛ ماذا لو أنجبت منك؟ سيكون أخوال ابنك أو بنتك مسيحيين!

فغرت (لبنى) فاها فأكملت (مها):

- أقول لكِ شيئًا يوضح لكِ تفكيرهم؟ لقد رفضوا وبشدة زواج أخٍ لخالد من فتاةٍ كان يعشقها فقط لأن أم تلك الفتاة أوكرانية أو أذربيجانية لست أذكر، يقولون له هي ليست من طينتنا، يشعرونك وكأنهم أسرة من النبلاء تحافظ على نقاء دمها الأزرق...

استجمعت أنفاسها لثوانٍ ثم أردفت:

- أستطيع أن أقول وبكل ثقة ومن خلال ما مررت به من تجارب عمل وتغيير ديانة.. عن طريق من عاشرت من مسيحيين ومسلمين، ومَن مِن أصول صعيدية أو نوبية أو بدوية أو من آخرين يحملون عرقًا أجنبيًا في دمائهم؛ نحن مجتمع عنصري بامتياز والكل يمارس عنصريته تجاه الكل.

مطت (لبنى) شفتيها ثم قالت:

- على الأقل أنتِ مشكلتك موسمية منحصرة عند احتكاكك مع أسرة (خالد)، أما أنا فحالتي مزمنة مع تلك الفتاة التي أحس بأنها تتربص بي ليل نهار...

ثم اعتدلت في جلستها وهمست لـ(مها):

- هل تصدقين أنها تشعر – لم أعرف حتى الآن كيف – باللحظات الحميمة لي مع أبيها؟ فتفتعل كل مرةٍ شيئًا ما؛ تبكي مدعية الألم، تركل الكرة في الباب بحجة اللعب، تصرخ بحجة رؤية صرصار، لدرجة أنني قلبت الغرفة تفتيشًا عن كاميرا أو مكبر صوت لكني لم أجد، ولما لفتُّ انتباه (ياسر) لذلك انفجر غضبًا وتطايرت حممه دفاعًا عن تربية ابنته، بل إنه كاد يصفعني في سَورة غضبه تلك.

قاطعتها (مها) في غضب:

- شُلّت يمين الرجل قبل أن يفكر في ضرب زوجته.

- إلا أنه بعدها انتبه لِما قلته ولمّا لاحظ تكراره فعلًا ضرب ابنته علقة ساخنة، والغريب بعدها أنها توقفت عن ذلك تمامًا... لتبدأ فصولًا أخرى من الكيد الأكثر إبداعًا.

- ألم تحاولي التقرب منها يا (لبنى)؟

تنهدت في حرقة وقالت:

- مهما قلت لكِ فستظنين أنني أحاول فقط تبرئة ساحتي؛ حاولت أن أصادقها فرفضت، أن أتحاور معها فيما تعانيه كل فتاةٍ تبلغ السن الحرجة فصدتني، مرضتْ هي مرة فرفضتْ أن أمرضها، تصوري لما حاولت أن أساعدها في دروس الإنجليزية ماذا قالت؟ قالت: هذه ليست محادثة، هذه قواعد للغة يصعب على حاملة الإعدادية شرحها! كدت أبكي بعدما ضغطت الشيطانة على نقطة ضعفي لكني تماسكت أمامها وتصنعت الضحك كي أفوت عليها فرصة قهري ولكي تيأس من استعمالها مرة أخرى.

وقطع عليهما حبال مجلس المظلومية الذي تندبان فيه حظهما قدوم (تسنيم) عليهما، فقامتا لتقبيلها للترحيب بها، وقالت (مها) لـ (لبنى) مازحة:

- قلت لكِ: انتهِ من الشيشة قبل قدوم الشيخة (تسنيم).

ضحكت (تسنيم) وقالت:

- لن تصدقا أنني دخنت الشيشة في أيام الدراسة الثانوية وفي حضرة أبي!

- تضحكين علينا ولا شك! أنتِ؟ وأبوكِ؟

استمرت في الضحك وهي تقص عليهما:

- عدت لأبي من المدرسة ذات مرة وأنا أحدثه عن زميلاتي اللاتي جرّبن الشيشة، كلامي كان ظاهره النقد، ولكن ولأنني بنت أبيها كما يسموننني فقد قرأ في عينيّ رغبة التجربة، وما لبثت أن صارحته بأنني لو كنت معهن لجربتها، هل تصدقان أنه اصطحبني ليلتها لأحد الكافيهات؟ وطلب لنفسه حجرًا من الشيشة ثم ناولني الليّ وقال: جربي، أمسكت باللليّ وقربته من فمي فأحسست بأنني لست أنا فأعدته إليه وهو يبتسم.

ردت عليها (لبنى):

- لكنكِ بذلك لم تجربيها.

- أنا أظن أن التجربة الحقيقية للشيشة بالنسبة للفتاة هي الجلوس على الملأ والتقام المبسم مثلها مثل أي رجل، لكن أنا أصلًا لا أحب رائحة الدخان، ومن بعد هذا الموقف لم تراودني نفسي في تناولها، حتى عندما خرجت مع أمهات زملاء ابني في المدرسة ذات مرة من مرات التعارف فيما بيننا لم أفكر في تناولها مثلما فعل أغلبهن.

ضحكت (مها) وقالت:

- يا بختك بأبيكِ يا (تسنيم)، أما أنا فلو كنت مكانكِ لعلقني أبي في ثريا المنزل لمجرد اشتهائها.

جاوبتها (لبنى):

- بمناسبة أبيكِ؛ كيف حاله وحال رحلتكِ إليه؟ سأطلب لكِ حجرًا كي تقصي علينا رحلتك بالتفصيل الممل.

وتجاوبن جميعًا بالضحك.

(٢٤)

أخيرًا سيأتيني جواز السفر!

لم أصدق عينيّ عندما أرسل لي (شريف) على الواتساب بأن الجواز بحوزته فانظري أنَّى تحصلين عليه.

وجه دموع الفرح كان أنسب تعبير للرد لكن الناس تستعمله للتعبير عن دموع الضحك.

لست أدري كيف انسابت بيننا الدردشة ولا كيف وافقت على موافاته في الكافيه الملحق بالجيم الذي اكتشفنا صدفة أننا مشتركان فيه لكني غالبًا لا أكون فيه إلا في القسم المخصص للسيدات.

الحقيقة أنني وجدتها فرصة لتقديم هدية مناسبة له للتعبير عن امتناني بدلًا من مجرد الشكر الشفوي، برغم من أنه سبق أن أكد لي بأنه يرد موقفًا (لسليم) ساعده كثيرًا في عمله في الإيقاع بشبكة إجرامية، (صبرة) لم يحكِ لي ما هو ذلك الموقف لكني أظنها مأساة ذلك الشاب الشاذ والشيطانة (رضوى) التي حكى لي (سليم) طرفًا منها.

وهنا وقعت في حيرة؛ كيف تكون الهدية قيمة ومعبرة ولا تسبب الظن بأنها ثمنٌ للخدمة؟

بسيطة... لهذا خلق الله الشيكولاتة!

وواضح من حسابه على الفيسبوك أنه عاشقٌ لها!

علبة قيمة من الشيكولاتة البلجيكي الفاخرة ستفي بكل ما سبق...

نظر (صبرة) للعلبة الملفوفة على شكل هدية وسأل باستنكار:

- ما هذا؟

ابتسمت وقلت:

- الشيكولاتة لا تُرد.

ابتسم بدوره وقال:

- إذا كان كذلك فالشيكولاتة لا تقاوم.

ثم قال بعد ثوانٍ:

- هل كان التواصل سهلًا مع الأمين؟ أم أتعبكم؟

تنهدت وقلت:

- كان الطمع شعاره، لقد أفهمنا أنه ليس وحده وأنه مجرد مندوب.

- ابن الـ...، لا تصدقي ادعاءه فهو لا بد أن يقول ذلك من أجل رفع سقف تفاوضه معكم.

هززت رأسي في فهم وقلت:

- شيء مفهوم بالطبع، فلو كان صادقًا في كلامه لكان استلام الجواز عن طريقه أيضًا.

قال في ابتسام:

- لا عليكِ.. غمة وانزاحت.

ابتسمت في أسى وقلت:

- بم تنصحني أن أفعل في الفترة القادمة؟

تغيرت ملامحه قليلًا وقال:

- صراحة لا أدري، أنا أصلًا مجالي بعيد عن الملفات السياسية.

- آسفة، أنا لم أقصد ذلك، أنا فقط مشوشة التفكير والرؤية للمستقبل في البلد ضبابية، والبريء مدانٌ بمجرد الإشاعة حتى وإن أثبت العكس.

- البلد تواجه تحديات ومؤامرات فوق ما تتخيلين، والجرّاح الذي يستأصل أورامًا سرطانية لن يستطيع تجنب إزالة خلايا سليمة حولها. . . ثمنٌ يدفعه الجميع لإنقاذ الجسم المريض.

لم أشأ أن أعكر الجلسة بأي جدال فاكتفيت بالصمت، في حين سألني هو مبتسمًا:

- كيف حال ابنك؟ هل لا يزال مفرط الحساسية؟

وانعطف الحوار بعد هذا السؤال لينعطف بنا نفس التعارف ونفس الأحوال، وفوجئنا نحن الاثنين بأن زوج خالته هو أخو زوج خالتي، واستغرق منا ذلك المنعطف قرابة الساعتين حتى استأذنت منه لكي لا أتأخر على اصطحاب ابني من عند أمي.

لست أدري لماذا شعرت ببعض الأمان الذي قد افتقدته منذ سافر أبي!

(٢٥)

جاءت دعوة (مها) لنا لعيد ميلاد ابنتها (ماريا) بمثابة النافذة لي كي أستنشق بعض الهواء النقي بعيدًا عن جو البيت المسمم بكراهية الحماة الطفلة لي... حدثت (لبنى) نفسها.

إن زفيرها معبأ بمشاعر الرفض والبغض نحوي، كاذبةٌ تلك الأفلام التي تصور مظاهر بغض الأطفال لزوجة أبيهم إلى أن يحين منها ذلك الموقف الحنون تجاههم والذي يجعلهم يذرفون الدموع في أحضانها بعد أن أدركوا مقدار ما تحمله لهم من حب وحنان.. حانت كثير مواقف مني فلم أجد إلا الصدود.

حتى أبوها يحمّلني مسئولية تراجع مستواها الدراسي وأنني السبب في شماتة أمها بأنه غير أهلٍ بمسئولية ابنتيه، فلماذا لا تتحمل هي إذن هذه المسئولية بدلًا من مكالمات التحريض اليومية التي تسمم بها قلب ابنتها تجاهي.

ولإضفاء مزيد من الحرارة في هذا البيت الملتهب فإن قرار تعويم سعر صرف الجنيه وجنون أسعار كل شيء بعده جاء ليسكب البنزين على أعصاب (ياسر) المشتعلة أصلًا بسبب الأزمة المالية التي تمر بها القناة الفضائية.

الحمد لله على نعمة صفحة حنين التي صارت هي وصديقاتي منها المرهم الملطف لتلك الحروق اليومية، وأستغفر الله أنني أضبط نفسي أحيانًا أحسد (مها) على نعمة أن زواجها ليس خدمة ٢٤٧ أو (تسنيم) على نعمة الثراء في هذه الأيام العصيبة، بل أحيانًا أحسد (دنيا) على نعمة الأسرة التي لا تضطرها لكي تنتهز مثلي أقرب فرصة زواج تأتيها كي تفر بعيدًا عن تنغيصات أمها وتأففات زوج أمها، ثم تبين لي أنها فرصةٌ خسارتها مكسب.

أتمنى لو أنهن يحسدنني على نعمة الجمال كي نكون جميعًا في الغيرة سواءً.. يعلم الله كم أحبهن وكم أتمنى لهن

الخير.. ولسليم أيضًا؛ خصوصًا ليخرج من دائرة الأحزان ودوامة الذكريات اللتين حبست (سلواه) فيهما عقله وأغلقت عليهما قلبه، حتى ما عاد يرى ما كان ينبغي عليه أن يراه! لكنني أنا الغبية إذ أفضيت له بقصتي مع (توم)، فالرجل الشرقي قد يسامح الأنثى في أي شيء مهما بلغت فداحته إلا ما يخص العرض والشرف، تمنعه تلال موروثاته وقديم عوائده بل وحتى جينات خلاياه مهما حاول أن يتكلف خلاف ذلك، لم يكن شكسبير إلا عبقريًّا حين اختار من يجسّد الغيرة القاتلة فجسدها في شخص رجل عربي؛ أوتيلّو أو عطيل كما يحلو للمترجمين العرب ترجمة اسمه.

لم يحضر أحدٌ من أقارب (خالد) زوج (مها) حفل الميلاد، رأيت حسرة ذلك هناك في العمق المدفون في عيني (مها) بحيث لا يلحظه إلا من لديه سابقة علمٍ بما تُشعه عيناها الضيقتان من بهجة، ورأيت أيضًا حيرتها في مسألة غطاء رأسها، بين إرضاء زوجها وشراء خاطر أسرتها التي حضر منهم أخوها وأختها وزوج أختها بينما لا تزال بقايا مرارة زواجها بمسلم تغَص في حلق أبيها وأمها؛ تفننت (مها) حتى يكون رداء رأسها بين بين، ساعدها كون الحفلة في شقتها على إظهاره لزوجها حجابًا منزليًّا وإظهاره لأهلها غطاءً يلم شتات شعرها الطويل عن إعاقتها عن القيام بأمور الضيافة.

لم أستغرب دعوة (مها) لذلك الرائد (صبرة) الذي يبدو أنه معرفة قديمة لها وليس مجرد عضو في الجروب والصفحة، لكني استغربت اهتمامه بـ(حسين) ابن (تسنيم) وحرصه على التودد له، ولاحظت أيضًا نظرات الرضا عن ذلك في عين (تسنيم) وارتباك عيني الاثنين إذا التقيتا فجأة.. إخوانية الهوى وضابط أمن وطني دونت ميكس أبدًا!

حتى ولو كانت هي إخوانية بمجرد التعاطف وحتى لو كان عمله هو بعيدًا عن ملفات السياسيين، فشظايا ما صنع الحداد

بين الفريقين تمنع اختلاط أي زيتٍ بأي ماء.

ياااه يا (مارلين)؛ لقد انتفخت بطنك بشدة برغم أنه الحمل الأول لكِ، على عكس بعض البِكريات اللاتي لا تكاد تلاحظ بطونهن حتى في شهرهن التاسع، أو لعل ملابسها تلك هي السبب في إبراز بطنها بذلك الشكل الواضح؛ صيحة غريبة جديدة بين الحوامل في تعمد ارتداء ما اعتدنه قبل الحمل من ضيق الثياب حتى إنها لتؤطر بطونهن تأطيرًا كأنهن يردن إعلان خبر حملهن للناس جميعًا.

هذه هي أول مرة أرى زوج (مارلين) بعد زفافهما، لم يضيع وقتًا إذن حتى تبدأ أعراض الكرش الزوجي في الظهور عليه، لكني نسيت أن أحسدها – كما حسدت الأخريات – على نعمة الحب الذي تعيشه مع زوجها، ما أسعدكِ يا (مارلين) بحب زوجك فلا طلاق عندكم ولا تعدد، وما أتعسكِ إن أبغضته يومًا فقَيدك به ما له من فكاك.

لقد ربحتِ في مقامرة الزواج كبرى مقامرات المرأة في بلادنا... أو خسرتِ للأبد!

(٢٦)

(دنيا) تتعارك معي رفضًا لقراري ترك القناة وكأنها زوجةٌ تخشى غائلة الأيام.

تحدثني عن الصبر فأحدثها عن المبادئ التي لا تطيق الصبر والقناة تفرض عليّ ما لا أقبله.

تكلمني عن الصغير الذي يتنازل حتى يكبر ثم يفرض شروطه فأكلمها عن احترامي لنفسي واحترام أصدقاء الصفحة لي...

- فليذهب المال إلى الجحيم إذا كان طريقه قصص الإثارة والغرائب وليصطحب الشهرة معه في طريقه، تعلمين يا (دنيا) أنني لست طالب شهرة، والمال مشكوك في ضمان استمراره؛ إذ القناة تعاني بعض الأزمات المالية، بل إنني أتوقع أن تغلق الكثير من الفضائيات أبوابها، إنها مثل الأحزاب؛ تكونت بالعشرات بعد الثورة ثم لم تلبث أن آل عددها إلى ما آل إليه.

- أنشئ لنفسك إذن جمهورًا يتابعك ويبحث عنك، واصنع لنفسك بريقًا يجعل الأحزاب أقصد الفضائيات الكبرى تجري وراءك.

- للأسف ذلك لن يتأتى إلا عن طريق مسايرة القناة في سياستها تلك وتقديم المزيد من الحالات الشاذة والتي أشك في صدقيتها بل أنا متأكد أنها مصنوعة صنعًا لإثارة اهتمام المشاهد الغرير.. عفوًا؛ لا هذا طريقي ولا هؤلاء هم من أهتم بخطابهم.

صمتت (دنيا) إذ آيست من قراري تغييرًا، وطرقت مائدة المطبخ بإصبعها عدة طرقات، ثم قامت وشرعت في إعداد الشاي لنا، ثم قطعت الصمت وقالت:

- كان يجب أن تتخصص جراحة يا دكتور!

قهقهت من كلامها وأجبتها ضاحكًا:

- لماذا تقولين ذلك؟

أجابت بلهجة ما بين الغضب والسخرية:

-قراراتك تميل للبتر كمشرط الجراح؛ لا تعجبك سياسة القناة إذن سأتركها، لست في حالة نفسية طيبة بسبب الطلاق إذن سأترك عملي الطبي، حتى حب حياتك..

قاطعتها بحسم:

- (دنيا) أرجوكِ..

ولم أكمل جملتي وإنما اكتفيت بإشارة حاسمة من يدي وبعينين مغمضتين ترفضان سماع المزيد..

****

هل تعتقد أنني كنت جراحًا مع حبيبتي كما حاولت (دنيا) اتهامي؟

أنت بنفسك رأيت كيف كانت (سلواي) مني؟ هل يستطيع جراحٌ في الأرض أن ينتزع قلبه من صدره؟

هل تقول: إنه يقبل راضيًا الخضوع للجراحة؟ هل تعتقد ذلك؟ هذا اتهام خطير منك، صحيح أن أحدًا لم يجبرني على الطلاق، لكنني لم أك راضيًا أبدًا، لقد سمعتَ بنفسك صوت نحيبي يمزق نياط قلبي بكاءً عليها.

تتهمني بأنني محب للشجن وعشقت إحساس البكاء على الحب الضائع؟ بل وتتهمني بأنني فرطت فيها وأن إلحادها لم يكن سببًا كافيًا لهدم تلك الحياة الخيالية الرائعة؟لقد كانت تعطر لك سجادة صلاتك يا رجل؛ أسمعك وأنت تقول هذا لي بكل غيظ.

ربما تكون أنت على حق! نعم.. فأنا مستعد لتصديق أي شيء إلا أن أصدق أنني فقدتها، مستعد لقبول أي اتهام أو توبيخ أو حتى سباب! ولا أن أقبل وضعي الذي صرت إليه

بدونها، لكن..

ليس من رأى كمن سمع وكلاهما غير من عاش، ولن أدافع عن نفسي إلا بأن أخبرك أن الطلاق كان قرارنا المشترك...

لستَ في حاجةٍ لأن أخبرك أننا – ومنذ ارتباطنا الأول – وهاتف كل واحد منا معروف للآخر كلمة سر الولوج إليه.

لم يكن أحدنا يستأذن الآخر قبل العبث بهاتفه...

ما هذا الذي أقرؤه في هاتفها! ألهذه الدرجة وصلت (سلوى) من الاتساق مع ذاتها الإلحادية الجديدة؟

كنت أظنها مجرد دوامة فكرية عنيفة تعصف بعقلها.

كنت أحسبها ستتوقف عند أول أمتار من شاطئ بحر الإلحاد فيكون انتشالها منه مسألة وقت.

لكنها لم تكتفِ بإمساك طرف الخيط وإنما كرّت الخيط كله من بكرته؛

"طالما لا إله إذن فقانون الأخلاق بشري وإذن فهو نسبي، ما تعارف الناس على حسنه فهو حسن، وما يقبله قومٌ فهو مقبول وأخلاقي عندهم حتى وإن استهجنه آخرون أو حتى استعظموه".

هكذا قرأت في ملف خواطرها..

ولأن الجنس هو المثال المفضل لكي يضرب حين الحديث عن الأخلاق فانظر ماذا قالت أيضًا عنه:

"إذن فالعفة والحرية الجنسية نسبيتان، الجنس احتياج كالطعام.. من جاع أكل، إنما تضبطه فقط أعراف المجتمعات كما تَضبط أذواقُهم مقاديرَ أكلاتهم الشعبية، وكما أن هناك أذواقًا في الطعام رديئة فهناك أعرافٌ في الجنس بالية، والشذوذ مقبول بقبول الطرفين له؛ بل ومبارك بمباركة المجتمع له، بل لا يصح أن تسميه شذوذًا لما في ذلك الاسم

من تحقير لممارسيه بل سمّه مثلية، و. . . "

وتوقفت عند هذه النقطة عن قراءة باقي ما صارت تؤمن به، وأنا أصرخ من الغضب:

- ألهذه الدرجة هبطتِ في دركات أفكارك؟

أتذكر ذلك اليوم وتاريخه وساعته؛ أول مشادة بيننا، وأول مسمار في نعش زواجنا.

أنا أصرخ لا أصدق ما وصلت إليه قناعاتها، وهي تصرخ لا تصدق أنني يمكن أن أشك فيها مثقال ذرة. . . لا هي تسمعني ولا أنا أسمعها.

ولأول مرة تتجاوز أصواتنا جدران غرفتنا في غير أوضاعنا الحميمة:

- أرأيتِ إلى أي هاوية سقط بكِ الإلحاد؟ أصبحتِ تستسيغين الشذوذ والخيانة الجنسية!

- (سليم) حاذر في كلامك، هل وصل بك الحال أن تشك في أخلاقي؟

- بل وصل الحال بكِ أنتِ أن صارت أخلاقك نسبية '' تبعًا لما يراه الناس ''، أليس هذا هو كلامك؟

صرخت في وجهي:

- أنت مجنووووون. . هل كل خاطرة تكتبها أصابعنا تعني أفكارًا صارت عقولنا تعتنقها؟

- خاطرة؟؟!! أتسمين الكلام عن حرية الشذوذ ونسبية العفة خاطرة؟ هذا انحراف أخلاقي يا مدام!

وجمت ملامحها تمامًا بعد كلمتي تلك، وساد الصمت بيننا لعدة قرون من الزمان، ثم أجابتني بصوتٍ خفيض وعينها تترقرق:

- انحراف أخلاقي؟! صرتُ منحرفة أخلاقيًّا في نظرك؟!

- لا أقصد أن أخلاقك صارت منحرفة، ولكن... ليس بعد الكفر انحراف!

- أنت لم تغضب معشار هذا الغضب يوم أن شهدت شهادة الإلحاد، بل لقد كنت أتسمعك وأنت تبكي وتدعو ربك لي بالهداية في صلاتك، الآن تريدني أن أصدق غضبتك لدينك؟ أن أصدق أن كل هذه الثورة بدون شكٍّ فيّ وفي إخلاصي لك؟

- هاتِ أي زوجٍ في عروقه بعض الدم وقولي له: اقرأ هذه هي خواطر زوجتك.

جاوبتني صارخة و دموعها:

- هذا إذا كان مجرد زوجها، وليس حبيبها ونور عينيها وكل حياتها الذي لا ينبغي له أبدًا أن يشك فيها مثقال خردلة.

- فماذا إن تقلّب عليه قلبها يومًا فتوقفت عن حبه، فصار قانونها الأخلاقي يومئذٍ هو سيدها الوحيد؟

تحجرت دموعها في عينيها، وعدنا للصمت قرونًا أخرى، ثم ولّتني ظهرها وهي تقول:

- لن أسامحك على شكك فيّ ولا على سكينك التي طعنت بها قلبي فظننت إمكان تقلبه عليك.

تغيرت حياتنا كثيرًا بعد ذلك اليوم وتشرخت جدرانها، وكان جدار الجنس أولها شرخًا، فلم أعد أشتهيها ولا عدت أرى نظرة اشتهاءٍ منها.

فجأة أدركت أنني متزوج من ملحدة.. أعشق كافرة.

كأنني أعرف ذلك لأول مرة، كأنني أقرأ طعناتها في الدين وتهكماتها لأول مرة.

وخجلت من ربي!

غضب الذكر الشرقي بداخلي ولم يغضب العبد المسلم فيّ.

الآن فقط تذكرت آية: " ولا تمسكوا بعصم الكوافر «، بينما لم أتحمل فكرة في رأسها وخاطرة في ملفات محمولها لم ولن تدخل حيز التنفيذ.

ما أدراك أنها مستحيلة التنفيذ؟ ماذا يمنع زوجةً من خيانة زوجها؟

وازعها الأخلاقي، وازعها الديني، حبها لزوجها؟!

ماذا إن توقفت الملحدة عن حب زوجها؟ ماذا له غير وازعها الأخلاقي وأخلاقها ''النسبية''؟

ألهذا السبب فإن المجتمعات الملحدة هي الأكثر فسقًا عبر التاريخ؟

اخرس يا (سليم) وإياك أن تقول هذا عن سلواك أو أن تفكر فيه مجرد تفكير، أي شيطان لعين هذا الذي لديه القدرة على أن يوسوس لي فيهز ثقتي بها؟ ماذا يصنع الشيطان عندي أصلًا؟ المفروض أن مكانه عندها هي لا عندي، هي الملحدة لا أنا، غبي.. بأي شيء يمكن أن يوسوس لها أي شيطان وليس بعد الكفر ذنب؟ وفي عقلها ذلك الشيطان الأول الذي وسوس لإبليس نفسه بمعصيته الأولى؛ شيطان النفس الأمارة!

شيطان؟ فجأة أصبحتْ في نظرك شيطانًا؟ وهي التي ما تزال تعطر لك سجادة صلاتك برغم ما انكسر بينكما؟

إنني أكاد أجنّ.. عقلي ينفجر داخليًا.. أفكاري تحارب بعضها بعضًا بسيوفٍ من نار.. جلدي يتجاوب مع حالتي النفسية ويعبر عنها بطفحٍ جلدي.. عيناها لا تخطئان التشخيص.. جلدها يتجاوب مع جلدي أو مع حالتها هي النفسية أو معهما معًا.. وأنا أيضًا لا أخطئ التشخيص.. كلانا طبيب أمراض جلدية ماهر للأسف.

إذا كنت تريد الطلاق فطلقني..

إذا كنتِ أنتِ تريدين الطلاق فاطلبيه..

هكذا جاء رسول الواتساب وهكذا رجع حاملًا رسائله، له أكثر من أسبوعٍ حائر بيننا بعد تعطل لغة اللسان.

- (سليم)؛ يجب أن نتحدث.

- فعلًا يا (سلوى)، لدينا الكثير لنقوله.

وهكذا عادت لغة اللسان للعمل ولكنها ما لبثت أن تعطلت من فورها..

نظر كلٌّ منا للآخر طويلًا، قالت العيون كل شيء.

ثم قطعت هي الحوار الصامت بأن هرولت باكية، بينما بكيت أنا أيضًا ولكن متسمرًا بغير مكانٍ أهرول إليه.

لماذا أشم رائحة عدم اطمئنان؟

أين حبيبتـ.. أقصد أين (سلوى)؟

اقتحمت عليها الحمام!

لقد صدق حدسي، والحبوب الكثيرة التي ابتلعتها لم تبدأ مفعولها بعد!

الحمد لله أنني طبيب..

وجلست بجوار جسدها على الفراش أتأملها منتظرًا إفاقتها من بعد أن أسعفتها:

من هذه؟

هذه قلبي وأقرب إليّ من روحي..

هذه التي ما عدت آمن بوائق أفكارها..

هي التي أثق فيها أكثر من نفسي ..

هي هي التي ملأ الشك فيها قلبي..

إنها التي أحفظ شامات جسدها وعدد شعيرات ساقيها..

بل هي الغريبة التي لا أتذكر ملامحها وأراها لأول مرة..

وبدأ الحبيب يستعيد وعيه رويدًا..

وابتسمتْ إذ كان وجهي أول ما تقع عليه عيناها، ثم غاصت ابتسامتها وسط تقطيبة ملامحها، وتبادلنا نظرة طويلة دامت لعدة قرونٍ أخرى، ثم ارتمينا في أحضان بعضنا يلفنا البكاء وتبادل النحيب، وقلبي يضمها إليه بقوة في شوق وينزعها عنه في بغض في نفس اللحظة.

ثم هدأت الأحضان، وسكت النحيب، وبدأت هي الكلام وعينانا تتجنبان أن تلتقيا.

- متى ستكلم أبي؟

ازدرت ريقي وقلت:

- لن أجرؤ أن أفاتحه، فليكلم كلٌّ منا أهله برغبتنا في الطلاق.

ولمدة شهر لم يفاتح أينا أسرته في شيء مكتفيين بملاحظتهم لنا وبسؤالهم عما أصابنا:

- ما بك؟.. ماذا بكِ؟

- لا شيء.. لا شيء.

مصحوبة بهزة رأسين تؤكدان وجود أشياء، داعية الأمهات لمزيد من القلق المسفر عن المزيد من الأسئلة.

وسابقنا نحن الزمن – أنا وهي – في الارتواء حتى الثمالة من بعضنا البعض، كأن جسدينا يودعان بعضهما البعض، أو عن رغبة محمومة من كلينا في محاولة أخيرة يائسة للحصول على تذكارٍ بشري يربطه بالآخر أبد العمر بعد فشلٍ دام عدة سنوات، أو في محاولة إثبات أن الجسد بعد الطلاق لن يفتقد الجنس بعد أن فقد القلب الحب.

محاولات يومية عنيفة الأداء... لم نتبادل خلالها قبلة واحدة!

كيف عرفت أسرتي وأسرتها برغبتنا في الطلاق رغم عجز لسان كل منا عن البوح به؟ لست أدري، فقط أتذكر ذلك الزلزال الذي هز جدران البيتين، والشهقات غير المصدقة التي انطلقت من صدور الجميع.

وكان ما كان من استئصال قلبينا ما لها عوضٌ، ولا الجراح تندمل

(٢٧)

لم تستطع (دنيا) إذن إثنائي عن قراري بترك القناة، وفوجئنا بأن مردود هذا القرار كان طيبًا على الجروب والصفحة؛

"مؤسس صفحة (حنين بلا سلوى) يترك العمل الإعلامي حفاظًا على مصداقية صفحته"

هذا ما تناقلته وسائل التواصل الاجتماعي، فعادت للصفحة زهوتها وتفاعلات الأعضاء بها، وانهال أعضاء الجروب ثناءً على قراري وبالغ بعضهم في تمجيدي حتى سماني بعضهم "أدمن القلوب"! وانهالت علينا طلبات الالتحاق الجديدة.

بالضبط كما انهالت عليّ الاتهامات المضادة بأن تركي للقناة كان حركة متعمدة وذكية لزيادة شهرتي وشهرة الصفحة والجروب وبالتالي زيادة حصيلة عائدات إعلاناتهما.

ولعدة أسابيع دارت رحى معركة إلكترونية بين الاتهامات والدفاعات المضادة، وصدقني أنني لم أشارك فيها ولم أهتم حتى بمجرد التعليق عليها ولو مرة للدفاع عن قراري، بل لم أدون أي تدوينة تقول أنني تركت القناة حفاظًا مني على أي مبادئ، وإنما تبارزت سيوف التدوينات بالنيابة عني.

والغريب أن غبار هذه المعركة أسهم هو أيضًا في زيادة تلميع الصفحة.

وكأي موجة إلكترونية شغل هديرها و تريندها مواقع التواصل لفترة من الزمن ثم لم تلبث أن تتكسر على صخرة النسيان مفسحة مكانها لموجة أخرى و تريند جديد.

وعادت فرحتنا لعودة صفحتنا لاحتلال صدارة الاهتمام في مواقع التواصل... ولكن عاكستها سحبٌ رمادية أخذت في التجمع كثيفةً في آفاق حيواتنا جميعًا!

***

لقد قفزت من القارب في التوقيت المناسب يا (سليم)!

هكذا حدثت (لبنى) نفسها بمزيج من السخرية والحسرة وهي تتأمل قاربها هي الذي توشك أمواج الحياة أن تقلبه بها في ظلمات المستقبل المجهول من جديد.

لكن (سليم) غادر القارب مختارًا لأن خط ملّاحتها لم يرق له، بينما استغنت القناة عن زوجي (ياسر) وطلبت منه – مع عشرات العاملين غيره – مغادرة قاربها تخفيفًا لحملها كي لا تغرق في أزمتها المالية الخانقة، فهي واحدة من عدة من القنوات اللاتي سطعن في سماء الإعلام فجأة بعد الثورة، ثم أخذن في الخفوت والانطفاء واحدة بعد الأخرى بعدما تبين أن هذا البحر المتلاطم لا يصلح إلا لملاحة البواخر العملاقة.

من يومها و(ياسر) – ونحن معه بالطبع – لا نعيش أفضل أيام حياتنا.. وكأن الحياة لم تكتف بمنغصات ابنة زوجي فساقت لي تلك الهدية معها!

محظوظة أنا؛ ألا تظن ذلك؟

وبعد أن كنت أجاهد في إقناع (ياسر) بتحقيق حلم الأمومة لي، وكان رأسه قد بدأ يلين لمّا زينت له أمنية الحصول على الولد مني بعد أن كان مكتفيًا بطفلتيه، وراق لأذنيه كلامي له عن أن بطون النساء ليست واحدة وأن قلوبة رحم الأنثى وحموضته هما من يحددان نوع الجنين أكثر مما يحدده ماء الرجل، فها هو بعدها يمسح كفيه ببعضهما وهو يقول:

- لا ولد ولا بنت ولا حتى شايب، أنا الآن بالكاد أطعمكم.

وبالفعل فإن العمل الذي جاءه به أصدقاؤه في مكتب للديكورات بالكاد لا يكفي مصاريفنا الأساسية، ولا يكاد ينتهي من مهام عمله حتى يلجأ لحاسوبه وهاتفه مراسلًا كل فضائيات الوطن العربي وكل شركات الديكورات والتجهيزات الداخلية في الخليج طالبًا عملًا.

يبدو أن فكرة الإنجاب صارت حلمًا مستحيل التحقيق، فعقل (ياسر) الذي صار يأكله الهم قد تداعت له سائر أجهزته الحيوية بالقلق! محظوظات تلك الزوجات اللواتي من طبيعة أزواجهن إشعال فرشهم تفريغًا لهمومهم وغيظ مشاكلهم.

إنني أضحك – وشر الضحك ما يأتي من تقليب المواجع – كلما تذكرت زميلة لي في المطعم الذي كنت أعمل به قبل الزواج؛ كانت تتفنن تلك الزميلة في إخفاء كدمات رقبتها كي لا تظهر أمام الزبائن، ولما لاحظت تغامزنا عليها صاحت فينا؛ ماذا أصنع لهذا المجنون زوجي؟ كان يعضني بعنف وهو يهتف في غيظ باسم مديره في العمل.

- وهل كان يعض فقط في غيظ؟ أم كانت لغيظه أبعاد أخرى عنيفة؟

قالتها زميلة أخرى وهي تغمز في خبث فضحكنا جميعًا وابتسمت أيضًا زميلتنا المعضوضة ووجهها يتخضب من الخجل...

يا لي من محظوظة، ألستُ كذلك؟!

بمناسبة المطعم؛ سوف أحسم مع (ياسر) هذه الأيام موافقته على عودتي للعمل فيه طالما هو يرفض أن أستقبل في البيت طالبي دروس المحادثة بالإنجليزية حتى وإن كنّ نساءً ويأبى بالطبع ذهابي أنا لبيوتهن.لقد صارت غيرته عليّ لا تطاق، وكأنه يحاول بها تعويض ما طرأ عليه من ضعفٍ وعجز.

وصارت ابنته لا تطاق.

بل صارت حياتي معه كلها مثيرة للإحباط... لكن أين أذهب؟

هل لا تزال لا تصدق كم أنا محظوظة!

(٢٨)

لم أصدق أذنيّ ووالدة زوجي (خالد) تهاتفني لتبارك لي حملي.. خاطبت (مها) نفسها.

الغريب أن (خالد) نفسه لم يكن متحمسًا للحمل ولم تبد عليه أي بادرة فرح حين أخبرته بحملي، لتتحول دموع الفرح في عيني إلى دمعة حزن واحدة كبيرة..

هل كان يريدني فقط زوجة لتعويض فراشه الذي أصابه المرض؟

هكذا تبكي أفكاري في حزن حتى إنني منعت نفسي منه بحجة استقرار الحمل في شهوره الأولى، لكن جاءت مكالمة الأم بردًا وسلامًا على نفسي.

وتوالت زياراتي لأمه... صحيح أن تعبيرات وجهها خالية من أي تعبيرات دافئة نحوي، ولكن لا بأس، فكثير من كبار السن هكذا؛ تخفي تغضنات وجوههم كل ملامحها التعبيرية.

بل صارت تلك الزيارة تتعدد في الأسبوع الواحد عدة مرات في محاولة مني لإذابة ما سبق أن وضعوه من جليد في طريق علاقتي معهم.

نطهو سويًّا، نثرثر كثيرًا أو بمعنى أصح أثرثر أنا، نعتني ببعض شئون بيتها وهي العجوز المقيمة وحدها، لكن لماذا تتعمد هي القيام ببعض الشئون المجهدة في أثناء وجودي فأضطر لمساعدتها إحراجًا منها؟

- لماذا لا تتركين مهمة ذلك للخادمة يا طنط؟

- لا عليكِ يا بنيتي، ارتاحي أنتِ وأنا سأصنعها لوحدي.

بالفعل لم أكن لأغامر لحمل هذه الكرتونة الثقيلة معها، ستفشل في حملها فتيأس منها.. ما هذا العناد الغريب؟ إنها تصر على حملها كأنها تنافس على ذهبية الأولمبياد.. توازنها

سيختل.. إنها لا تقدر على التماسك.. أدركيني يا بنيتي.. أسارع بدون تفكير لنجدتها.. العجوز تركت كل الحمولة لي وفقدت توازنها.. إنني أشعر بوزنها الثقيل يجثم فوق بطني..

- آآآآه... أدركيني يا طنط... بطنيييي!

- الكرتوناااااة!

****

- لا بد أن الإجهاض قد أصاب عقلك بلوثة، كيف تجرؤين على التلويح بأن أمي كانت تتعمد إجهاضك؟!

- هل هناك تفسير آخر؟ إنها وبرغم مرور أسبوعين لم تكلف خاطرها لا هي ولا واحدة من أخواتك بزيارتي أو حتى بالاطمئنان عليّ هاتفيًا.

- هذا أقل رد فعل لاتهاماتك المجنونة.

- أنا لم أفض بهذه الشكوك لأحدٍ سواك. أنت؛ ألا يثير الأمر ريبتك؟ أمك كانت لا تكلمني أبدًا، ثم ظهر الود فجأة بعد الحمل، ثم ذاك الإصرار الغريب على حمل الأشياء الثقيلة في أثناء زياراتي لها، وهو الأمر الذي أثار استغرابك أنت نفسك وقتما حكيته لك، ثم كما بدأت أول انقطاعٍ تعيده بعد إجهاضي... هل ترى كل ذلك طبيعيًّا؟

- وهل كانت أمي لتضحي بطاقم كاساتها البلور من أجل ظنونك؟ تقولين ذلك بدلًا من أن تلومي نفسك على تسببك في تحطيم ذلك الطاقم الأثري وتحطيم قلب أمي معه؟!

وبهتت (مها) من رده وتحجرت دموعها في مجريات قنواتها،فلم تتمالك إلا أن ردت عليه

- يبدو أن غباوة النفس وقساوة القلب أمر وراثي!

وصدمته كلماتها فمشق كفه في الهواء عاليًا، ثم تدراك فجمدها في مكانها وتجمدت معها نظرات (مها) الجاحظة،

فأسقط ذراعه نحو الأرض وقال في هدوء:

- لقد استحالت الحياة بيننا بعد كلامك هذا.

ردت عليه فورًا:

- تقصد الطلاق؟ ذاك أفضل جدًّا!

(٢٩)

إذن فلم تكن (مها) تبالغ في ظنونها..

لقد طلقها النذل وهي لم تتعافَ بعدُ من آثار الإجهاض، وكأنه كان ينتظر كلمة أو إشارة واحدة منها للطلاق ليطلقها.

حتى في أيام استشفاءها من الإجهاض كنا أنا و(لبنى) و(دنيا) نتناوب العناية بها تخفيفًا عن أمها كي تستطيع الأم العناية بابنتها الثانية (مارلين) التي وضعت مولودها، لا أمه ولا أخواته رفعت إحداهن سماعة الهاتف في أثناء فترة تعبها ولا حتى من باب إبراء العتب، حتى هو كان يمر عليها فقط لساعة كل بضعة أيام حتى كانت تلك المشادة التي تنفس بعدها صعداء الطلاق.

فعلًا إن سوء الظن من محاسن الفطن أحيانًا

-الذي يحز في نفسي يا (تسنيم) نظرة الفرح التي تنضح من عين أمي بعد طلاقي مهما حاولتْ إخفاءها، والأحز منها أن (ماريا) كانت قد بدأت في التعلق به كأبٍ تعويضي.

فعلًا فإن عيون البنت قد انطفأت بنظرات الانكسار... قالت (تسنيم) لنفسها، تمامًا مثل (حسين) ابني من بعد طلاقي من أبيه وسفر جده إلى لندن.. ألهذه الدرجة دور الأب مهم حتى وإن لم يصنع شيئًا سوى الوجود في حياة أطفاله؟

أنتِ خاصة يا (تسنيم) لا تسألي هذا السؤال يا طفلة أبيكِ المدللة.. يا الله؛ ما من مرة أتذكره إلا وتأبى دموعي إلا أن تتذكره معي.

لعل هذا هو سبب انجذابي لـ (شريف)؟ لا ليس انجذابًا بل هو اهتمام.. أو هو.. لا أعرف له توصيفًا بصراحة، ولا أجرؤ على توصيفه بشيء يفوق الاهتمام، لا ظروفي ولا ظروفه تسمح لنا بأي شيء يتخطى الاهتمام.

لا أصدق أن هناك ضابط شرطة ناهيك عن أن يكون ضابط أمن وطني يغامر بنجدة امرأة مثلي؛ لأبيها ملفٌ عندهم إذ تحوط به شبهات التعامل المالي مع الإخوان.. أم أننا نبالغ في سوء ظنونا بهم؟ أليس سوء الظن من الفطنة أم أنه إثم؟ أم أن أصابع اليد الواحدة غير متشابهة؟

لكن في النهاية كلها أصابع ثقيلة غليظة حرمتنا.. نا؟ من نحن؟

أنا لا أجد لنفسي انتماءً ولا حتى توصيفًا، خصوصًا بعد الأحداث المسماة زورًا بالثورة، سواء بنت يناير أو أختها وليدة يونيو.

لقد اهتزت كل الثوابت التي كان يقوم عليها عقلي فصار يتزلزل من أقل هَبة ريح فكري تمر بجواره، حتى التدين الذي كنت أعتصم بركنه صرت ألوم نفسي على جفاف تربتي منه، لا تزال أشجار الصلاة والذكر والعبادة تزهر في حديقتي، لكنها أشجار عطشى غير مروية بماء الطمأنينة، حتى في العمرة التي أديتها بعد الطلاق كنت أحس بفتاة أخرى هي التي تطوف وتسعى، بينما أنا الحقيقية توقفتْ عن الطواف وتسنمتْ الكعبة وأخذتْ تنظر إلى السماء وتسأل صارخةً ؛ متى إذن يا رب؟

حمدًا لله على وجود (سليم) في حياتي؛ لديه – أحيانًا – الإجابات التي عجز عنها الشيوخ.

فعلًا هذه أيام الفكر لا الفقه.. المنطق لا الخطابة.. فلسفة التاريخ لا قصصه المسلية...

- هذا لأننا طوال تاريخنا يا (تسنيم) نثور في الصباح وننتظر من الوالي أن يستجيب لنا في العصر قبل أن يأتي المساء لأننا يجب أن نأوي إلى فراشنا مبكرًا فلدينا رزق نسعى وراءه في الصباح.

- أنت متحامل كالعادة يا (سليم)، لا أحد ضحى كما ضحى المصريون في تاريخهم الطويل.

- لو قرأتِ قليلًا في تاريخ أوروبا لعرفتِ أننا نلهو بأصابع أقدامنا في مياه شاطئ التضحية، نحن شعب التصق بضفتي نهر النيل و يأبى طوال تاريخه أن يغادر دلتاه الضيقة حتى بعد أن جاوز تعدادنا التسعين مليونًا يضيق بهم النهر و ضفافه و دلتاه، حتى تطبعت جيناتنا بطبع النيل الهادئ الذي لم يكن أبدًا نهرًا ثائرًا،وإنما هي فيضانات غامرة يفيضها كل عدة عقود فقط عندما يفيض به أو بنا الحال، ولا نكاد نكتب سطرًا في صفحة التغيير حتى نمزق صفحتنا الجديدة بأيدينا أو نعيد فيها كتابة باقي أسطر صفحة الحنين للنهر الهادئ و للماضي الذي لا نسلاه!! و بعدها نكتفي باجترار ذكريات و فخر الحضارة الأقدم في التاريخ التي صنعها لنا النهر الأطول في الجغرافيا !

ثم يحدثني كثيرًا عن سنن التغيير وعن الله الذي لا يجامل فيها عباده الصالحين كما لا يتحامل على الأشقياء منهم أو الكافرين.

كم أرتاح لحديثه، إنه أول من أفكر فيه لحظة أن تتزلزل عقلي الزلازل، فيصبر الواتساب على حديثنا الطويل، ربما لأنه يعرف أن فيه الشفاء لعقلي من وساوسه.

لكن لست أدري لماذا يصبر نفس الواتساب على حواراتي مع (صبرة)؟ ربما لأن فيها الملاذ من هؤلاء العرسان الذين ملأوا سماء حياتي فجأة بعد طلاقي، وأغلبهم جاء يخطب ثرائي مشيًا وراء رائحة شواء مطاعمنا، في حين أن بعضهم يجفل ويفر بمجرد أن يشم رائحة ملف أبي الأمني.

إلا (شريف)؛ لا هو الذي جاء ولا هو الذي جفل، وإنما هي علاقة لا توصيف لها.. لا أمل فيها.. علاقة محلك سر، في

الواتساب طبعًا، فمن بعد عيد ميلاد (ماريا) لم أره ثانية، فقط دردشات شبه يومية، أحيانًا لا تأخذ سوى دقائق وأحيانًا تستمر لساعات، لم يسألني مرة ولو من بعيد عن أمور تتعلق بوالدي ولا بثروتنا ومطاعمنا، لم يُثر أي ريبة عندي ونحن معروفون برهافة حسنا الأمني، نحن من جديد؟ من نحن؟ قلت لك أنني نفسي لا أعرف، أعرف فقط أنني سررت لما أخبرني عرضًا أنه قد صار منتظمًا في صلاته بعد أن كان يفوت بعض فروضه أحيانًا.

الغريب أن (حسينًا) يسألني من آن لآخر وعيناه تلمعان بحب عن (عمو) الذي قابلناه في المطار ولم يتوقف عن اللعب معي في عيد ميلاد (ماريا)...

يا إلهي؛ لماذا لا تعطينا الحياة إلا بقدر ما تأخذ منا؟

***

ماذا دهاك يا (شريف)؟

هي ليست مجالك من أي اتجاه!

ليست ذوقي الجمالي المفضل، ولديها طفل وأنا أكره الأطفال، ومتزمتة دينيًا مقارنة بي، صحيحٌ أنني واظبت على الصلاة كما أخبرتها، وتوقفت عن شرب البيرة كما لم أخبرها، لكن لا تزال الهوة بيننا سحيقة، إنها حتى لا تصافح الرجال.

هل لأنها ثرية؟ بالعكس، أنا ذلك النوع من الرجال الذي يحب أن يبقى قويًا أمام زوجته، ولا شيء يكسر الرجل أمام المرأة مثل المال.

وكل ما فات كوم وانتماءات أسرتها أكوامٌ أخرى، صحيح أن لا علاقة مباشرة لهم بالإخوان لكن تعاطفهم وحده كافٍ.

ولولا أن ضابط المطار صديقي الذي أثق به لما غامرت بنجدتها في محنتها، فالتهمة في مثل هذه الأمور وفي ظروف

بلادنا العصيبة تلك كافية لإنهاء ملف خدمتي.

ومع ذلك فإن شيئًا غريبًا يجذبني إليها ولم أدرِ ولن أدريَ كنهه، لعله اختلاف الليل والنهار الذي بيننا؟ فالنفس جبلت على حب الغريب بل والمستحيل أحيانًا، أو لعلها تلك الطفلة الضعيفة التي تسكن قلبها وتطل شقاوتها من نظرات عينيها، نفس هذه الطفلة التي تبهرك أحيانًا برجاحة تصرفها وتفكيرها كأنها جدتك أو بمعنى أصح كأنها جدك؛ توليفة لم أعهدها من قبل حتى بين الرجال...

حتى صفحتها على الفيسبوك أهتم بمتابعتها لأستمتع بهذا التناقض الطريف بين منشوراتها عليه... ما هذا المنشور الذي نشرته؟

الأرض لا تشرب الدم!

ماذا تعني بهذا الكلام؟ أي يومٍ هو هذا اليوم؟ ١٤ أغسطس؟ هل تعني ذكرى....؟ سحقًا لهذا!

- أنتِ بالتأكيد تعنين شهداء الشرطة في يوم فض الاعتصام!

- أعني كل من مات مظلومًا وهو لم يرتكب جرمًا.

- وهل هناك من جرمٍ أكبر من السعي لهدم الدولة ومساعدة المتربصين بها من الخارج؟

- ولماذا اعتبرت كلامي عمن مات ظلمًا أنني أعني به المعتصمين؟

- هذا واضح ولا يحتاج لكثير فطنة.

- هل هناك مبرر واحد لحصد أرواح أكثر من ألف إنسان في ساعاتٍ من نهار؟

- بل هم ستمائة فقط، أرأيتِ؟ أنتِ تتبنين أرقامهم المضللة في عدد القتلى.

- وهل ستمائة عدد هين؟ ثم إن عدد الألف ضحية هو إحصاء

المنظمات الدولية بينما إحصاء الجماعة نفسها يتخطى الألفين بل الثلاثة آلاف.

- وأنتِ تثقين في هذه المنظمات المسماة دولية وحقوقية؟ اسأليني أنا عن هذه المنظمات وملفاتها المشبوهة تحت يدي.

- وبفرض أنهم ستمائة؟ هل تعرف كم امرأة وكم طفلًا وكم عجوزًا بينهم؟ ما ذنبهم؟

- إنما قتلهم من غرر بهم فأخرجهم.

ردت بتعبير وجه يضحك ثم كتبت:

- ذكرتني بقصة عمار بن ياسر الشهيرة.

- هذا من صحابة الرسول أليس كذلك؟ ما قصته؟

- كان الرسول يقول عنه "**ويح عمار تقتله الفئة الباغية**" فلما وقعت الفتنة بين علي بن أبي طالب وبين معاوية ووصل الأمر للقتال خرج عمار بن ياسر في فريق عليّ، فلما قتل عمار صاح الناس متذكرين كلام الرسول وقالوا قتلته فئة معاوية إذن فهي الباغية، فأراد معاوية الخروج من هذا المأزق فقال؛ إنما قتله من أخرجه فأورده التهلكة!، فلما بلغ هذا الكلام الماكر لسيدنا عليّ قال قولته الذكية؛ فمن قتل الحمزة؟! إشارة إلى أنه لو كان منطق معاوية سليمًا لكان الرسول هو من قتل عمه الحمزة.

- وهذا التوظيف السياسي للدين هو أس المشاكل.

- أنا لا أوظف ولا أرفد.. أنا مجرد أضرب الأمثال.

سكت قليلًا ثم رد عليها:

- هل سمعتِ عن أحداث كرداسة؟ لي صديق عزيز فقدته في جريمة العدوان يومها على قسم شرطة كرداسة، لو كان فقيدك أنتِ لما قلتِ هذا الكلام.

- وأنا لم أزد عن أن قلتُ: الأرض لا تشرب الدم، فالدم كل

الدم حرام.

- إنما يتحمل وزر الجميع من كان السبب فيما حدث يومها وقبلها وما نزال نعانيه حتى اليوم.

- قل لي أنت: من السبب في كل ما تعانيه مصر طوال هذه السنوات بل طوال عقود.

-.....

- شريف، أين ذهبت؟

(٣٠)

زفرت (مها) في ضيقٍ بطريقة تمثيلية ثم قالت وهي تضحك:

- أنتِ تخدعينني يا (لبنى)؛ تقولين لي هيا لنشم هواءً نقيًّا يريح أنفي وعقلي من استنشاق عبق التجربة الفاشلة الذي يملأ بيتي، فلا أجد سوى أنفاس الشيشة تحكي حرقة ما تعانينه في زواجك.

نفثت (لبنى) دخانها بقوة في وجهها وابتسمت في شقاوة لمّا أخذت (مها) تذب سحابة النيكوتين عن وجهها ثم أردفت في أسًى:

- ومن لي غيرك يا (مها) أسكب عندها عبرات أحزاني، في المرة الوحيدة التي حاولت فيها – مجرد محاولة – أن أبث أمي بعض شكواي، قاطعتني بمحاضرة عصماء عن صبر الزوجة وعن طاعتها لزوجها وعن ثواب تربية اليتيم، بالرغم من أن بنات زوجي لسن يتامى كما أنني لا أعصي (ياسرًا) في معروف، لكني تدراكت ما وراء كلام أمي؛ أنها تقطع عليّ أي تفكير في الطلاق إذ لم يعد لي مكانٌ عندها وقد تنفست الصعداء بزواجي..

ثم وضعت ليّ الأرجيلة لتمسح دمعة قبل أن تفرّ من مقلتها فتجرف كحل عينها في طريقها المفضل نحو خدها الأسيل.

ربتت (مها) على كتفها في حنان وكادت أن تحتضنها لولا مخافة عيون من لن يحسنوا تفسير حضن المواساة ذلك، ثم سألتها:

- ألم تتحسن ظروفكم المادية بعد عودتكِ للعمل في المطعم؟

- تحسنت ظروف وساءت أختها، فأنا مثلًا صرت بعدها لا أطالب (ياسرًا) بشراء أي شيء لي من احتياجاتي الشخصية،

بينما لا يزال هو يطالبني بالاستمرار في أداء مهام البيت كما كنت قبل أن أعمل.

- ألا يمد يد المساعدة لكِ؟ لم لا تتناقشين معه في ذلك بهدوء؟

- بُح صوتي نقاشًا وهو لا يزيد عن التحجج بأنه لا يدعني أنفق قرشًا على البيت فبالتالي فالوضع يجب أن يظل كما كان، وكأن نفقاتي التي صرت أتحملها عنه ليست من مسئوليته، حتى أصبحت أشعر بأنني أعمل لدوامين؛ دوام في المطعم مقابل راتبي ودوام في البيت مقابل الطعام والمأوى.

وقبل أن تحاول دمعة أخرى لـ (لبنى) النجاح فيما فشلت فيه سابقتها، سارعت (مها) لتقول وهي تغمز في خبث:

- ومقابل أشياء أخرى دافئة لا تقدر بثمن.

ندت ضحكة عفوية من (لبنى) وقالت:

- لقد صرتِ أكثر مني شقاوة بعد الطلاق يا (مها).

ثم سكتت لثوانٍ لتقول:

- لو على ما تقولين فهو الرابح لا أنا، بل إن راتبه كله – وقبل أن تسرحه القناة – لا يساوي معشار ما أمنحه له.

هزت (مها) رأسها في عدم رضا وقالت:

- هكذا أنتن أيتها الجميلات؛ لا تشعرن بالرضا إزاء ما قد يطير به سواكنّ من الفرح.

و سكتت هنيهة ثم قالت:

- أنتِ يا (لبنى) أيام عملك بذلك المطعم الفاخر وقبل زواجك؛ كيف لم تصادفي من يقدر جمالك؟

ردت من فورها:

- بلى صادفت الكثير، ولكن جميعهم يبحث عن خادنة

أو عشيقة شرعية بورقة عرفية، وبالطبع فلا أنسب من تلك الحسناء المطلقة التي لا تحمل سوى شهادة الإعدادية.

وبلعت ريقها في أسى ثم أردفت:

- ما أسعد أمهاتنا، كان يمكن للواحدة منهن أن تتزوج أستاذًا جامعيًّا وهي لا تحمل حتى شهادتي الإعدادية، أما جداتنا فكن لا يحملن سوى شهادة أمهاتهن لهن في التدبير المنزلي، بينما أنا الآن في زمن المظاهر هذا الذي نحيا فيه فالشهادة هي كل شيء، حتى وإن كان تلاميذ المدارس الدولية يأخذون عندي دروسًا في المحادثة بالأمريكية.

ثم ضحكت وهي تعقب:

- مع أن الشهادة هي آخر ما يهم الرجل حين تطفأ الأنوار إيذانًا ببدء هدف الزواج الحقيقي.

ردت عليها (مها) من فورها مبتسمة:

- أرأيتِ إذن أنك تتبطرين على النعمة التي اعترفتِ أنها الهدف الأصلي من الزواج؟

غاصت ضحكة (لبنى) وقالت:

- والأطفال؟ أليسوا من ضمن ذلك الهدف الأسمى؟

بلا شعور تحسست (مها) بطنها وهي تجيب في حزن:

- وأي أسمى... أنا أفتقد فقيدي بالرغم من أن (ماريا) تملأ عليّ الدنيا.

وسكتتا لدقيقة احترامًا وتأبينًا لذكرى الفقيد قبل أن تعقب (مها):

- ما أشد ألمي بماريا وحالها بعد الطلاق، كأنها هي من تطلقت ولست أنا، (خالد) برغم كل ما كان منه إلا أنه كان حنونًا معها حتى رسمته (ماريا) أيقونةً للأب، ولا يزالان يتحادثان من وقتٍ لآخر على المحمول الذي اشتراه هدية لها

كأنه تعويض منه عن خروجه المؤلم من حياتها..

ثم ابتسمت في مرارة وقالت:

- هل تصدقين أنه دفع لها مصاريفها الدراسية لهذا العام؟

تبادلتا النظرات دونما تعقيب فأكملت (مها) وقد تناولت طرف حديث الشجون من (لبنى):

- لكن الأطفال أذكياء، هي تفهم أنه لم يعد بابا، لذلك فوجئت بأنها راحت تبحث عن والدها الحقيقي، ما أسهل ذلك هذه الأيام، فببضع نقرات على لوحة المفاتيح كانت ترسل له طلب صداقة على الفيسبوك!

ارتسم الاهتمام على ملامح (لبنى) حتى اتسعت حدقات عينيها ووضعت لي الأرجيلة جانبًا ثم قالت

- وماذا بعد؟!

- تفاجأت بتصرفها مثلما تفاجأ (أمير) به، ولأول مرة منذ سنوات طويلة نتحادث أنا وهو، هو أبوها الذي تحمل اسمه ودمه برغم كل شيء، وخلاصة حوارنا أننا اتفقنا على أن يلعب دور الأب في حياتها ولو من بعيد على أن تظل كفالتها مسئوليتي، وأظنه كان محقًّا حين قال لي؛ لا يُرضي أحدًا أن أنفق على بنتي وهي على غير ديني بدون رضاي، وبالتأكيد اتفقنا على أن نتجنب الخوض أو الحوار في مسألة الدين هذه.

- sounds fair

- لكن المشكلة في (ماريا) نفسها التي لا ترى في هذه النقطة الأخيرة أي وجاهة، وتقول؛ أليس الله محبة؟ وأليس لكم دينكم ولي ديني؟ فلماذا لا يأتيني أبي بفانوس وياميش رمضان؟ ولماذا لا أذهب معه لقداسات أعياده في الكنيسة؟ ولماذا يا ماما تتحرجين أن يظهر جدي وجدتي على صلاتك أو صيامك؟ ولماذا لا نقتني في بيتنا صليبًا؟ بل إنها فاجأتني

في يوم عيد الأم بأنها أحضرت لجدتها تمثال العذراء هدية لها، وأُحبطت حين أخبرتها أننا البروتستانت – أقصد عائلتي – لا نقتني التماثيل والأيقونات، لكنها أصرت على إهدائها لجدتها لتوصل بها رسالتها، لكن للرسالة نصف آخر عندها؛ في برنامج الأذان الذي ثبتته على هاتفها، وتطالب عيناها أبي وأمي أن يبتسما في رضا إذا ما صدح الأذان ونحن في زيارتهم في بيتهم.

مطت (لبنى) شفتيها ثم قالت بعد تفكير ساهم فيه نفس عميق من الدخان:

- وكيف هي علاقتها مع أبيها؟

- علاقة لا يزال أغلبها من طرف واحد، فأمير لم يعتدْ وجودها الذي يذكّره بسابق ما كان بيننا، لكن الجليد يذوب تدريجيًّا بحرارة الدم وعاطفة الأبوة.

سكتتا من جديد إجلالًا لقدسية الدم والعاطفة ثم أنهت (مها) مراسم الإجلال سائلة:

- وأنتِ يا (لبنى)، أي وجهة لقاربكِ ستشرعين؟

(٣١)

جرس الباب يعلن عن وصولها، هذه الفتاة لديها إصرار عجيب، أفكر بجدية في تجاهل الجرس وصاحبته وفكرتها التي جاءت لتشرع في تنفيذها رغمًا عن ممانعتي، لكن هيهات؛ فلو استيأست مني بابًا لخلصت إليّ شباكًا، أو ربما مع هواء التكييف...

- ألم تركل بقدمك فضاء القناة التي لا تعجبك سياستها؟ فلنصنع إذن فضاءك الملاكي، وأنا واثقة أن قناتك على اليوتيوب ستجمع الحسنيين؛ النجاح والرسالة الهادفة.

شيء ما حملني كأنني أطفو بدون مقاومة مني من غرفة المكتب إلى باب الشقة، ثم فتح نفس ذلك الشيء الباب بعد أن أسندني برفق إلى الأرض تاركًا لي مهمة ضبط توازني، دلفت (دنيا) من الباب لتطبع على عجل قبلة سريعة سقط أغلبها على الأرض قبل أن تصل إلى خدي، كأنها تعلن نوع العلاقة بيننا لصاحبتها التي اصطحبتها لتساعدها في تنفيذ مؤامرتها.

- (ميادة) صديقتي التي أخبرتك عنها، ستتولى ضبط حجرة المكتب كأنسب ما تكون للتصوير ثم تأخذ المادة المصورة لتقوم بعمل المونتاج وإضافة المؤثرات... إلخ.

صافحتني (ميادة)... اسم على غير مسمى حتى في طريقة مصافحتها.. في شعرها شديد القصر وملابسها التي بالتأكيد تتشارك فيها مع أخيها.. وطريقة مشيتها التي تشبه خروج لاعب كرة قدم من الملعب انصياعًا لتبديلات المدير الفني، فقط صوتها الأنثوي هو الذي أيقظني من سؤال كيف تحلق ذقنها بهذه النعومة؟ لأكتشف لأول مرة أن وجهها جميل الملامح.

وبغير دعوة مني مشت (دنيا) إلى حجرة المكتب يتبعها

لاعب الكرة أقصد (ميادة) التي مسحت الحجرة فور دخولها بعينيها كماسح ضوئي لتطابق ما تراه أمامها بالصورة التي في مخيلتها لِما ينبغي أن يكون عليه أستوديو التصوير.

شرعت (ميادة) تجهز أرض الملعب، بينما فتحت (دنيا) حقيبتها الكبيرة لتخرج كاميرا سوداء ملوحة بها في الهواء:

- كانون ٧٠D، مستعملة لكن حالتها ممتازة، يجب أن تبدأ كبيرًا يا (سليم)، لقد وفرت لك أكثر من ٤٠٠ دولار من ثمنها وهي جديدة.

- الفيديو بقيمة محتواه وقوة السكريبت.

- وهذه هي نقطة ضعفك وهذا هو دوري لتدعيمها، أنت لا ترى بأسًا بضعف الإخراج أو بانعدام البهارات، لكن أنا أؤكد لك أن الفرق بين مطعم وآخر ليس في جودة اللحم بقدر ما هو في فن الطاهي وطريقة تقديم طبق الطعام.

وبعد أكثر من ساعتين انتهينا من تصوير الفيديو الذي لن يستغرق عرضه أكثر من عشر دقائق.

- برغم أننا سنعتمد على شهرة صفحة حنين في تسويق فيديوهاتك، إلا أن البداية يجب أن تكون مشجعة ومحسوبة، لا أحد يشاهد فيديوهات طويلة إلا لمن له أرضية من الشهرة، وبعد أن تمهد أرضية شهرتك وترصفها تستطيع بعدها أن تفتح سرعاتك وتطلق لنفسك العنان.

برغم أنني قبلت فكرة أن أصبح يوتيوبر على إكراه من (دنيا) لي، إلا أنني بذلت غاية جهدي في إعداد نصوص الفيديوهات، بصراحة؛ كانت بداخلي قناعة ما بصواب فكرتها:

- القيد الذي كنت تشتكيه في كاميرات الفضائية قد صرت حرًّا طليقًا منه في فضائك الخاص.

فعلًا كنت أُحس بأن لدي ما أقوله وبرسالة ينبغي أن أوصلها

وبصيحة أطلقها في الفضاء لكن بدون أن أمشي بعدها...

- لكن الشباب يعرفونك من خلال رومانسيات جروب حنين، وهي نفس الصورة التي أطللت بها عليهم من الفضائية، سيكون مربكًا للجميع حين تطل عليهم من اليوتيوب تتحدث عن الإلحاد.

أيضًا لم يخل كلامها هذا من وجاهة، فأن تسيء التسويق فهذا أضمن طريق لكساد بضاعتك.

وبالفعل اتفقنا على أن تحمل قناة اليوتيوب اسمي، بدأتها بسلسلة فيديوهات تحمل اسم (حنين) ونفس محتواها، وانهالت عليّ القصص – الحقيقية هذه المرة – يشكو أصحابها حالهم أو يطلبون المشورة فيه، وأسهم تركي للقناة الفضائية في رفع رصيدي من الثقة لدى الشباب الذين كانوا يدركون بحاستهم أن قصص القناة ملفقة.

كانت بداية قوية، وكانت بعض القصص تأخذ أكثر من حلقة إفساحًا لمساهمات المشاهدين وتعليقاتهم، وتلقائيًا اشترك أعضاء جروب وصفحة حنين في تلك القناة، وتبعهم عشاق الصورة ممن لا يهوون كثيرًا منشورات الفيسبوك.

ولأنني صرت المثال الحي لحكمة أن الدنيا تفتح ذراعيها للمعرضين عنها... بالضبط كما تتوقع؛ نجحت القناة وبسرعة، وفي زمن قصير كنت أتلقى من اليوتيوب درع المائة ألف مشارك، هنا قررت البدء في السلسلة الثانية من فيديوهات القناة؛ سلسلة ” الجين الميت “

- الجين الميت؟ ماذا تقصد بهذا الاسم الغامض؟

سألتني (دنيا) فأجبتها:

- ألا يدّعي دعاة الإلحاد أن الجينات صنعت وتصنع كل شيء في الكائنات الحية؟ وتتطور من تلقاء نفسها عن طريق طفراتها؟ ألا يفككون الكائن الحي إلى جينات؟ لكن الجين

أصلًا مجرد ذرات وجزيئات وروابط ذرية، تركيب ميت لا يملك لنفسه أي شيء بدون سر الحياة.

- لكن لن يفهم كل هذا إلا المختصون.

- أو الملحدون والسائرون في طريق الإلحاد، كما أنه اسم غامض ومثير للتساؤل باعترافك.

وصارت زيارة (دنيا) لي زيارة أسبوعية ولكن بصحبة (ميادة) دائمًا برغم أننا لا نحتاج وجودها أحيانًا، لا بأس إذن أن نغضب الشيطان مرتين!

ولم أكن بحاجة لكثير تحضير لسلسلة الحلقات تلك، فحصيلة سنوات من الجدال مع معشوقتي، وأكوام الكتب والكتب المضادة التي التهمناها سويًّا وقودًا لجدالنا هذا جعلتني لا أحتاج سوى الاستسلام لكاميرا (دنيا) وتضبيطات (ميادة)، الجهد الوحيد كان في أن أغالب في أثناء التصوير شعوري الطاغي بحبيبتي وأن أقنع نفسي بأنني لا أتحدث معها، وأن ألغي ذلك الارتباط الشرطي بين ذلك الحوار وبين نظرات عينيها لي حين كنت أحادثها به، وبالتالي أن ألغي ذلك الارتباط الحتمي بين ذكراها وبين دموعي... وذلك الأخير يا له من جهد جهيد.

الجديد أن عيني (دنيا) حملتا لي نظراتٍ جديدة، لم أفهمها هي الأخرى بالضبط كما لم أُجد تفسير سابقات نظراتها، فقط أحسست بعمق اختلافهما حين صارت مع الوقت تكتفي بمصافحة يدي وتمتنع عن عادتها بمصافحة خدي، حين صار لسانها يحتار بين أن يناديني بيا سليم أم بيا دكتور، حين صارت تختلس النظرات لأم رأسي كأنها تبحث فوقها عن عمامة أزهرية أو عن غترة شيخ خليجي، مع أنني في كل فيديوهاتي لا أقول: قال الله... ولا قال الرسول...؛ بل أقول قال العلم... وقرر المنطق... وأيقنت حسابات

الرياضيات...، بل لا أهاجم أصلًا نظرية التطور – أنا أذكى من ذلك – إنما ركزت على عجز النظرية بل عجز كل النظريات والتصورات والفلسفات على تقديم تفسيرٍ للوجود بدون موجد، على استحالة تصور التطور أو التحول أو التغير – سمّه ما شئت – بدون يدٍ تدير أصابعها مسرح استعراض عرائس الكائنات. ومن فنون مسرح عرائس الكائنات على الأرض إلى إبداعات فيلم مجموعتنا الشمسية إلى المسلسل الأكبر لميلاد وحياة الكون؛ تنوعت فيديوهاتي في إثبات المخرج الأوحد المبدع لهم جميعًا.

وبمرور الفيديوهات اعتادت (دنيا) ذلك الوجه مني، فعادت عيناها لما اعتدته منهما، ثم صارتا تتساءلان في أثناء التصوير في إعجابٍ؛ أنَّى لكَ كل هذا؟ قولي هو من عند حبيبتي التي ما عاندتني في أمرٍسواه!

حتى جاء اليوم الذي فتحت لها الباب في موعدها المعتاد لتدخل وحدها بدون (ميادة) واصطحبت بدلًا منها وجهًا جديدًا لم أره منها من قبل، ووقفت أمامي متسمرة لدقيقة قبل ترتمي على صدري وهي تجهش بالبكاء!

(٣٢)

- أنا أسف يا (تسنيم) على انقطاع محادثتنا المفاجئ بالأمس، أختي الصغيرة سقطت فجأة في غيبوبة، ونحن معها الآن في المستشفى.

هكذا حمل تطبيق الواتساب رسالة (شريف) لها مُنهيًا تساؤلاتها إزاء انقطاع البث المفاجئ منه.

لو كانت المحادثة الأخيرة بينهما مع شخصٍ غيره لعرفت كيف تجلده بلسانها أولًا مائة ألف جلدة جزاء رضاه عن تلك المجزرة المروعة، ثم تغسل له دماغه وتميط عن عينيه لثامها كي يفهم ويبصر ويفيق من غيبوبته. لقد استغربت نفسها وهدوءها وقت محادثتهما كأنها تشاهد واحدة أخرى مكانها تتولى عملية الدردشة بدلًا منها، واستغربت أكثر لما وجدت نفسها تحنق تجاه هذه الواحدة جرّاء هدوء ردودها ولا تلقي باللائمة أبدًا عليه هو، بل تنفست الصعداء حمدًا وشكرًا أنه لم يكن من المشاركين في الموقعة؛ ما كانت لتدريَ ماذا ستفعل به إذن ولا بنفسها!

ما تدريه الآن أن زيارة المريضة واجبة، وأن علبة أخرى من الشيكولاتة الفاخرة هدية مناسبة، وأنها يجب أن تصطحب أختها معها إذ تتحرج من الزيارة بمفردها.

وأشرقت عيناه لما رآها تخطو تجاه بهو الانتظار حيث يجلس مرافقو مرضى العناية المركزة، ونسي كل الأسئلة التي كانت تثير حيرته؛ كيف لم يجلدها مائة ألف جلدة جرّاء قبولها لذلك الاعتصام الذي كان يهدف لهدم أركان الدولة، ثم يغسل لها عقلها ويزيل الغاشية عن بصرها كي تدرك تلك المؤامرة التي تحاك ضد الوطن، ونسي لما رآها كيف كان يستغرب نفسه وقتها وهدوءه في مناقشتها... لو كانت واحدة غيرها لعلّقها من قدميها في غرفة التحقيق، ولَمَا أنبه ضميره الذي يحترق

في كل مرة يضطر فيها مرغمًا لاستخدام مثل هذه الأساليب مع أعداء الوطن!

وكالعادة تصافحا بالأعين فقط، ثم استأذنت أختها منهما لتثبت وجودها كطبيبة، ولم تستجب لتوسلات نظرات (تسنيم) لها بأن تبقى معهما كي تمنع أمطار الخجل من أن تهطل فتذيبها إحراجًا أمام أمه التي لم تكفّ نظراتها – برغم أحزانها – عن التساؤل؛ من هذه يا (شريف)؟!

وجاهد (شريف) عينه ألا تسير وراء أختها وبنطالها الضيق سعيًا لاستكشاف طبيعة تضاريسها ثم إسقاط نفس المقاسات على (تسنيم) كي يستنتج ما تخفيه بفضفاض ملابسها، واكتفى بالتعجب من تباين حجابها عن حجاب أختها، وسرعان ما انتشل نفسه من خواطرها وتولى فتح المظلة لتسنيم نيابة عن أختها، وقدمها لأمه من خلال صلة القرابة البعيدة بينهما؛ زوج أختك يا ماما شقيق زوج خالتها، وتبددت بعض ملامح الهمّ عن وجه الأم وانفرجت أساريرها لوهلة فترجمتها بقبلات النساء وأحضانهن المعتادة، فالحضن للمرأة كالرحم بالنسبة للجنين، وقبل أن تتسائل نظراتها؛ فكيف تعارفتما إذن؟ حكي لها عن الدكتور (سليم) وحفلتي صفحة حنين وعيد ميلاد (ماريا)، وتجنب بكل تأكيد أن يأتي على ذكر المطار وذكريات جواز سفرها.

- فجأة سقطت أختي في غيبوبة كأنها راحت في سبات عميق.

هكذا بدأ يسرد عليها كيف انقطع بينهما الحوار فجأة، بينما عاد الأسى للجلوس بين مقلتي الأم، ثم راح (شريف) يحكي ما حدث بعد ذلك من روتين نقلها للمستشفى والإسعافات والأشعات التي أجراها الأطباء على رأسها.

- وحتى الآن فالأطباء محتارون بين عدة أسباب للإغماء...

وهنا عادت أختها من داخل حجرة العناية حيث كانت تزاول هواية كل طبيب يزور مريضًا، فاستأذنت من (شريف) أنها تريد (تسنيم) في كلمة، وراقبهما (شريف) وهما تبتعدان عدة خطوات وتتبادلان حديثًا بدا فيه الاهتمام على ملامحهما؛ إن أختها أصغر منها، فهل تظن هذه العصفورة أنها قد فطنت لِما لم يفطن له الأطباء هنا؟

وبعد دقائق من الهمس ونظرات الفضول في عين الأم وعين (شريف)، جاءت (تسنيم) تقدم خطوة التردد وتؤخر خطوة الحيرة، ثم جلست قبالتهما وقالت:

- أختي (هاجر) بعد أن طالعت بعض التقارير لديها ما تقوله...

ثم نظرت لأختها تدفع بمقود الحوار إليها، فشبكت (هاجر) يديها وقالت في ثقة:

- لست طبيبة مخ وأعصاب، ولكني كنت في لندن منذ فترة أتمم دراسة الماجستير في رعاية عمي الذي كان يقيم وقتها هناك، تصادف وقتها أن أصيب ابن عمي الطفل بإغماءٍ مشابه، بالطبع كنت معه في كل خطوة يخطوها للتشخيص وللعلاج، وبالتأكيد لا تزال صور أشعته المقطعية منطبعة في ذاكرتي، وكذلك حيرة الأطباء في تشخيص حالته، حتى حسمها البروفيسور (والتر) وقال بأنها حالة أنيوريزم في المخ....

تبادل (شريف) والأم نظرات الرعب والاستفهام، فسارعت (هاجر) بالتوضيح؛

- تمدد في الشريان المغذي للمخ نتيجة انحباس بعض الدم فيه، هذا التمدد يمكن أن يلامس بالتأكيد بعض مراكز الإحساس في المخ فتكون هذه الغيبوبة، وفي ليلة لا أنساها في المستشفى – وكنت مرافقة لابن عمي وقتها – أخذتني سِنة من نوم ثم استيقظت على صوت تفريغ صندوق المرحاض

لأفاجأ بابن عمي يخرج من الحمام وهو يسألني ماذا نفعل هنا؟ في أقل من ساعة كان الأطباء متجمعون وعلى رأسهم بروفيسور (والتر) الذي انفرد بي وبعمّي ليؤكد لنا صدق تشخيصه، وأن الإفاقة معناها انفراج التمدد وانفكاك ضغطه عن مراكز المخ، لكنه قابل للعودة و ساعتها ستكون فرصة النجاة أقل كثيرًا وأن الجزء المتمدد قد.... ينفجر!

قالت كلمتها الأخيرة ببعض التردد وهي تراقب نظرات الهلع على وجه (شريف) وأمه، ثم استحثها (شريف) على إكمال حكايتها فأردفت:

- وقتها اقترح علينا دكتور (والتر) إجراء عملية دقيقة في المخ، كبسولة صغيرة يتم تركيبها على هذا الشريان تمنع الدم من أن يتدفق مسببًا تمدد ذلك الجزء مرة أخرى.

عاجلتها الأم بالسؤال:

- وهل أجريتم العملية؟ ألم تكن خطيرة؟

- بالطبع كانت خطيرة، وحضرتك تعرفين سمعة الأطباء الإنجليز بمشاعرهم الميتة، لقد صارحنا البروفيسير بكل مخاطر العملية، لكننا خاطرنا بإجرائها بل وكنت مرافقة لابن عمي في أثناء إجرائها، وبحمد الله منّ الله علينا بنجاحها.

رد (شريف) في ريبة:

- هل يسمحون هناك لأقارب المرضى بحضور العمليات إذا كانوا أطباء؟

- البروفيسور هو من طلب مني ذلك، قال لي: إنه بعد تركيب الكبسولة سيعمل على إفاقة ابن عمي وسيسأله بضعة أسئلة ليتأكد من أن الكبسولة لم تؤثر على أي مركز من مراكز المخ، فإن أجاب الأسئلة سيعيد تخديره من جديد لإتمام العملية، وهو يحتاجني للترجمة بيني وبينه، فالمريض في تلك اللحظات لن يتكلم سوى بلغته الأم حتى ولو كان يعيش في لندن منذ عقود.

صمت الجميع سوى من تبادل النظرات حتى قال (شريف):

- هل أنتِ متأكدة من تشخيصك؟

ردت في ثبات:

- قلت: إنني لست طبيبة مخ وأعصاب، لكني عايشت الحالة لحظة بلحظة وقرأت وقتها بسببها عشرات النشرات الطبية، أنا متأكدة أن التشابه كبير بين الحالتين، ولن نخسر شيئًا إذا أرسلنا نسخة من التقارير والأشعات للبروفيسير (والتر).

رد (شريف) وهو يفكر بصوتٍ عالٍ:

- وكيف سنتواصل مع البروفيسير؟ ربما يستغرق التواصل معه عن طريق الأطباء هنا وقتًا طويلًا، أحتاج إذن للتواصل مع الملحق الطبي في سفارتنا في لندن، سوف...

هنا قاطعته (تسنيم) وقالت:

- اترك هذا الأمر لي، فقط أحصل على النسخ المطلوبة ويمكننا إرسالها لأبي بالفاكس من هنا.. هو يعرف طريق البروفيسير (والتر) جيدًا.

وفي أقل من أسبوع كان (شريف) يطير إلى لندن مرافقًا لأخته في رحلة العلاج!

(٣٣)

تركتُ (دنيا) تأخذ حظها كاملًا من البكاء والتهنف، وكتفي تنال حظها من ماء الحزن حتى تبللت، وعندما تأكدَتْ (دنيا) أن فيض دموعها وخضل كتفي قد وصلا لنقطة التعادل أغلقت محبسها ورفعت عينيها اللوزيتين إلى عيني المتسائلتين كي تكمل عبرهم إفراغ فيض شجاها.

وعلى رشفات كوب القهوة التي طلبتها مني جلست تجتر ما جَوَاها وتُرتِّب ما سوف تقوله لي، وأنا أحترم قدسية الصمت المكلوم، ثم أخيرًا رفعت عينين كسرهما الألم لتقول:

- هل تصدق أن ماما تطلب الطلاق؟تريد بعثرة العش الهادئ بعد كل هذه السنين؟

لم أجد ما أرد به سوى نظرات الدهشة والتعاطف والسؤال الضمني فيهما؛ كيف حدث ذلك، فاسترسلت تحكي...

- لعلك تذكر ما قصصته عليك من مغامرة هجرتنا لأمريكا وكيف فشلت الفكرة، وكيف عدنا لسابق حياتنا بمددٍ من ميراث أمي التي اشترطت كتابة الشقة والسيارة باسمها، وبرغم أن أبي قد عاد لما يشبه سابق عمله إلا أن أمي تغيرت طباعها معه بل ومعنا أنا وأختي، صارت تتعامل على أنها رب الأسرة، تهمش أبي في كثيرٍ من المواقف، ولا تكف في لحظات شجارهما عن تذكيره بميراثها الذي ساعدته به وعلى إلقاء اللوم عليه وتحميله سبب فشل مشروع الهجرة. لأول مرة ألمح في عيني أبي نظرة انكسار، هذه النظرة كسرتني أنا، لم آبه لفشل الهجرة ولا لنزول مستوى معيشتنا بعض الشيء عما اعتدناه، ليست كارثة أن تصير مرفهًا بعد أن كنت مرفهًا جدًّا، لكن الكارثة عندي أن أرى الشروخ تتسرب إلى الجدار الذي أحتمي به، أن أرى الرمز المقدس مدنّسًا بالضعف، أن أرقب أيقونة الرجولة الذي كنت أغار عليه من نظرات الولهة

صديقاتي الولهة يشيخ فجأة، وبدأت أكره أمي على شدة حبي لها، وبدأت أثور على ضعف أبي وأطالبه باسترداد الراية منها... إلى هنا وكان كل همي أن يعود الملك إلى عرشه الطبيعي، حتى تناولتنا الحياة بمفاجأة جديدة؛ اكتشفنا مرض الملكة باللوكيميا، وبدأت الزهرة تذوى وتفقد شبابها، نعم شبابها، فلم يكن من يراها معنا يظن إلا أنها أختنا الثالثة؛ حقيقة لا مجاملة كما يحلو القول لبعض المغازلين، وبدأت أمي تواجه الحقيقة الوحيدة في هذه الدنيا؛ حقيقة الرحيل والزوال؛ الجمال يذوى.. العمر يمضي.. المال يذهب إلى ورثته، وهنا رأت أمي أن لها وقفة، لا يجب أن يرثني أبوكما، فتاتان مثلكما ستتزوجان سريعًا ثم تخلو الشقة لأبيكما ليتزوج فيها.

توقفت قليلًا عن الكلام ليلتقط قلبها أنفاسه وسط حديثه المؤلم ثم عادت تنفض عنه باقي همومه:

- هل تصدق؟ أمي التي كانت تتجاوز لأبي خياناته لها مكتفية بالشجار العنيف منها وباعتذارات الدمع الثخين منه؛ لا تقبل منه أن يتزوج عليها...

وسكتت لثانية ثم قالت:

- وبعد عمرٍ طويل؟

وصمتتْ كأنها تنتظر تعقيبي، فابتلعتُ ريق الحيرة ثم سألتها:

- عفوًا يا (دنيا)؛ هل كانت شجارات والديكِ معًا بسبب خياناته تحيطان بها علمًا أنتِ وأختك؟

ابتسمت (دنيا) في سخرية وهي تجيب:

- أمي عندما تغضب تخرج عن السيطرة، وأبي لا يخجل من نزواته بل ويعدها دليل سحره الذي لم تطفئه حتى عتبة الخمسين من العمر، بل إنني كنت أدهش من أمي حين تأخذنا نشوى حديثنا معها في لحظات صفائها، فأجدها تتباهى بأنها

زوجة الدونجوان الذي تحسدها عليه الحاسدات، حتى إنني أخذتني الجرأة ذات مرة من مرات أحاديث الصفاء تلك لأسألها كيف تحتمل ذلك، فقالت ضاحكة:

- لا يوجد رجلٌ قنوع في فاكهة النساء، وأبوكِ راغبٌ ومرغوب كما ترين، وطالما أن طمعه هذا لا يتجاوز النزوات فلا يعقل أن أهدم البيت بسببها فأكتفي بالثورة التي ترين.. يكفي أن أباكِ بعدها لا يرفض لي طلبًا.

ودمعت عينا (دنيا) وهي تعقب:

- وها هي تهدم البيت لاحتمال ما سيتجاوز النزوات بعد وفاتها... بعد عمر طويل بإذن الله.

عاودت ابتلاع ريقي الذي زادت درجة الحيرة فيه ثم قلت:

- لا أظن أن أمك تفعل هذا بدافع الغيرة على زوجها، أظنه – اسمحي لي – بدافع الغيرة على أموالها.

نظرت لي بنظرة نصفها غضب ونصفها حيرة، ثم انسحب الغضب مستسلمًا وقالت:

- لو كان المال هو دافعها لسجلت الشقة لي أنا وأختي ووزعت علينا نقودها.

- وتترك نفسها في العراء؟ في انتظار أجلٍ لا يعلمه إلا الله؟

- وهل طلب الطلاق هو الحل المنطقي؟

- أظنه رد فعل عاطفي من صدمة مرضها.. تقلب المائدة على زوجها، ذكرها المرض فجأة بكل سابق مغامراته، لسان حالها لن أتركك تتمتع بشقتي ومالي من بعدي، بعض بل كثير من الزوجات يُحملن أزواجهن مسئولية أي شيء يحدث لهن حتى المرض.

ردت بحدة تؤكدها سبابتها الممتدة في وجهي بينما الدموع لم تجف في عينيها بعد:

- هي تريد قلب المائدة؟! سأقلبها أنا لها مقدمًا!

سألتها بتوجس:

- وكيف ذلك؟

أشاحت بزاوية وجهها وهي تقول:

- هي فرصة أن أدبر لي مكانًا وسأترك لهما البيت..

ثم أعادت عينها لتلتقي بعيني كي تتبادلا خيوط الدهشة ثم عقبت:

- لو كانت شقة (مها) أكبر لانتقلت للعيش معها، لكن بعد انتقال (لبنى) للعيش معها بعد طلاقها قد صارت الفرصة أصعب إذ...

قاطعتها مندهشًا:

- ماذا؟ (لبنى) تطلقت؟ وتعيش الآن مع (مها)؟ متى؟ وكيف؟ ولماذا؟!

نظرت إليّ بطرف عينٍ ضيقة:

- مفاجأة سعيدة، أليس كذلك؟

- وما وجه السعادة في أن أرى حياة صديقتنا تتصدع؟!

سددت إليّ نظراتٍ ذات مغزى واكتفت بابتسامةٍ صفراء، فنفخت متأففًا:

- (دنيا) رجاءً، قد كانت (لبنى) أمامي من قبل، وأنتِ تعرفين نظرتي تجاه أربعتكن.

ردت بنفس الابتسامة:

- الحلوى لا ننتبه لحلاوة طعمها أحيانًا إلا حين تصبح بين شفتي سوانا.

رددت لها نفس الابتسامة ولكن ببرود مصطنع ثم قلت بعد ثوانٍ:

- والآن هل ستخبريني بشأن (لبنى) أم نعود لموضوعك؟

زادت من اصفرار ابتسامتها وقالت:

- أيهما يروق لك الحديث فيه؟

نفخت في تبرم وقبل أن أنطق غاضبًا تداركت هي وضحكت لأول مرة وهي تقول:

- حسنًا حسنًا؛ سأتلو عليك نبأ (لبنى)، مع أنني أتعجب كيف لم تدرِ لا منها ولا من (مها).. المهم؛ أنت تعلم – أو ربما لا تعلم – بتفاقم مشاكل (لبنى) مع زوجها بعد تسريحه من القناة، ومن قبل ما كانت تعانيه من الشيطانة ابنته، باختصار صارت حياتها كابوسًا، يضاعف من وطأته أنها لم تكن لتطلب من أمها أن تعود للحياة مع أسرتها..

ثم استعبرت (دنيا) وهي تسقط حال (لبنى) على حالها:

- ما أصعب أن تشعر بألا متسع لك في حضن أهلك.

ثم تداركت دموعها وهي لا تزال بين أحضان رموشها وأكملت:

- كانت عودة (لبنى) لأمها وزوج أمها ضربًا من المستحيل يحتاج قدرًا لا تملكه (لبنى) من النطاعة، فبقيت هكذا كالعالق في مطار دولة أجنبية لا تزيد عن الشكوى والرثاء لحالها، حتى ألقت إليها (مها) بفكرة أن تأتي لتعيش معها هي وابنتها بعد طلاق (مها) هي الأخرى.. يبدو أن الجميع صار يطلق هذه الأيام.. فتتشاطران سويًّا نفقات البيت، المؤلم أن (ياسرًا) كان كمن ينتظر أن يأتي طلب الطلاق من لدن (لبنى) فأجابها لطلبها من فوره... ما أبشع أن تدرك أنك كنت ضيفًا ثقيلًا وأنت لا تشعر، فما إن تبدُ أول بادرة استئذانٍ منك حتى يبادر أهل البيت بأن يطالبوك بغلق باب الدار وراءك... لقد صارت (لبنى) تستعبر كلما فكرت أن (ياسرًا)

كان يستنطقها الطلاق وهي لا تُحس، لعل إحساسها بالرثاء لكرامتها هو ما منعها أن تقص عليك خبرها..

وصمتت لثوانٍ وهي تنظر إلى عينيّ ثم قالت:

- ألا تظن ذلك؟

لم أنتبه لسؤالها فقد شردت في حاليهما – مها ولبنى – وكيف تتدبران معيشتيهما، وهل يجب عليّ أن أشركهما في أرباحي الجديدة من فيديوهات اليوتيوب برغم أنهما لا تشاركان في فعل شيء فيه وبرغم أنه لا يزال ربحًا ضئيلًا... وأفقت على عينيّ (دنيا) تنتظران مني إجابة فبادرتها مغيرًا اتجاه الحديث:

- (دنيا)؛ لا تدَعي صدمتك من موقف أمك تدفعك لفعل ما تندمين عليه.

هزت رأسها في غير مبالاة وقالت:

- لا تشغل بي بالًا، فسأكون بخير...

ثم قامت من مجلسها مغيّرة مجرى الحوار وهي تقول:

- هل انتهيت من إعداد النص الجديد للتصوير؟ ..

وأخذت تجول في الشقة براحتها – كالعادة – وهي تقول:

- أريد تغيير مكان و خلفية التصوير يا (سليم)، التغيير من أبجديات جاذبية الفيديوهات، وأنت شقتك واسعة وفيها أكثر من ركنٍ مناسب لما أريد.

ثم استقر بها التطواف لاختيار غرفة المعيشة للتصوير، فشرعت تنصب فيها خيمة أدواتها، ثم سألتني:

- (سليم)؛ هل تعرف تطبيق Airbnb ؟

- اها.. بالطبع.

- لماذا إذن تعيش في هذه الشقة الكبيرة وحدك؟ ألم تفكر

في تأجير غرفة منها عن طريقه؟ المنطقة هنا ملأى بالأجانب وبعضهم بالتأكيد يبحث عن شقة يشارك فيها كشقتك.

- أعتقد أنني صرت أميل للخصوصية فلا أظن أنني سأسعد كثيرًا لمشاطرة الأجانب لحياتي، خصوصًا وأن أغلبهم إقامات مؤقتة وسأجد كل بضعة أشهر ضيفًا جديدًا بطباعٍ جديدة ونظام حياة مختلف.

- هذا عيبك أنك لست اجتماعيًّا ولا مغامرًا يا دوك.

- كما قلت لكِ.. ألفت الخصوصية.

- إذا كنت لا تحبذ المستأجر الأجنبي المتغير والذي قد لا تأمن طباعه، فهناك من المصريين من قد يرغب في استئجار غرفتك لمدة طويلة.

مططت شفتاي للأمام في غير تحبيذ وقلت:

- لست بتلك الحاجة للمال الذي يأتيني من تأجير غرفة منزلي، خصوصًا وأنني قد بدأت أعتاد الوحدة...

ثم ابتسمتُ قائلًا:

- وهذا المستأجر الجديد قد يعوق وجوده تصوير فيديوهاتنا.

ضحكت مجيبة من فورها:

- إذن يمكنني أن أستأجرها أنا! ويكون ذلك حلًّا لمشكلتي مع أمي أنا أيضًا.

تفاجأت مفكرًا إن كان كلامها مزاحًا بعفوية الموقف أو هو عرضٌ حقيقي منها، لا.. لا أظنه أبدًا ذلك العرض الشديد الجرأة، إنها في الفترة الأخيرة صارت لا تأتيني إلا بصحبة (ميادة) بالرغم من عدم حاجتنا لمجهوداتها إلا بعد انتهاء التصوير، وما جاءتني اليوم بدونها إلا لكي تعتصر دموع شكواها فوق كتفي بدون إحراجٍ من صديقتها، ثم ها هي اليوم تضبط مكان التصوير الجديد بدون الحاجة لوجود (ميادة) ولا

لتعليماتها، فإبتلعت ريقي وأجبت بنبرات حيادية:

- الشقة تحت أمرك يا (دنيا) بدون أي إيجار.

نظرت في عينيّ بعمق ثم تحولت نظراتها لنظرات دهشةٍ شبيهة بالاستنكار، ثم قالت ضاحكة:

- ماذا؟ لا شك في أنك تمزح، لقد كنت أضاحكك فكيف صدقتني.

أسعفتني الخاطرة فأجبت مبتسمًا:

- وأنا أيضًا كنت أرد مجاملة.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة لا أدري إن كانت حقيقية أم مغتصبة ثم قالت:

- هيا نبدأ التصوير إذن؟

(٣٤)

بالتأكيد أنت تذكر الحوار الذي دار بيني وبين (تسنيم) عن خط المحمول ذلك الذي لا أستعمله إلا لسماع صوت حبيبتي. . . تقول آلو ولا تزيد، وأسمع أنا الكلمة ولا أعقب. . . ونظل هكذا في حضرة الصمت لعدة أمتار من الوقت حتى يغلق أحدنا الخط.

هل هي تعلم أنه أنا؟ بالتأكيد تعلم

ربما هي تظن؟ لا أدري صراحة

و إلا فلماذا تجيب على اتصالي في كل مرة؟ وأنا أهاتفها في موعدٍ ثابتٍ كصلاة حبٍّ أسبوعية؟

لو لم تكن تظن أنه أنا فلماذا ترد على الهاتف؟ وإذا كانت تعرف أنه أنا فلماذا أيضًا تجيب الاتصال؟

لعلها لتطمئنني بأنها لم تصبح لأحدٍ غيري؟ أين إذن كلامها عن الجنس الذي كالطعام – من جاع أكل – وعن نسبية العفة؟

لو كانت حقا تؤمن بالحب لأدركت أن قبسات نوره لا تأتي إلا من فيض مشكاة إلهية، وتستعصي أبسط خلجاته على كل فرضيات تطور المادة وجهود إثباتاتها.

- كيف لا تدركين حتى الآن أن أبسط خلجة شعور لا يمكن أن تتوالد من الآلة ولو كانت آلات الأرض بعضهم لبعضٍ ظهيرا؟

أقول لها هذا الكلام في كل اتصال دون أن أنطق، لكن أنا متأكد أنها تسمعه ومتأكد أنها لا تملك ردًّا عليه، لو كانت تملك جوابًا لأجابت، ولو أجابت لسمعت حتمًا جوابها حتى ولو لم تنطق به.

لماذا إذن توقفت عن إجابة اتصالي منذ أكثر من شهر؟ ولماذا لا أتخلف أنا عن موعد صلاتي برغم أنني صرت أجد

المعبد مغلقًا كل مرة؟ ولماذا هي تنطق هذه المرة؟ ما هذا إنه صوتها! لا.. إنه صوت أمي.. أقصد صوت حماتي.. أعني صوت أمها...

- (سليم)؟..هل أنت (سليم)؟.. إذا كنت هو فسلوى تحتاج لأن تراك!

تجمدت أنفاسي من الذهول المكعب؛ سلوى وأمها وتريد رؤيتي؟

توقف عقلي عن التفكير فأصدر أمره اللاإرادي لأصابعي بغلق الخط، ولما أعياه التفكير ترك لقلبي حرية التصرف بعيدًا عنه، فأمسكت بخطي الأصلي وهاتفت سلواي.

لم ترد فعاودت الاتصال.. أقول لك قد ترك لي عقلي حرية الاختيار بدون استشارته.

فتح باب المعبد هذه المرة، لكنه مظلم خاوٍ كئيب على غير عادته، أين كاهنه؟ لا أجده، تلفتّ أبحث عنه بصوتي؛ آلووو... إن كان قد ألحد في حبه لي فلماذا فتح لي الباب؟

وجاءني صوت الكاهن من بعيد واهنًا، حتى إن أذني ما عرفته ولكن أدركه قلبي:

- هل حقًّا تريد أن تراني؟

- اسألي عني معبدك تجيبك صلاته أنني لم أتخلف عن موعدها الأسبوعي حتى ولو كان موصدًا بابه.

- ما أوصد بابه إلا لأنه كان مغلقًا للعلاج!

- أكان يطلب العلاج كي يتعافى من ناسكه الوحيد؟

- بل معبدك قد نخر السوس أركانه في صمتٍ وهو لا يدري، حتى أفاق على إعلان الأطباء له بفوات أوان ترميم عمدانه!

ألجمني الذهول عن التنفس فأجهزت عليّ قائلة:

- إن هي إلا شهور – بحسابات الطب – وتغيب شمس صلاتك إلى الأبد!

ولم يرد لساني ولكن سقط عقلي في إغماءة طويلة.

(٣٥)

اطمأن (شريف) على جراحة أخته إذ كللت بنجاح، لقد أصر أن يكون هو مرافقها في غرفة العمليات بالرغم من اعتراضات البروفيسور (والتر) رفقا بعاطفة الأخوة، فاكتفى (شريف) بأن أخبره بأنه ضابط أمن قومي فله إذن برود أعصاب ولا جراح بريطاني.

لا يكف عن اختلاس نظرات الامتنان لوالد (تسنيم) الذي أصر على مرافقتهم حتى في أثناء العملية رافضا كل تعبيرات الشكر من (شريف) أو من والدته؛

- إنني فقط أرد لك جميلًا أسديته لـ(تسنيم) ابنتي ذكرت لي أنه كان مجاملة كبيرة مع أنها لم تخبرني شيئًا عن تفاصيله.

تبهرني هذه الفتاة (تسنيم).. قال (شريف) لنفسه.. نعم هي فتاة بروحها بل طفلة، لكن طفولتها تخبئ ذلك العقل الراجح إذ لم تخبر حتى أبيها كيف استعدتُ لها جواز سفرها.. أو لعلها أخبرته والرجل من الفطنة بحيث لا يأتي على ذلك الأمر ذكرًا، هذه هي طبيعة الإخوان من الحرص الماكر، لكن طمعهم أوقعهم في سوء أعمالهم.. مهلا فالرجل ليس منهم، أو ربما هو منهم، لكن طبيعة عملي علمتني ألا أحاكم تصرفات الناس بالقطعة، وألا شيء مستبعد، وأن لكل وقتٍ أذانًا، والآن أذِن الوقت بأن أعود لعملي بعد أن اطمأننت على أختي تاركًا إياها في رعاية والدتي حتى يأذن لهما البروفيسير باللحاق بي.

وأصر (شريف) على والد (تسنيم) بأن يحمله ما شاء من هدايا لأسرته ولا يحمل للحقائب همًّا فلا وزن عليه في المطار ولا جمارك، وبالفعل حمّله الرجل حقيبتي سفر حرص (شريف) على تفتيشهما جيدًا قبل حملهما معه إلى المطار برغم تأكده من سلامة طوياتهما، لكنه ضابط المباحث الذي في داخله.

في الحقيقة فإن الهدايا كانت حجته لزيارة بيت أسرة

(تسنيم) بالرغم من تردده في زيارة كهذه، لكنه منذ تعرف بصفحة حنين وبمشرفاتها اعتادت بدلة حرصه على إهماله لارتدائها.

هذه الأسرة تركيبة غريبة حقآ.. قال (شريف) في سره وهو يجلس في بهو استقبال الضيوف الشاسع الأرجاء..

فالأم عادت لارتداء النقاب بعد سفر زوجها الاضطراري للندن، وبينما ملابس (تسنيم) وسط بين نقاب الأم وبنطال أختها (هاجر) فإن الأخ الأصغر الذي استقبلني بوصفه رجل البيت الوحيد برغم حداثة سنه، فإن حداثة عمره كانت عنوان الحداثة في كل ما فيه؛ من بنطاله الممزق إلى شعره المعقوص خلف رأسه.. أستطيع أن أخمن نعومة شعر (تسنيم) من نعومة وكثافة شعر أخيها.

وأقبلت هي، يجري (حسين) بين رجليها، وتعمدت ألا تلتق عيناها بعينه إلا لثانية واحدة كأنها تخجل من نظرات الامتنان الناضحة من عينيه، أو لعلها تتحاشى رادارات الأم المخبأة في فرجة النقاب الضيقة، أو حتمًا لتواري نظرات عينيها البريئة التي لا تجيد المداراة؛ ألم نتفق أنها لا تزال طفلة؟

وبذلتْ جهدًا مضاعفًا لمداراة كل ما سبق حين ناولتها يده علبة ملفوفة بأناقة، وهو يبتسم ويقول:

- الشيكولاتة لا ترد!

(٣٦)

هرعتُ إلى المستشفى دونما اعتبار لتلميحات الأم لي بأن أختار من أوقات الزيارة ما تكون فيها وحدها برفقة ابنتها تفاديًا لأية إحراجات من تلقائيةٍ في مشاعر اللقاء بين الحبيبين؛ ستلامس قلب الأم لكنها ستمس غيرة الأب ونخوة الأخ.

لم ألق بالًا لأختام ورقة الطلاق وأنا أرتمي إلى يدها أقبلها، ولا هي ألقت بالًا لأحدٍ وهي تربت على رأسي بيدها الثانية في حنان، ولم تلقِ دموعنا اعتبارًا لأي شيء إلا لعهود هوانا الأولى ولصكي العبودية اللذَين تبادلنا التوقيع عليهما، ثم حطمنا قيود كل الاعتبارات حين احتضنت جسدها الذي أوهنته جلسات العلاج الكيماوي وغبنا عمن سوانا فلم نشعر لا بدموع الأم ولا بيد الأب وهي تتدارك فوران دم الأخ وتجره لخارج الغرفة.

رفعت عيني إلى عينها وأنا لا أزال أسند جسمها من أن يتداعى مني مستلقيًا على ظهر المرض، ثم قلت بخلجاتٍ باكية:

- سأرسل في طلب المأذون.

هزت رأسها برغم ما فيه من ابتسامة واهية وقالت:

- لا فائدة يا (سليم)، العد التنازلي قد بدأ بالفعل والصفر آتٍ بأسرع مما يظن الجميع.

شققت هواء الغرفة بأصبع الرفض بحدة ولساني يردد في تحدٍّ وبكاء:

- لن أسمح للصفر بأن يأتِ مبكرًا.. سنبطئ العد التنازلي سويًّا.. لن أترك غيري يمرضك.

ابتسمت بمشقة من جديد وقالت:

- ألا يجوز التمريض إلا بأختام ورقة المأذون.

تبادلت أنا والأم المنافسة في حرارة الدموع، حتى وجدت أصابعها تقبض على يدي في تساؤل، فالتفتت عيون الحب مني أن لبيكِ قلبي، فسألتني:

- (سليم)... ماذا بعد رقم الصفر يا (سليم)!

(٣٧)

لست أدري كيف كنت سأواجه الحياة بعد طلاقي من (خالد) بدون وجود (لبنى) معي.

صحيح أن الخصوصية قد تراجعت مساحتها كثيرًا، لكن إحدانا تحتمي بالأخرى في مواجهة رياح الغلاء المتصاعد بلا رحمة عبر اقتسام الشقة سكنًا وإيجارًا ومصاريفَ .

بجانب دخلنا من صفحة (حنين) فأنا عدت بمشقة وبعد أن استعملت كل ما في مخزني من شِباك العلاقات إلى سابق الكم الذي كنت أقوم بتحرير نصوصه من الحلقات الإذاعية والتلفزيونية، سبق أن أخبرتك أن ذلك العمل ككراسي المواصلات داخل المدن المزدحمة، هذا بجانب دروس المواد الاجتماعية التي تعرف أنني أعطيها لطلبة المرحلة الإعدادية.

أما (لبنى) فقد عادت لتعطي دروس المحادثة بجانب عودتها للعمل في مطعمها الأول السابق عملها فيه، بعد تجربة أو اثنتين قررت أن تقصر دروسها على النساء والأطفال! بعض الدروس تكون في منزل الطالبة وبعضها هنا في البيت، اختارت أن تعطي الدروس صباحًا بزعم ألا تشوش على (ماريا) في مذاكرتها المسائية، برغم أنني أعطي الدروس مساءً في بيتنا بدون حدوث ذاك التشويش، لعلها حساسة بعض الشيء، أو لعلها فضلت ذلك المطعم المسائي على دوام المقهى الصباحي فزبائن المساء أكثر عددًا وأوفر مالًا.. لا لوم عليها إن طرقت للزواج كل باب، لا تثريب عليها ولا عليّ، فأنا وهي نعلم أننا محطة استراحة في طريق حياة كل من الأخرى.

- حتى متى يا (مها)؟

هكذا سألتني ذات عشية ونحن نقلب بين شاشات الفضائيات بغير هدف سوى استراقِ لحظاتٍ من ممارسة الكسل اللذيذ بعد ماراثون الحياة اليومي، نظرت إلى عينيها

المترعة بالتساؤلات فأجبتها:

- حياتي بدونك يا (لبنى) مع سعار الأسعار كانت إلى المستحيل أقرب، بدونك كنت سأضطر لترك هذه الشقة برغم أنها من الشقق الزهيدة الإيجارات في القاهرة الجديدة و انتقل إلى منطقة هي إلى الشعبيات أقرب ، أنا حتى اللحظة وبرغم كل الدفء في علاقتي بأسرتي فإن ديني المختلف عنهم أشبه بالشرخ في الزجاج؛ لا يمكن إصلاحه ولا تجاهله، أتمزق حين أرى في عين أحدهم نظرة؛ انظري ماذا فعل بكِ الزواج من مسلم. . . لا أتصور أن يأتي يومٌ أحتاج فيه لنقود أبي أو تعوز (ماريا) النفقة من أبيها.

ابتسمتْ في حنان وقالت بامتنان:

- بل أنتِ من كنتِ سترة النجاة لي بعد أن تحطم بي قاربا الزواج والأهل، لكن ما هذا قصدت، بل أعني ماذا عن الغد؟ نحن نكسب ما يستر يومنا في المستوى المعيشي الذي اعتدناه و نحافظ به على شكلنا الاجتماعي الذي اعتاده الناس منا، لكن ماذا إن قلّبت لنا الحياة وجه الطوارئ أو المرض؟ ماذا عن (ماريا) التي تتمنى أخًا أو أختًا، بطني اشتاقت لركلات جنينٍ تؤلمها الألم اللذيذ، أين ندى الحب يسقي زهرتين تدبلان في صحراء الشوق والحرمان، وبندول الساعة يمضي متأرجحًا غير آبه بينما دقاته كنخر السوس في عظام الشباب.

لم تمس كلماتها قلبي بشيء جديد، إذ إن أوتاره تعزف نفس لحن التشاؤم.

لذلك كنت أرفأ بحالها وأتغاضى عن تبرجها المتزايدة مساحته يومًا بعد آخر، ذلك التبرج الذي صار يقلقني على حالي أنا؛ فإذا كانت هذه الفرسة تعدم لها فارسًا برغم اكتمال روعة "هذيبها وخببها وتبخترها «، فأنَّى لي أنا بذلك؟

- (لبنى)؛ بربك كيف لا يجد هذا الجمال من يقدره برغم أنكِ لا تبخلين به عن العيون؟!

قهقهت بغنج ثم تلاشت إلى الأسى ملامحها وهي تقول:

- ذلك يعتمد على تعريفك لكلمة تقدير، هذه أيام عقود الإيجار لا عقود التمليك، وبرغم أن طعام البيت أنظف وأرخص لكن '' التيك أواي '' هو ثقافة رجال اليوم.

دق قلبي بخيبة الأمل وأجبتها:

- لعلك تبالغين كثيرًا أو حتى قليلًا، فلن تعدم العصفورة عصفورًا يخطبها إلى عشه.

- العصافير موجودة والأعشاش كثيرة، لكنها إما بعقد زواج عرفي أو تحت ستار المسيار، أو يأتيكِ طلب الزواج الرسمي لكن من تاجر ممن يطلق عليهم لقب المعلّمين ممن يجعلني منظر أحدهم أتساءل كيف ستحتضنني يداه بينما سيحول بيننا هذا الكرش الهائل الذي بالكاد يجعل أصابعه تلامس سرة بطنه.

سألتها متعجبة:

- جاءتك كل هذه الطلبات من الزواج؟

- لا يكاد يمر أسبوع أو أسبوعان بدون طلبٍ جديد لا يخرج عن القوالب السالفة، وهؤلاء هم المحترمون الذين لا يطلبون المتعة السريعة، أما طالبو التيك أواي فحدثي ولا حرج.

- ياااه يا (لبنى)... كان الله في عونك يا بنتي، لكن لا تلوني نظارتك باللون الأسود، لعل هذا هو الجو الغالب على المجال المحيط بكِ في عملك، عصفورة حلوة مثلك ستجد عصافير طيبين إن طارت فوق أشجارٍ أخرى.

قهقهت من جديد وهي تقول:

- في رمضان القادم سأواظب إذن على صلاة التراويح بل

والتهجد أيضًا في الجامع القريب. . .

ثم استدركت وقالت:

- وإن كانت أحوال المساجد وإقبال الناس على تراويح رمضان هذه السنوات كما تعلمين من بعد الثورتين.

لم أبادلها الضحك وإنما بادلتني هي الصمت، ثم شققتُ هواء السكوت وقلت:

- يلوم الرجال امرأة اليوم إن استرجلت، وما استرجلت النساء إلا يوم تخنثت الرجال، يدعي الشباب أن بنات اليوم لا يصلحن ربات بيوت وينسون أنهم هم قبلنا ليسوا للبيوت أربابًا.

- لا تقسَي في حكمك، حال الشباب اليوم أنه بالكاد يعول نفسه.

- بل كثيرٌ مِن الرجال بل ومِن الشباب مَن يستطيع أحدهم فتح بيتين وثلاثة، لكنهم يرفعون شعار الإضراب عن الزواج، والحجة أن لم نعد نثق في أخلاق النساء وكأنهم هم أولياء الله القديسون.

أمّنت على كلامي معقبة:

- أو من لا يزال يعيش بعقلية سي السيد ويريد له زوجة لا أقول كأمه بل كجدته؛ لا تكلم زوجها إلا همسًا وإن نطقت فبكلمات السمع والطاعة.

رددت عليها بسخرية:

- فليطلب إذن من أمه أن تذهب إلى عصر جدته لتخطب له.

عدنا لمشاهدة التلفاز بنصف عقل وربع تركيز قبل أن أقول:

- أتدرين يا (لبنى)؛ المرأة مظلومة في كل وقتٍ وحين، جداتنا كن لا يحملن همًّا لزواج والذي كان نادرًا ما يتأخر، ولا خوفًا من طلاق والذي نادرًا ما كان يحدث،الأهم أنهن كن لا يحملن همًّا للحياة؛ تعلمت أم لم تتعلم، سمنت أو ترهلت، فقط

كانت تغتم إذا تأخر الإنجاب، حتى المستقبل كنّ لا يخشينه فمن تربية أبيها إلى بيت زوجها إلى كفالة ابنها، والأخ والعم والخال من وراء ذلك ظهير... لكن في المقابل كانت كقطعة الأثاث في البيت، أشبه بمديرة المنزل وأحيانًا بالخادمة، حياتها مختزلة بين جدران البيت وأطفاله، كأنها حبيسة كهف ولا تتصور أصلًا أن هناك في الدنيا ما يدور خارج هذا الكهف...

- كهف من الأمان أم سهل من القلق والشقاء؛ أيهما تفضلين يا (مها)؟

- ألم أقل لكِ: إن المرأة مظلومة دائمًا؟

- لو أنصفنا فالرجل أيضًا في وادٍ من الكَبَد، ولا يمتلك رفاهية كهف الأمان كبديل، هو دائمًا مطالب بالسعي والمبادرة..

ثم ضحكت ضحكتها الغنجة والتي أخشى أن تندّ منها ذات مرة أمام (ماريا) فتحاول تقليدها، ثم أكملت:

- حتى في الفراش فالرجل هو المطالب بالكبد والمبادرة.

بادلتها بالضحك وقلت:

- لا تصبري على حالك هذا يا (لبنى) بادري بالزواج في أقرب فرصة حتى ولو من أحد أولئك المِعلِمين ذوي الكروش الضخمة!

واقشعرت ملامحها في اشمئزاز كوميدي وقضينا باقي السهرة في الضحك والمرح والرقص لنغير لون الهموم الذي يلون لياليا، رافعين شعار؛ تبًّا للرجال!

تبًّا للرجال جميعًا عدا أخي.. برغم أنه مُضربٌ عن الزواج بسبب عقدته من صديقه الذي يقاسي الأمرّين في زواجه ولا يستطيع الطلاق لأنه ببساطة ليس عند الأقباط طلاق.

تبًّا للرجال عدا (سليم) برغم أنه يضيع زهرة عمره محبوسًا

في قفص حبه القديم ويأبى أن يفتح جفونه ليرى حوله أربع زهراتٍ يانعاتٍ.

تبًّا للرجال عدا الشهم (شريف) برغم أنه إما أحمق مثل (سليم) وإما زير نساء مثل أخي.

بل تبًّا لهم جميعًا.. تبًّا لكل الرجال عدا أبي، و....

عدا (عمر)

(عمر)؟

هل هذا (عمر)؟

يفصل بيني وبين ذلك القادم في مواجهتي قرابة السبعة محلات في رواق المول الكبير و...

- مها؟

- عمر؟

- يااااه يا مها!

(٣٨)

لم أصدق أن عقل حبيبتي الذي طالما عاندني – وأنا منه من أنا – يمكن أن يدخل في مراجعاتٍ فكرية من تلقاء نفسه. صحيحٌ أنها مراجعات بغير نتيجة حتى الآن، لكني لم أشأ أن أقاطع استرسالها وهي تحكي لي حكايتها، وعاهدت نفسي وحبي ألا ألبس مسوح الناصحين حتى يأتيني طلب الموعظة منها، فمضت مسترسلة تحكي:

- أول ما صُدمت بخبر المرض قفز إلى خاطري أول ما قفز فكرة أن هذا المرض عقاب الله لي على إلحادي، ثم ما لبثت أن سخرت من الخاطر وقلت: لو كنت امرأة مؤمنة عابدة قانتة لقلت: إن هذا المرض ابتلاء الله لي وامتحان إيماني.

ثم انتبهت...

الله أول خاطرٍ برغم النقيضين، هل هذا لأننا مجتمع وأمة يملأ وجدانها خطاب الدين؟

وبدلًا من أن أفرغ عقلي لهموم مرضي وعدِّ أيامي المتبقية وجدتني أبحث عن جوابٍ لهذه الخواطر

الكل يفكر في الله... هذه خلاصة ما وصلت إليه..

الكل يفكر فيه بصورة أو بأخرى أو بنقيض كل الصور..

حتى الفيلسوف الملحد يُشغل عقله أكثر ما يُشغله بكيف يثبت عدم وجوده..

كيف يمكن إذن لفكرة (الله) أن تكون هكذا بكل هذا الوضوح والإلحاح حتى في عقول من لا يؤمنون به؟

ومضيت أسترجع كل نقاشاتنا وأعيد مطالعة كل كتبنا التي قرأناها معًا..

ثم اخضب حياءً وجهها المُصفر إنهاكًا من تأثير العلاج

الكيماوي وقالت:

- وواظبت على متابعة فيديوهاتك برغم أن لا جديد فيها عما سبق لنا الجدال فيه، لكني صرت أسمعها بأذنٍ مختلفة، وسألت إلحادي عن رأيه فيما يسمع فأجابني أن لست أدري..

عدت لاأدرية كما كنت أول مرة أعيدها.

ومع تواصل العلاج بلا فائدة سوى غريزة التمسك بقطار الحياة تحولت إلى سؤالي السابق لك:

ماذا بعد صفر العداد يا (سليم)؟!

لم أتخيل كيف أنني – بعد عمرٍ قصير – سأقفز قفزة كبرى إلى اللاشيء، هذا الجسد سيتحلل ولكن ماذا عن الروح؟ أين ستذهب؟ لا يمكن أن تختفي هكذا عدمًا، الجسد سيتحلل إلى عناصر تذهب غذاءً إلى عناصر أخرى في دورة حياة مختلفة، حتى الطاقة تتحول من صورةٍ إلى أخرى ولا تفنى ولا تستحدث من عدم، أليس هذا هو القانون الأول للعلم الذي أؤمن به؟

ولأول مرة أنتبه إلى مغالطتي الإيمانية؛ إيمانٌ بالعلم؟إذن فقد حولته إلى دين، العلم متغير أو متطور والإيمان يكون بثابت، إذن فأنا لست مؤمنة بشيء، أنا تائهة توهان الذرة التي لا يعرف لها العلم صورة حتى يومنا هذا.

أتدري يا (سليم)؟ هذه هي معضلة العصر؛ لا يعرف له أساس ثابت يبني عليه ولا مرجعية يرتكز إليها.

نظرت إليها في حنان وأجبتها بدموع عيني:

- أنا ثابتك وقلبي أساسك وحضني مرجعيتك.

أشاحت بوجهها الذي زاد اختضابه حتى كاد ينسى صُفرته، فأمسكت بذقنها في لطف ألوح وجهها إلى مكانه الطبيعي؛ بين ناظري:

- لماذا تحجبين الشمس عن عيني وقد انقشعت سحابة

الصيف عن سمانا؟

اغرورقت بدموعٍ وقالت:

- لا أحب نظرات الشفقة وإن لم تنظرها.

- أفلا تشفقين على حالي – الذي تعرفين – من بعد فراقك؟

ابتسمت وقالت:

- وما أدراني بحالك؟

بادلتها الابتسام وقلت:

- هل تنكرين أنكِ كنتِ تتابعين صفحتي كما تابعتِ فيديوهاتي؟

زادت في الابتسام إلى ما وسعته شفتاها وقالت:

- أكذب إن أنكرت، وأكذب إن زعمت أنني ما كنت أغار عليك من عضوات الصفحة..

ثم غابت ابتسامتها قليلًا وقالت:

- وخصوصًا من مساعدات صفحتك.

قهقهت لأول مرة ثم ربتّ على رأسها وقلت:

- يشهد الله أنني ما خنت عهدًا للهوى.

فابتسمت في حياء وتبادلنا نظرات الرضا، ولست أدري كيف أحسّت بالسؤال الذي في عيني رغم مطاردتي له عن عقلي، فأمسكت بيدي وقالت:

- أقسم بصك عبوديتي لك والذي وقعته بدمي قبل قلمي أنني ما عرفت قلبًا سوى قلبك ولا حتى عينًا سوى عينيك.

قبلت رأسها في حنان ثم سألتها ونظرات المكر في عيني:

- أتقسمين بالله؟

ردت في جدية ووجل:

- لم يأنِ الأوان بعد يا (سليم).

ربت على يديها ألا بأس. سكتت لدقيقة ثم سألتني:

- إذا كانت فكرة الله بكل هذا الوضوح والإلحاح، فلماذا هو ذاته غائب عن عالمنا، لماذا لا يظهر لنا واضحًا وضوح الشمس؟

(٣٩)

لا محظوظٌ في الزواج ولا في الحب ولا حتى في الصيد والشقط!

حدّث (شريف) نفسه ساخرًا

إذا كانت ابنة سيادة المستشار قد ربتها أمها على تكون امرأة قوية مستقلة، فكان يجدر بها ألا تزوجها لضابط أمن وطني، أو على الأقل أن تتحراه ضابطًا يقبل أن تعامله زوجته معاملة الرأس بالرأس، ويا ليتها كانت تفهم أنها معاملة الند بالند بل كان شعارها – وقت أن كنّا أزواجًا – النساء قوامون على الرجال بما فيهن من عنادٍ وصوتٍ عالٍ وقدرة غير نهائية على الجدال حتى يرضخ لها الرجل إنقاذا لما تبقى من حريق أعصابه.

كدت في أكثر من مرة من مرات عراكها المصحوبة بصوت سارينة النجدة أقصد بحنجرتها المجلجلة أن أمسك برأس هذه السارينة فأهشمها في الأرض وأدكها بقدمي حتى يخمد صوتها، لكني كنت أتراجع في اللحظة الأخيرة شراءً لخواطر سيادات المستشارين من آبائها وإخوانها، والأهم لأنني أيضًا كنت أشك في قابلية تلك السارينة للكتم مهما تبعثرت أشلاؤها، وكنت أضحك رغمًا عني وأنا أتخيله مشهدًا كرتونيًّا أقوم فيه بدش السارينة في الأرض فتتناثر إلى عشرات الأشلاء فإذا بكل شظية منها تتحول إلى سارينة منفصلة يجلجلون جميعًا، كنت أضحك فتتقافز هي في الهواء غيظًا مما تراه برودة أعصابٍ مني.

- أنت تريد خادمة أم زوجة؟

- وهل إعدادك الشاي لزوجك يجعل منكِ خادمة؟

- طالما أنت تجلس ولا تصنع شيئًا فلماذا لا تعده لنفسك؟

أنا أعمل مثلما أنت تعمل.

- هل تقارنين البضع الساعات التي تنفقين فيها بعض نهارك في مدرستك الدولية فوق الكرسي الدوار وتحت هواء التكييف بعملي الذي لا يكاد ينتهي دوامه ولا تحصى مخاطره؟ وهل الحياة الزوجية منطقها حساب الورقة والقلم؛ أنا أعمل كما أنت تعمل؟ لو كان كذلك فأنتِ تحتفظين براتبك لنفسك وكما أنكِ لست خادمة فأنا لست صرافًا آليًّا.

وهنا أكون قد فتحت على نفسي صندوق باندورا ومحاضرة طويلة عن معاني الرجولة والرجل الواجب عليه كفاية بيته، وهنا أعود للضحك وأنا أتذكر المشهد السينمائي فأتخيلها بلحية وثوب وغترة وهي تقول لي: لا تجادل يا أخ (عليّ) كي لا تقع في المحظور.

لم أكن عاجزًا عن ترويض النمرة؛ أنا أستاذ ورئيس قسم في أساليب التطويع النفسية، بل قل إن نقلي لإدارة المنظمات والتمويل الخارجي لم يكن إلا لأني أكره التعذيب البدني وأرفض استخدامه في التحقيقات إلا للضرورة القصوى، وكنت أعوض نقطة ضعفي تلك بقوتي في الأساليب النفسية. لكني لم أفعل ذلك مع زوجتي لأنها ببساطة زوجتي، فماذا بقي للمودة والرحمة إن اضطررت لتعسيفها وقسرها؟ ثم إنني أستهلك كل طاقتي النفسية في عملي فأنّى لي ببقية منها لأحرقها فيما يفترض أنه بيت السكينة والراحة؟ لا تنس أنني كنت أيضًا أشتري خاطر سيادات المستشارين.

كان لا بد أن يقع الطلاق بيننا، فالطائرة يستحيل أن تطير بقائدين بل يجب أن يقبل أحدهما لعب دور مساعد الطيار، والحمد لله أن وقع الطلاق قبل أن تحلق الطائرة بركابها إذ لم نرزق بأطفال في سنة الزواج تلك.

وحمدًا لله أنني من عائلة ضباط كما هي من عائلة

مستشارين، نحن بذلك متعادلان في ميزان القوى، فكان طبيعيًّا أن يكون الطلاق هادئًا لا يجور فيه طرف على طرف.

هل هذا هو الحاجز بيني وبين (تسنيم)؟ وجود (حسين) كالشوكة في ساق الوردة؟

لا طبعًا... أنا لا أراه شوكة أصلًا، برغم أنني كما تعرف لا أحب الأطفال.

يا ليت كان لها بدل الابن ثلاثة ولم تكن ابنة (سامح غنيم)؛ أنا بذلك أنتحر وظيفيًّا إذ أفكر في إمكانية الزواج منها.

بل أظن أن ذلك مشكلة عندها هي أيضًا، فبرغم أنهم ليسوا إخوانًا لكن تعاطفهم وحده يكفي للهلع من فكرة زواج ابنتهم مني.

لماذا إذن نستمر أنا وهي في علاقة الإعجاب المتوارية تلك خلف سطور الواتساب؟ ولماذا لم أفكر حتى في أن أطلب منها التطور الطبيعي لعلاقات الإعجاب بين الجنسين هذه الأيام! مكتفيًا بالصبر على دردشات الواتساب، فالصبر على ثرثرة الفتاة فيما لا يعنيك شأنه هو أبسط ضريبة للتعرف عليها.

ولماذا ما أزال متعلقًا بها برغم أن (لبنى) تفوقها جمالًا ودلالًا بمراحل؟

نعم (لبنى) هي الضلع الثالث من ثالوث الفشل الذي حدثتك عنه!

تفاحة بديعة بضّة حلوة سقطت في حجري بغير أن أهز شجرتها.

افتعلت هي حوارًا معي وطلبت مساعدتي في استخراج رخصة قيادة لها، ومن يومها والتفاحة بين يديّ... أستطيب ملمسها... أدوخ بشم رائحتها... لكنها لا تذيقني أبدًا طعمها.

ربما منحتني شفتيها كي تثبت لي رائحة فمها الزكية، ربما تركت أصابعي تسرح شعرها كالمشط وهي تراهنني أن شعرة منه لن تعلق بمشطي من شدة نعومة شعرها، ربما تركت يدي لتتأكد من نضارة فواكهها، لكنها أبدًا ما أجابت باقي أسئلتي.

- الجواب عند عمو المأذون!

وبالطبع لم يفتها أن تؤكد لي أن جمال المرأة ليس في شعرها ولا في جسدها، بل جمالها الحقيقي في خضوعها لزوجها وأن مكانها الطبيعي هو تحت جناح حبه وفي أحضان رعايته.

لكن عمو المأذون له عندي شروط أخرى، آه لو كانت تحمل فقط شهادة الثانوية من أمريكا؟ ستكون مثلها مثل أي خريجة مدرسة دولية في مصر، بل هي أفضل إذ شهادتها صادرة من بلد المنشأ! نحن مجتمع مظاهر كما تعرف، ومجتمع تناقضٍ أيضًا، مجتمع يستهجن ارتباط ذي شهادة عالية أو منصب رفيع بمن ليست جامعية، لكن لو كانت شهادة ثانويتها آتية بالبريد الجوي ممهورة بالأحرف اللاتينية فهذا يكفيها لحجز مقعدها في أحد مراكب نهر الصفوة!

عمو المأذون مشروط عندي أيضًا بتعادل كفتي ميزان النسب، صحيحٌ أن تجربتي السابقة مع ذلك الميزان كانت تجربة لا أعادها الله، وصحيحٌ أن (لبنى) بنت عائلة لا بأس بها، لكن رياح الظروف تطايرت بورقتها وقطعتها من غصن شجرتها.. إن شجرتها لا تعلم حتى الآن أنها قد تطلقت! أنا لا أقبل – حتى بدون وظيفتي الحساسة تلك – الارتباط بفتاة تعيش هكذا بلا رقيب على تصرفاتها، لسنا ملائكة، وشياطين مغريات هذه الأيام أقوى من كل تربية، والفتيات اللاتي يسايرن تقليعة هذه الأيام في الاستقلال بحياتهن عن أسرهن إنما الواحدة منهن مشروع انحلال محتمل، لست سيء الظن ولكن تجارِب المرأة في الغرب وفي أقصى الشرق تؤكد هذه

النظرية... رحم الله أيام كان مجتمعنا ينظر بغير اطمئنان للفتاة التي ليس عليها رقيب سوى أمها وليس لهما خال أو عم دائم الترداد عليهن والرعاية لهن.

صحيح أن (لبنى) مستقلة رغمًا عنها، والخال والعم بل وحتى الأم تخلوا عنها، لكن ما ذنبي أنا؟يا لي من وغد؛ أقول هذا وكأنني لم أراودها عن ثمرتها فتمنعت، لكنها حيلة الفتيات المستهلكة للإيقاع بالعريس، ما يدريني كم عريسٍ محتمل سبق له معاينة سلة الفواكه؟ صحيحٌ أن تحرياتي عنها لم تأتِ بما يشينها لكن التحريات ليست دائمًا دقيقة، خاصة وأنها كبائع الفاكهة المتلهف على تسويق بضاعته قبل انفضاض السوق... يا لها من تفاحة شهية... آه لو كانت تحمل فقط الثانوية الأمريكية؟ لكنها بليدة فلتتحمل هي ثمن بلادتها.

عمومًا فالكرة الآن في ملعبها لتفكر في عرض الزواج العرفي، لقد هزتني دموعها فعلًا وهي تشير إلى بطنها التي تاقت لممارسة وظيفتها المقدسة، لكن أنا أيضًا لدي مقدساتي التي ليس أبسطها وظيفتي، تصنعتْ الغضب؟ حظرتني على كل ما هو تواصل عندها؟ لكنها من يومٍ لآخر تفك الحظر وترسل لي عسى أن يكون الشوق قد سوّاني بناره، مساكين هؤلاء الفتيات؛ يظنون عقولنا مثل عقولهن مغمورةً بفوضى من أمواج العواطف تتلاطمها، ليس لديهن ذلك الحاجز الذي لدينا بين نهر العاطفة وقارب التصرفات... تعود لحظري من جديد؟ الكرة في ملعبها على كل حال فأنا لن أغادر موقعي في الملعب.

ليس وقت رسائلك الآن يا (تسنيم)، فعقلي الآن في الوردية المناوبة في التفكير في الفاكهة ولم يأنِ بعد أوان وردية العواطف العذرية...

ماذا؟

- أدركني يا (شريف) فأنا مقبلة على مصيبة لا أدري مداها!

(٤٠)

بغير أن يسألني ومن غير أن أطلب منه، مضينا أنا و(عمر) إلى أقرب مقهى في المول، وأوقفنا دقات الساعات ومضينا نسترجع أحاديث الذكريات ونتبادل أخبار ما قد فات، وأصررت إصرار الأنثى أن يكون هو البادئ بتلاوة أخباره؛ إذ لو بادرته بأنبائي لما حصدت منه سوى فم الدهشة ولسان التساؤلات عن تفاصيل قصتي الطويلة، ولتاهت سطور قصته بين صفحات أسفار حياتي.

لا شيء مثير في قصته سوى أنه لم يرزق بأطفالٍ بعد، حيث تزوج بعد أداء الخدمة العسكرية بسنواتٍ قليلة تشارك خلالها مع أشقائه في شركة استيراد وتصدير، وأنه ورغم مرور أربع سنوات لا تزال زوجته تكرر محاولات الحقن المجهري بلا طائل، وأن شركتهم تعاني الكثير بعد تعويم سعر صرف الجنيه وبعد قوانين الاستثمار والاستيراد الجديدة لدرجة أن إيجار المحل التجاري الذي ورثوه عن أبيهم في أحد مولات مدينة نصر هو مصدر دخلهم الشهري الأساسي، وإرثهم أيضًا من الدولارات هو حائطهم المستندون عليه، بينما تتأرجح شركتهم بين هوامش الأرباح التي لا تكاد تزيد عن فوائد البنك...

- لولا أننا لا نحب البقاء بغير عمل لأغلقنا شركتنا غير آسفين ولأودعنا رأس مالها في شهادات استثمارية، أمي أيضًا تستحرم شبهة هذه الشهادات.

أمه من جديد.. لا تظلميها يا (مها) فرفض العلاقة كان من عندكِ أنتِ أيضًا.. كيف ستستقبل (مارلين) الخبر عندما أنبئها بلقائي (عمر)؟

- هذه هي تقريبًا كل أخباري، فماذا عنكِ أنتِ؟

وأفقت من خاطرتي على كلمات (عمر) هذه، فارتشفت جرعة من قهوتي واعتدلت في جلستي و سويت خصلات شعري خلف

أذنيّ وقلت

- شوف يا سيدي...

ومضيت أرقب تغيرات ملامح وجهه وتعبيرات لغة جسده وأنا أقص عليه قصتي باسترسال حتى هيئ لي بأنه سيغرق في شلال المفاجآت، وقاطع شلالي وعيناه تكاد تدمعان:

- ماذا؟ أشهرتِ إسلامكِ؟

فعاد شلالي للتدفق من جديد، واستمرت ملامح الغرق على وجهه قرابة الساعة حكيت فيها باقي قصتي ببعضٍ من اختصار وبكثيرٍ من تفاصيل، ثم سكتُ وتوقف فيضاني وغيض الماء وتركته لدقيقة يلتقط منها أنفاسه، فكان أول ما قاله:

- أسلمتِ سعيًا في الطلاق ولم تفعليها سيرًا في طريق زواجنا؟

أغاظتني كلمته بل شاطتني غضبًا، لكني غفرتها له لأنني لمست ما وراءها من حبٍّ لا يزال عالقًا بقلبه.

- (عمر)؛ هل عهدك بي أنني تلك الفتاة التي تغير دينها طلبًا لزواج أو هربًا منه؟.. وقت أن كنا معًا كنتُ ربوبية أكثر مني مسيحية، وظللت طوالها أبحث وأفكر وأقارن، ولو كنت فقط أسلمت طلبًا للطلاق لما سعيت كل هذا السعي لتغيير أوراقي وأوراق ابنتي.

ولمس يدي ومسّ قلبي بلمسات اعتذاراته، وعادت عيونٌ تاقت لمرقدها بين جفون أُخراها، وتغير من الهواء رائحته ولونه وطعمه، وحمل الأثير بيننا ذبذبات دقاتٍ صامتةٍ لقلوبٍ استعادت عافيتها وشبابها وتلونت غرفها بريشة ألوانها المبهجة، وانتبهنا لأول مرة لصوت أم كلثوم يشدو في خلفية المقهى:

ومن الشوق رسولٌ بيننا.. ونديمٌ قدم الكأس لنا.. هل رأى

الحب سكارى مثلنا

فضحكت أنا و(عمر) ضحك طفلين معًا.. وتبادل الهاتف أرقامنا.

***

وكأنني قفزت ثلاثة عشر عامًا للوراء، حتى (ماريا) صارت تنظر إليّ وتقول:

- ماما؛ ما نوع دهان البشرة الذي تستعملينه هذه الأيام؟

فتضحك (لبنى) وهي تلجم صلصلة ضحكتها من أن تهتك براءة أذني الطفلة وتجيبها:

- هذا كريم وبلسم ومصل وأقراص مكملات غذائية يا (ماريا).

وتتبادل (لبنى) معي النظرات؛ أحاول أنا جعلها بريئة وتتعمد هي غير ذلك، وتسائلني فيما بيننا:

- ألن تقصي عليّ نبأه؟

- ألا تفكرين في غير الرجال يا (لبنى)، فقط معنوياتي مرتفعة في العمل بعض الشيء.

- والمكالمات الهامسة الطويلة؛ هي أيضًا مكالمات عمل؟

- هي بالضبط كما تقولين يا قطتي الشقية.

وتكتفي القطة بنظراتها الشقية وهي توقن بأنني أداري عنها شمعتي، لكني سعيت بشمعتي نحو (مارلين) أشاطرها ضوءها كما اعتدنا خلوات سمر الأسرار نعيدها، فاكتفتْ بنظرات إحساس الذنب والاعتذار والفرح لي في آنٍ واحد ثم قالت:

- وهل جدد حبه فقط أم جدد عرضه للزواج أيضًا؟

- بدأ في المكالمات الأخيرة يجس نبضي، وأخبرني بأنه

حدّث أمه عن لقائنا الصدفة وقص عليها أنني...

وتداركتُ كلماتي احترامًا لمشاعر أختي الدينية، فابتسمتْ في حنانٍ وربتت به على ظهر يدي ثم قالت:

- فإذا عرض عليكِ الزواج صراحة فهل ستقبلين أن تكوني زوجة ثانية أم ستشترطين عليه تطليق زوجته؟

- لقد كنت زوجة ثانية عن غير حب، أفلا أكون كذلك لحبيبي؟

هزت رأسها في استغراب وقالت:

- غريبٌ أمر ذلك الحب؛ البعض يفرط في أنانيته باسم الحب مؤكدًا أنه لا يقبل بعض القسمة ولا جزءًا من شراكة، بينما البعض الآخر يبالغ في التضحية ويؤكد أنها عنوانه.

سكتتْ ثم استطردتْ:

- فإذا كان كذلك، فهل سيشتري أو يستأجر لكِ شقة أخرى وتتركين شقتك لـ(لبنى) التي بالتأكيد لن تقدر على دفع إيجارها وحدها؟ أم ماذا ستصنعين في (لبنى) إن اتفقتما على الزواج في شقتك؟!

***

ما كان ضبابيًّا معتم الرؤى أتحاشى حقيقة شمسه، بددت أسئلة (مارلين) كل سحبه.

ماذا سأصنع في (لبنى)؟

لأول مرة أشعر بوطأة وجودها عندي، لأول مرة أبدأ في الضيق من ملابسها الملفتة أحيانًا ومن تأخرها في السهر أحيانًا أخرى، ولأول مرة ألتفت إلى النظرات المستنكرة في عين جارتنا التي خرجت لتوها على المعاش لتتفرغ لمراقبة الغادي والرائح، لأول مرة أسلّم مرغمة بأن المرأة ليست تمامًا مثل الرجل ولا تستطيع الاستقلال بحياتها بل لا ينبغي ذلك

لها، أنها خلقت للتعشيش والسكينة لا للتحليق والسماوات المفتوحة، آفة هذا العصر أنه يصنع من الفلتات نماذجَ يجوزبل يجب تعميمها.

لكن (لبنى) مستقلة رغمًا عنها، بل لم تستطع الاستقلال بحياتها أساسًا، بل إنها لتستميت في البحث عن عشٍ بديل إذ هي تدري أن عشي مجرد شجرة في طريق طيرانها، وهي طائر تعب من الترحال وسئم من التحليق وحيدًا وتتوق للاستقرار وبيض وفقس فراخٍ صغار، لكن آفة عصرنا هذا أنه صار مصممًا للصقور المنعزلة لا لأسراب الحمائم.

لكن هل أنا مطالبة بأن أكون أحنّ على عصفورتي من أمها؟ وماذا إن رآها عصفوري فعشيت أنظاره بجمال ريشها وبديع ألوانه؟ أليس آفة عصرنا أن الحب فيه مكانه العين لا القلب؟

لا.. أنا أعرف (عُمَري) جيدًا وأعرف طبيعة أمه وطريقة تفكير أسرته، لن يقبلوا ولن يقبل هو بالزواج من (لبنى)، ربما لو صادفها وقت أن كان زير بنات لاستمات في الحصول عليها، لكن توبة (عمر) كانت على يديّ نصوحًا، كما أنني أعرف صديقتي وأثق أنها مهما تماهت مع رغباتها الأنثوية فإن لها من الأخلاق ما يمنعها عن ولوج الباب الكبير!

لكن الناس لها المظاهر، وجارتي العجوز فضولية الطبع سيئة الظن ثرثارة اللسان، لو رأت (عمر) وأمه في زيارتي فلن تهدأ حتى تعرف من هؤلاء، بل ما أسهل ما ستتعارف العجوزتان، احتمال ضعيف؟ ربما، لكن لا أحب أن تسألني الدكتورة (فاطمة) يومًا؛ من (لبنى) هذه؟ ولماذا تعيش بعيدة عن أهلها؟ وهل صحيح أنها أمريكية التربية والطباع؟ وهل صحيحٌ أنكِ لبستِ الحجاب لفترة ثم خلعتيه؟ وآفة عصرنا أننا مجتمع فسيفساء متناقض القيم والأفكار بين أطيافه وبين أجياله كذلك.

منذ متى تحسبين لأفكار الناس وكلامهم حسابًا يا (مها)؟ وأنتِ حياتكِ كلها سباحة ضد تيار؟

منذ إن وُلدت (ماريا) و ولد القلق في قلبي... (أمير) كعادة لسانه يمطر زلطًا:

- الأعمار بيد الرب يا (مها) ولكن من لمارية إن جاءكِ الأجل؟ هي مسلمة وأمك مسيحية وقانونًا لا ولاية لمسيحي على مسلم كما تعلمين بالتأكيد، هل رأيتِ جريرة تزويرك لشهادة ميلادها؟

أنا أعلم أن طبيعته المستكينة لن تجرؤ على رد فعل حيال شهادة الميلاد، ولكن من فعلًا لماريا من بعدي؟

أنا أحتاجك يا (عمر) أضعاف ما تشتاق أنت للولد، وأستصرخك يا ربِّ .. أن تظل يد عطفك تحاوطني وتحاوط ابنتي، أيها الرب السيد الإله العظيم المحب.. أنا وابنتي وصديقتي يا رب؛ قشّاتٌ وسط رياح أقدارك فاحفظنا بنعمتك وعرفنا الطريق، إليك أرفع نفسي ومن معي فلا غيرك يحملنا، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك.

(٤١)

لا أكاد أصدق.. بل هذا غير معقول..

قال (شريف) لنفسه

(تسنيم) يتم إدراج اسمها في قوائم المتهمين بتمويل الكيانات الإرهابية والتحفظ على أموالهم؟!

بالتأكيد هناك لبس ما، أو أن طليقها قد أبلغ عنها تصفية لحساباته معها.

لكن قضايا كهذه نادرًا ما تسير بالبلاغات الكيدية.

حتى لاعب الكرة صاحب الشعبية الأكبر في التاريخ والذي انتفض محبوه دفاعًا عنه يعلم الجميع انتماءه لهذه الجماعة... لكن (تسنيم)؟ بل وتمويل وليس مجرد انتماء؟ هذا مستحيل.

ربما قد يصدق هذا الكلام على أبيها برغم أنه لا ينتمي انتماءً صريحًا للإخوان، لعل تاريخه الاستثماري ملوث بالتعاون مع رجال أعمالهم، لكن ما ذنب (تسنيم)؟! أنها ابنته وكبرى أخواتها؟ أنا ضابط أمن وطني وبنظرة واحدة أستطيع تقييم من أمامي.. أستاذ كرسي الأساليب النفسية كما سبق أن أخبرتك.

ضابط أمن وطني؟ أفق لنفسك إذن يا (شريف)، لا تجعل ضوء الحب الباهر يعمي عينيك حتى تخرج عن مسارك أو تصطدم بما يحطم مركبتك إلى الأبد، هذه أيام عصيبة واستثنائية في حياة الوطن والشبهة وحدها كافية لإحالتك للتقاعد على أقل تقدير... وهذا إذا كنت حسن الحظ.

لكن لا؛ لا أولًا للحب فلست أنا بالذي تشوش العواطف أفكاره، ولا ثانية لإدانة (تسنيم) فأنا أوقن بأنها ضحية تاريخ أبيها... تبًّا له برغم موقفه النبيل مع أختي! ألم يفكر في

مستقبل أولاده حين ربط نفسه ذات يومٍ بهذه الجماعة المثيرة للمتاعب؟

لكن ما ذنبي أنا ولماذا أشغل بالي بها طوال الوقت هكذا؟ ذنبي أن لي قلبًا دق وإن كانت دقاته خافتة... لماذا يا ربي لم تجعلني مثل أولئك الأنانيين الذين يعرفون هدفهم جيدًا ويسيرون نحوه في خط مستقيم لا ينعرج لا تحت تأثير عواطف ولا تبعًا لحكم مبادئ.. هؤلاء دائمًا طريقهم أقصر ووصولهم أسرع.

كان يجب عليّ حظرها على الواتساب لا أن أرسل لها ما أرسله الآن:

- (تسنيم)؛ هل تثقين فيّ؟

وجاءني الرد من فوره كأنها كانت تنتظر رسالتي:

- إذا لم أكن كذلك فلماذا كنتَ أول من استنجدت به لحظة أن صدمني الخبر.

- غادري مصر يا (تسنيم)، غادريها أنتِ وكل أسرتك، فلا أحد يعرف ماذا يخبئ الغد في مستقبل البلد.

- لكن أنا لم يصدر قرارًا بالقبض عليّ فلا تزال القضية مفتوحة...

قاطعتها وقلت:

- لهذا قلت لكِ: لا أحد يمكنه تخمين ما يحمله الغد.

- لكن بالتأكيد أصبحنا مدرجين على قوائم المنع من السفر.

صمتُّ لدقائق قبل أن أرسل لها:

- للمرة الثانية؛ هل تثقين بي؟

ردت:

- لا تعليق.

مصحوبة بوجه ملوٍ تعجبًا، فأجبتها:

- دعي إذن ذلك الأمر لي!

(٤٢)

سوف أطالب (سليمًا) بجعلي أدمن الصفحة الرئيسي بدلًا منه!

حدثت (دنيا) نفسها..

بالكاد أنتزعه بضع ساعات من أحضان مستشفاه حيث ترقد حبيبته كي نصور فيديوهاتنا... ومع ذلك لا أشعر بالغضب منه بل مست عواطفه قلبي كأنها موجهةٌ لي أنا.

لماذا تذوب الفتيات ولهًا ودموعًا من سماع قصص الحب تلك، بينما يشتعل الشباب منها سخرية وغباءً؟

بل لماذا تولع الفتيات بالشاب الذي خرج لتوه من قصة حب فاشلة، بينما يجفل الشاب من الارتباط بفتاةٍ مكسورة القلب؟

لأننا أكثر قدرة على الحب.. أعمق فهما له.. أكثر إحساسًا به.. أقل أنانية منهم.. نحن كائنات تحب الحب للحب، بينما الحب لديهم وسيلة لا غاية.. دفقة فائض هرمونات لا تدفقات نهر مشاعر.

(سليم) مشغول بسلواه، و(تسنيم) لا ندري ماذا دهاها فصارت في شغلٍ كبيرٍ عنا ولا تجيبنا سوى بكلمة؛ لعله خير، و(مها) و(لبنى) تستهلك أعمالهما الخاصة أغلب جهدهما ووقتهما، بينما (مارلين) كأنها أول أنثى تنجب في الوجود، وكلهم نزل جهدهم في رعاية الجروب إلى ما دون النصف، حتى إن (سليمًا) وافق فور أن عرضت عليه إشراك (ميادة) كمشرفة في الجروب معنا.

ترى كيف ينظر (سليم) إلى (ميادة)؟ تبًّا لكِ يا (دنيا)، بل تبًّا لأعين الرجال الفارغة تجاه كل ما هو تاء تأنيث!

(٤٣)

لماذا لا يظهر الله واضحًا لنا كوضوح الشمس؟

أخذت أستعصر تفكيري وأستخلص عصارات كتبي وأستنطق زبدة أفكار كل الفلاسفة الإلهيين.. أسابق الزمن لكي أحصل لسؤالها على جوابٍ شافٍ، أعلم يقينًا ألا مثبط لعداد لعمرها التنازلي الذي يتصاعد ضجيج دقاته منذرًا باقتراب صمته، يجمح حبي لها في أحلامه حين يأمل استجابة الله لدعائي لها بالشفاء، لكني مستمر في صلواتي لها عسى أن تأتي إجابة الله لتوسلاتي ولو في صورة خيرٍ آخر.. شفاءٍ آخر؛ ولَشفاء النفس والعقل خير لها، ولكن أنانية حبي تأبى إلا التضرع بشفاء الجسد.

أرتب إجاباتي، أتدرب عليها أمام المرآة كأنني ذاهب لامتحان أداءٍ وإلقاء أو لخوض مناظرة فكرية.. عقلي الباطن – إن كان للعقل الباطن وجود – مسلّم بفكرة رحيلها، فلا أقل إذن من إهدائها قارب نجاة تعبر به ذاك البحر الخِضم الذي سنعبر جميعًا برزخ الحياة إليه يومًا ما.

أبتسم في وجهها برغم اعتصار قلبي على شحوبها المتزايد في تناغم مع ذلك العداد الذي لا يهدأ، أقبل رأسها في حنان كأنني أنفث إجاباتي في عقلها عبر قبلتي الصادقة، أجلس على طرف سريرها وأمسك يدها بيدي كأني أوصل الكهرباء بينهما عسى أن تسري كلماتي عبر تياره... أن تبثها روحي إلى روحها، أبادرها فتبادرني هي :

أنا أرى الإجابة يا (سليم)!...

فالجسد الذي شفّه المرض وتوشك آلاته أن تسكن عن الدوران فخفّ ضجيج الحياة فيه عن تشويش حواسه، قد رقت أستار حجبه، فصار يبصر بعين الروح ما وراء ما غشي عينيّ من حجاب الظواهر.

الروح...

صرت أرى الروح في كل شيء...

في جسدي الذي يحيا بها...

في الناس الذين يتحركون حولي فلم أعد أرهم إلا أرواحًا تسري في ظواهر خادعة غير حقيقية تسمى الأجسام..

في الحيوانات.. في الطيور.. في النبات.. بل حتى في الجماد

نعم في الجماد.. بل في كل ذرة من ذرات الجماد

صارت روحي تعانق روح الذرة التي تدب الحياة في سحابة إلكتروناتها طوافًا حول نواة مركزها

فهم عقلي ما حير علماء الفيزياء إذ تساءلوا كيف يكون الإلكترون موجة ومادة في نفس الوقت؛ كيف فاتهم أن هذه روحه وذاك جسده؟

الروح في كل شيء يا (سليم)؛ من أول هذا الإلكترون الحائر بين جسيمه وروحه، بل من أول الكواركات تحت الذرية وصولًا لروح الكون نفسه.

كيف كنتُ لا أرى روح الكون؟ بل كيف لا تراها أنت ويغفل عنها كل الناس تقريبًا؟ كيف لم تلفت انتباهك فتتكلم عنها في فيديوهاتك؟ ربما لأن جسدك لم يتسامَ عن مادته مثلما أنا الآن.. مثلما أحس الآن بروح الكون في كل شيء فيه بل أكاد أراها وأسمعها؛ في دوران أرضه وقمره وشمسه، في سباحة نجومه ومجراته، في نسبية أماكنه وأزمانه، في قوانين طبيعته وفيزيائه، بل إنني أكاد أسمع ضجيج لحظة انفجاره الأولى إيذانًا بنفخ الروح فيه.

وسكتت حبيبتي مرهفة سمعها ناظرة نحو السماء عبر نافذة حجرة مرضها كأنها تسمع وترى وتتواصل مع روح الكون، لكن

دمعة ساخنة سقطت من بين رموشي فوق كف يدها، فنزعت كفها من كفي ولعقت في حب دمعتي تلك بطرف لسانها وهي تغمض عينيها في نشوة صوفية ثم قالت:

هذا الحب الذي ملأ قلبينا روحٌ من عند الله، كل المشاعر النبيلة روحٌ من عنده، وكل المشاعر الخبيثة المضادة لها إنما هي مجرد مظاهر لاختفاء الروح الأصلية؛ الكراهية اختفاء الحب، الكذب اختفاء الصدق.. الظلام اختفاء النور، حتى الشر الذي كان يومًا مطرقة إلحادي ما هو إلا اختفاء لروح الخير.

وضحكتْ دموعي ضحكة فرح وغبطة لِما أسمع، فمدت أصابعها المرمرية ومسحت عن رموشي أطلال دموعها في حنان روحٍ قد شفّها الوجد الإلهي، وتلاقت أعيننا في صمت، وصمتت الدنيا حولنا إجلالًا للصمت، ثم أكملت:

هل ترى ما أراه يا حبيبي؟

هل ترى الروح التي تسري بين نظرات أعيننا حين تتلاقى؟ أنا أراها بوضوح لكن بعين روحي، بالضبط كما أرى سريانها في الموسيقى والنغم بل في تغريدات الطيور بل في كل أصوات الحيوانات... هل تعلم أن للذرة صوتًا؟ لا تقل لي بأن الصوت موجة، كلما عجزنا عن تفسير ظاهرة نعتناها بأنها موجة، الصوت موجة.. الضوء موجة.. النار موجة.. الكهرباء موجة.. أجزاء الذرة المتناهية الصغر تسلك سلوك الموجة فإذا فجرناها أطلقت كمية هائلة من الطاقة التي هي؛ موجة، الانفجار العظيم للكون موجة، نظرية الأوتار هي ببساطة تذبذبات موجية.

كلما تعمق العلم في دراسة الكون وأجزاء الذرة المادية تسامى عن ماديتهما وأدرك أن المادة مظهر خَدّاع للحواس بينما هي في أصلها تذبذبات أمواج وأوتار طاقة.

هذه الموجات ما هي إلا أرواح غير نهائية العدد بل روح واحدة.. ما الكون بألوان الوجود فيه إلا روح مطلق، روح تتجلى في كل شيء كما تشاء هي من أشكال التجليات، روحٌ لا نراها ولكنها تعرف ماذا تفعل بالضبط، روح لها سننها الثابتة التي نسميها قوانين الفيزياء والطبيعة، روح لها خطتها التي بدأت من نقطة كونية مفردة كروية قطرها صفر حتى صنعت لنا هذا الكون الشاسع بمليارات مجراته.

روحٌ لما سرت في كوكب الأرض ملأته حياة وقوانين، بل هذه الحياة وتلك القوانين ما هما إلا تجليات للروح هذه، روح أرادت فتجلت في الخلية الحية الأولى ثم أخذت بيدها لتصعد بها جبل التطور الشاهق حتى أشرقت في صورة الإنسان... اعذرني فلا أزال أعتقد بصحة عملية التطور، لكنها عملية أدركتُ استحالة قبولها بدون يد الروح تسري في مادتها...

لا يمكن تصديقها بدون التسليم بأن الروح قد حبت مخ الإنسان من الوعي والعقل ما حرمت منه أمخاخ أسلافه وأبناء عمومته، بل الوعي والعقل قبسات وأرقام من الروح المطلق غير النهائي بل هما التجلي الأكبر للروح المطلق.

كلنا تجليات للروح.. كل الوجود إشراقات لنورها.. كل المسميات درجات في سلم المعراج إليها.

الله هو مشكاة الروح يا (سليم)...

أنّى لي أن أراه وأنا نفخة من روحه.. مرآة لتجليات قدرته، وأنّى للمرآة أن ترى صورة ما انعكس فيها؟!

وسكتت (سلواي) وقد اغرورقت عيناها بماء الوجد وسحائب الفناء.

وذهل عقلي دهشةً؛ من أين أتت بما تقول، وانعقد لساني حيرةً؛ أمن الإلحاد إلى أقصى درجات وحدة الوجود؟

وكأن همسات عقلي قد سرى طيفها عبر ملمس يدي ليدها

فقالت:

- أنا لا أدري ما وحدة الوجود ولا أفقه خلافات أهل الله حولها، إنما يجري لساني بكلمات روحي ولا أملك سلطانًا عليها ولا إدراكًا لمعانيها، لا آبه لصواب كلامي، فهو في عليائه أقرب إليّ من وريدي، لا أفكر في ارتفاع سمائه طالما أوقن أنني فيضٌ من مشكاة أنواره.

- حبيبتي... رددي ورائي الشهادتين.

- أخجل منه يا (سليم).

- بعد كل ما قلتيه لي؟

- فهل يغفر أن يُكفر به؟

- أليس من أتاه يمشي جاءه هو هرولة؟ فما بالكِ بمن أتته ذوبانًا.

رنَت بعينها لأعلى ثم كمن تذكرت شيئًا فمدت أصابعها أسفل وسادة مرضها، وسحبت ورقة مطوية وناولتها لي وقالت بابتسامة واهنة:

- هذا صك عبوديتك.. أنت حرٌّ لوجه الله والحب.

أغرقت دموعي يديها ومن بين لغيط نحيبي خرجت بصعوبة كلماتي تتوسلها:

- بل سيبقى الصك وصاحبه ملككِ للأبد... ستتعافين وسنتزوج.. سنفتح صفحة جديدة في كتاب عشقنا وستنجبين (حنين) تعوض كل ما كان من حنين..

قاطعتني في كلل ويدها وعينها تشيران لسقف الحجرة وقبضت أصابع يمناها وأشارت بسبابتها لأعلى:

- بل هو قد أتى لطي صفحتي للأبد ولاصطحابي في مشواري إليه.

قفزت فوق الهيكل العليل كأني أحول بين الرسول وبين استرداد أمانته، ومضيت أصرخ وأهز فيها، تحاول عيناي قطع الطريق بين عينيها وبين معراجها العلوي فما تزداد عيناها إلا شخوصًا.

في ثوانٍ امتلأت الحجرة بأسرتها، وبمجموعة من البلاطي البيضاء أزاحوني من فوقها ثم لم تلبث عيونهم أن دمعت بدموع اليأس، شققت طريقي بين بلاطيهم وأخذت أهزها بكل ما أملك من دموع وصرخات رجاء يائسة:

- يااااا راااب... هبها لي ولو لأصلي لك بها ركعة واحدة.

فتحت عينها بشق فرجة ثم همست لي:

- موعدنا هناك... فما أرى روحي إلا تعانق روحك عنده.

ثم أظلم النور من بين جفونها.. بل أظلمت الدنيا كلها فلم أعد أرى إلا أستارًا كثيفة.. ومن بئر عميق سمعت الكل يشهق وينتحب، حتى البلاطي البيضاء ابتلت بدموع أصحابها!

وانشقت أرضية الغرفة تحت قدمي فألفيتني في بئرٍ عميق شبه مظلم، أرنو بعيني نحوبصيص ضوءٍ يلوح من فوهتها، فأرى جميع من بالغرفة قد تحلقوا حول فوهة البئر, ثم بدأت عيونهم تمطرني بدموعهم، أصيح فيهم كي لا يكترثوا لأمري وأن يعودوا لها لإنقاذها فما تزيد دموعهم إلا غزارة وسخونة، حتى أحسست وكأنني سأغرق وسط سيل دموعهم وأحترق بحرارتها.

وأعجبتني فكرة أن ألحق بها!

واستسلمت لسباتٍ عميق!

(٤٤)

الخونة... دفنوها ثاني يوم معراج روحها ولم يمهلوها يوميّ إغماءي.

هل سارعوا بدفنها كما يوصي الشرع؟ أم أشفقوا عليّ من أن أدفن نفسي بجوارها وأنا لم أعد محرمًا لها؟

أفقت فتماسكت فنهضت فأسرعت إلى بيت أهلها.. دخلت صامتًا فلم أسلّم على أحد.. قصدت الصالون في صمت وجلست في صمت وبادلوني صمتًا بصمت ودموعًا بدموع.. مرت دقيقة أو ساعة لست أذكر إلا أنني هببت واقفًا وقصدت حجرة حبيبتي، أنا أعلم أين كان يجب أن تحتفظ بمجموعات صورنا، جمعتها ثم التفتُ مغادرًا الحجرة، وجدت أعينًا قد هدّها الدمع تقف على باب الحجرة تراقب ما أصنع، رفعت الصور بيدي مستأذنًا فهزوا الرؤوس موافقة، هممت بالمغادرة فوجدت يد أمها تعترضني بعلبة كبيرة من القطيفة الفاخرة تناولها لي، لم تزد بصنيعها ذلك إلا أن ذكرتني باليوم الذي لففت فيه محتويات العلبة حول جيد حبيبتي ومعصمها وخنصرها، رفعت حاجب الاستنكار ولويت رأسي في غضب،وقبل أن تتجاوب دموعنا من جديد سارعتُ بمغادرة الشقة.

عدت إلى شقتي برغم توسلات أمي وأختي لي بالبقاء مع أي منهما، وقضيت يومًا شبيهًا بيوم طلاقي؛ فاعتصمت بكل سُقُف حجرات شقتنا سارحًا بخيالي فيها.. كأنني أهرب بعيني من ذكرياتنا التي تملأ كل شبرٍ فيها.

ثم قمت إلى حاسوبي وفتحت الصفحة وكتبت:

ذاب الفؤاد حنينًـا لسلـواه

هدّه الشوق والدمـع أوّاه

وارى التراب حبيبًا عشت به

فلا طاب المقام ولا سلاه

ثم أعلنت إغلاق الصفحة والجروب!

(٤٥)

صديقي العزيز (سليم)

أعلم كم أنا مقصرة في حقك لكنك ستجد في رسالتي هذه اعتذاراتي وتوضيحي لكل شيء...

شرحٌ لاختفائي المفاجئ..

توضيحٌ لماذا غبت عن عزائك في حبيبتك؛ هل تذكر أول دردشة بيننا على الواتساب عندما راهنتك أن اسمها حنين أو سلوى؟ وأنك ما اختلقت صفحتنا إلا كرامة لحبكما؟

ببساطة... لقد كنتُ في رحلة هروب!

لعلك لا تتذكر أنني ألمحت لك أن اسمي قد زُج به – أنا ووالدتي وأختي – في قوائم المتهمين بتمويل الإرهاب والتحفظ على أموالهم، أنا أعذرك إذا لم تتذكر فقد كنتَ في شغلك بتمريض حبيبتك تقبلها الله في عباده الصالحين.

لقد نصحنا الناصحون بالهروب من البلد، فلا العصر الذي نعيش ظروفه ولا المناخ السياسي حولنا بالذي يمكن أن نطمئن فيه إلى إمكانية إثبات براءتنا.

كنت أسابق الزمن لتحويل ما كنت أحتفظ به بعيدًا عن البنوك من مال كأن قلبي وقتها كان يحس بما سوف يحدث، أمكنني تحويل البعض وفشلت في البعض الآخر، أما المطعمان المتبقيان والشقق والأراضي فعلى الله العوض فيها.

بالطبع تم وضع أسمائنا على قوائم الممنوعين من السفر في كل موانئ مصر جوية وبحرية وبرية، وبالرغم من أنه لم تصدر أوامر بالقبض علينا، فإن مجرد المحاولة للسفر عبر الموانئ كما حاول البعض وعدنا بقدرته على تسهيله؛ كان احتماله الأكبر فشل المحاولة والقبض علينا، لذلك لم يكن لنا خيار

آخر غير الهرب برًّا إلى السودان.

لن أخبرك كيف دُبرت لنا – أنا وأمي وأختي هاجر – رحلة الهروب تلك ولا من دبرها لنا، لكني آمنت بعدها بأن الضمير يسبق الواجب، وأن الخير لا يزال موجودًا في نفوس البشر مهما كانت ظروفهم، هل تفهمني؟ لا يهم! المهم أنني سأقص عليك باختصار رحلة الخروج من القاهرة حتى وصولنا لندن عبر الخرطوم وإسطنبول.

بداية الرحلة كانت السفر من القاهرة لأسوان عبر القطار، اخترنا رحلة القطار التي تصل أسوان أقرب ما تصل من غروب الشمس؛ لأن المرحلة الثانية للرحلة يجب أن تبدأ مع أول الليل لتستغرق ما تبقى منه.

كانت الرحلة الأقرب تصل أسوان حوالي الواحدة ظهرًا، وبعدها كان علينا انتظار اقتراب الليل وترقب اتصال هاتفي من شخصٍ لا نعرف لا اسمه ولا شكله ولا حتى رقم هاتفه، نسيت أن أخبرك أننا تركنا هواتفنا مشحونة وغير مغلقة في فيلا التجمع كأننا لم نغادرها، واستعملنا شرائح جديدة غير مسجلة بأسمائنا في هواتف جديدة خصيصة لهذه الرحلة.

قضينا ساعات انتظار الليل بين مطعمٍ ومقهى متجنبات النزول في فندق مبالغة في التأمين، حتى جاءنا الاتصال يطلب منا ركوب أي سيارة أجرة وطلب التوجه منها إلى مكان ما في وادي يسمى وادي العلاقي، بعد وصولنا وبمجرد ذهاب سيارة الأجرة التي أقلتنا توقفت أمامنا شاحنة صغيرة من التي تسمى ربع نقل:

- اقفزوا بسرعة في صندوق الشاحنة وتغطوا بالبطاطين التي فيها...

كانت تعليمات السفر المسبقة لنا ثلاث: عدم اصطحاب إلا الضروري جدًّا من الأمتعة – هذا شيء غير سهل للمرأة لو

تعرف – وطاعة الأوامر الملقاة لنا بحذافيرها بدون نقاش والثقة التامة في المهربين.

سارت السيارة بنا بسرعة مخيفة عبر ممرات ومدقات صحراوية، كنا نتأرجح في صندوق السيارة كالكرة بين يدي أطفال حتى خفت على أمي أن ينكسر ذراعها من اصطداماتها العنيفة المتكررة بأرضية الصندوق، لكن لم يكن هناك خيار آخر أمام السائق كما قيل لنا، وبالفعل.. وفجأة.. وبعد ساعتين فوجئ السائق بكمينٍ للشرطة جديدٍ في مكانه، وبنفس سرعته غيّر السائق مساره بحدة إلى داخل دروب الصحراء ، ونحن نسمع سارينة الشرطة تطارد سيارتنا وأوامر العساكر له بالتوقف التي أعقبها إطلاق لبعض طلقات النار.. نطقنا الشهادة جميعًا، وغلب عليّ إحساس كأنني دفنت حية في قبر، وتمالكت نفسي بصعوبة بالغة من الصراخ بل من القفز خارج صندوق السيارة، أنا أصلًا عندي رهاب الأماكن المغلقة، لكن فعلًا المواقف الحرجة العصيبة تجبر الإنسان على صنع ما لا يتخيل قدرته على أن يصنعه، ويبدو أيضًا أن رجال الحدود لم يكونوا بنفس دراية (العبابدي) بدروب الصحراء فأمكنه الإفلات منهم.. بالمناسبة كان هذا اسم الدليل أو هكذا طلب منا أن نناديه هو ورفيقه في الرحلة، أظن أن هذا اسم قبيلتهم..المهم توقف إطلاق النار وصمت صوت السارينة..

لكن العبابدي لم يخفف من سرعته وإن كان يسمح لنا من وقتٍ لآخر برفع البطاطين عن رؤوسنا، وظللنا هكذا لمدة عشر ساعات حتى اقترب طلوع الفجر فلجأ العبابدي إلى ظل شجرة سدر كبيرة انتظارًا لقدوم الليل من جديد وانتظارًا لسيارة أخرى ستكمل بنا رحلتنا.

اثنا عشرة ساعة في الصحراء بدون شبكة للهاتف مع رجلين غريبين لا يكفان عن لف سجائر الحشيش، لك أن تتخيل مقدار الرعب الذي عشناه، لكن الرجلين لم يكونا حتى ينظران إلينا،

لدرجة أن العبابدي الصغير لما أحس بنظرات الخوف في عيني – أنت تعرف قدرتي على إخفاء مشاعري – قال لي فجأة:

- أنتِ بالنسبة لي كأي صندوق بضاعة مطلوب مني تهريبه، أنا أعمل بهذه المهنة منذ صباي وهي مصدر رزقنا الوحيد في هذه المنطقة المنسية من خريطة تنمية الحكومة، نامي إن أردتِ مطمئنة البال فلن نضحي بلقمة عيشنا.

لن أطيل عليك التفاصيل أكثر، فالسيارت الثلاث اللاتي تعاقبنا على ركوبها متشابهة رحلاتها وسرعاتها ومواعيد سفرها، حتى تلك التي مرقت بنا صحارى السودان، إذ اختار قائدها السفر ليلًا أيضًا ولكن هربًا هذه المرة من جحيم أشعة شمس السودان، حتى وصلنا أخيرًا مدينة بورسودان، بالرغم من أننا توقعنا الوصول لوادي حلفا القريب من الحدود المصرية لكن العبابدة أخبرونا أن طريق وادي حلفا صار مستهلكًا في تهريب المصريين إلى السودان أو تهريب السوريين إلى مصر وبالتالي أصبح غير آمن، لذا اختاروا ذاك الطريق الأبعد لتلك المدينة الساحلية على البحر الأحمر.

نفحتهم والدتي بقشيشًا محترمًا ظهر بشره على ملامح العبابدة، ثم استقلنا أول سيارة أجرة إلى السوق، اشترينا ملابس وعطورًا وأدوات نسائية كأننا جوعى لها ومحرومات منها، سارعنا لأقرب فندق وحجزنا ثلاث حجرات منفصلة، لم تكن أي واحدة منا على استعداد لانتظار الأخرى حتى تفرغ من حمامها، لك أن تتخيل حال الواحدة منا بعد رحلة صحراوية بهذه الظروف لمدة ثلاثة أيام متواصلة.

لقد تخلصنا من ملابس الرحلة ولم نفكر في إمكانية غسلها وإعادة استعمالها، كنا لا نريد شيئًا يذكرنا بتلك الرحلة العصيبة، كانت الواحدة منا تريد البقاء في حوض الاستحمام لثلاثة أيامٍ مناظرة، لكن كانت في انتظارنا رحلات أخرى أطول

مسافة لكنها أقصر مدة وأهدأ أعصابًا.. لقد انتهت مرحلة هروب الأعصاب.

بدون تفاصيل؛ من بورسودان إلى الخرطوم إلى إسطنبول إلى لندن جميعها بالطيران ..

وأخيرًا حضن أبي!

لك أن تتخيل من خلال ما تعرفه عني كيف كان ذلك الحضن... يكفي أن أقول لك: إن صوت نحيبي لفت انتباه الناس في المطار لدرجة أن هرعت إلينا شرطية لتسألنا إن كان هناك خطبٌ ما.

لا لم أغُطّ في نومٍ عميقٍ بعد وصولي بيتنا هنا في لندن لسببين، أولًا لحالتي النفسية بعد هذه الرحلة العصيبة؛ اتفقنا أنك تعرف نفسيتي وشخصيتي جيدًا، والسبب الثاني هو (حسين) ابني وباقي إخوتي، بالتأكيد أنت لاحظت أنهم لم يكونوا معنا في رحلة الخروج تلك، ذلك لأنهم غير موضوعين في لائحة الاتهامات فكان خروجهم طبيعيًّا، ولكن حرصنا على سفر كل واحدٍ منهم في وجهة مختلفة ومنها إلى لندن، في حين كان (حسين) في صحبة كبراهن من أخواتي.

هل تصدق أنني أشتاق من الآن إلى مصر؟

هؤلاء الذين يملؤون صفحات تواصلهم بمنشورات أحلام الهجرة لم يجربوا وجع البعاد وأنين الذكريات، خصوصًا مع واحدة مثلي تعلم أن لا أمل قريب لها لا بالعودة ولا حتى بزيارة بلدها، أو لعلي أنا عاطفية أكثر مما ينبغي؟ يبدو ذلك..

أفتقدكم جميعًا، أفتقد كل أحبتي في مصر.. كلهم، أفتقد مطعمنا القديم، أفتقد صفحتنا.. كم أحزنني خبر إغلاقك لها وكم سعدت عندما أقنعتك صديقاتنا بعودتها للعمل ولو بدونك، وحسنًا فعلت إذ حولت الإشراف الرئيسي عليها لصديقتنا (دنيا) التي نضجت كثيرًا ونضج فكرها بعد تخرجها؛

ألا توافقني في ذلك؟ أتمنى أن توافقني في ذلك!

لقد وعدت صديقاتنا بالعودة لمشاركتهن في إدارة الصفحة والجروب ولكن بعد أن آخذ هدنة أسترد بها أنفاسي وبعد أن أستبدل حسابي للفيسبوك القديم بآخر لا يحمل اسمي حتى لا أسبب أية متاعب لصفحتنا الجميلة، وإن كانت الصفحة بدونك قد فقدت الكثير من رونقها وجاذبيتها.

اعذرني إذ تأخرت رسالتي لك عن باقي صديقاتنا اللاتي بالتأكيد أرسلت لهن رسائل مماثلة، فقد آثرت ألا أراسلك إلا بعد أن تستجمع أشلاء أحزانك، كما أنني أيضًا لم أحكِ لهن أي تفاصيل لرحلتي سوى أنني اضطررت للسفر سرًّا، لم تعد بحاجة لمن يخبرك كم أنت شخص مريح لمن أمامك فلا يفكر في إخفاء شيء عنك، ولست بحاجة أيضًا لأن أذكرك بسرية ما قصصته عليك.

تسطيع التواصل معي عبر هذا البريد الإلكتروني وسأرسل لك طلب صداقة عند إنشاء صفحتي الجديدة.

صديقتك للأبد

تسنيم

(٤٦)

الواجب قبل الضمير؟ أم الضمير يأتي أولًا؟ لا يزال السؤال يأكل صدري منذ ذاك اليوم..

هكذا لا يكف (شريف) عن مخاطبة نفسه.

لم أشك لحظة واحدة في براءتها هي وأسرتها، ولكن لو أن كل ضابطٍ مثلي تدخل لإنقاذ من يراه بريئًا فلن تأخذ عدالةٌ مجراها.

لكننا في ظروف استثنائية وضحايا حرب الإرهاب كثيرون، ولأن يفلت عشرة مجرمون من العقاب خير من أن يعاقب بريء واحد، وهي بريئة.. أقسم بالله إنها لبريئة...

هذه التي وقفت تبكي وترتعش من أسئلة أمين الشرطة لها في المطار لا تقدر على إيذاء دجاجة.

يكفيها براءة في روحها أنها وثقت في ضابط أمن وطني وسلمته مصيرها هي وأسرتها.. حتى أسرتها بريئة، حتى أمها المتزمتة دينيًّا، أنا أعرف الفرق جيدًا بين المتزمت والمتطرف المجرم.

وللمرة العاشرة يعيد (شريف) قراءة بريدها الإلكتروني الذي أرسلته إليه (تسنيم) عقب وصولها لندن.

- شريف..

شريف هكذا بدون ألقاب، اعذرني فلم أجد لقبًا مناسبًا أنادي به اسمك، فما بين مشاعر لا أمل لها وامتنانٍ لا حدود له وحواجز أقامتها الدنيا قهرًا لأحلامنا؛ تمتنع كل الألقاب صرفًا عن المعنى ودقة في التعبير.

لقد وصلنا بسلامة الله

بالتأكيد أنت استبشرت ذلك بمجرد وصول بريدي هذا

لصندوقك كما اتفقنا أن أراسلك بمجرد وصولنا المحطة النهائية.

لا حدود لامتناني لك، ولا حدود أيضًا لمدى مقاومتي لساني أن يفصح لأهلي عن حقيقة من دبر لنا الرحلة وكيف، لكني عند عهدي معك بأن هذا سرٌّ وقد دفن للأبد.. كما دفنت معه أشياء أخرى جميلة.

الوفية للأبد

حنين حسين

وفي كل مرة يقرأ رسالتها لا يقدر على منع عينيه من التجاوب مع كلماتها ولا شفتيه عن الابتسام لقراءة الاسم المستعار الذي اختارته لتوقيعها.

وأيضًا لا تطاوعه أنامله على مسح تلك الذكرى الأخيرة من صندوق بريده.

الذكرى التي ستظل دومًا مصدر فخره الإنساني بينه وبين نفسه، بجانب قائمة أخرى طويلة من فخره المهني.

ولكن إن كان ضميري الإنساني قد ارتاح لمساعدتها هي وأسرتها في الهروب من المصير الغامض، فإن ضميري المهني يشير إليّ بأصابع الاتهام والرمي بالخيانة، حتى لم أعد في عملي كما كنت فيه من قبل.

ولن أعود!

وقام (شريف) إلى مكتبه وتناول ورقة بيضاء:

"السيد اللواء / مساعد وزير الداخلية لشئون الضباط

تحية طيبة وبعد

الرجاء من سيادتكم التكرم بالموافقة على قبول استقالتي."

(٤٧)

للمرة الثانية تقف الدكتورة (فاطمة) حاجزًا للزواج بيني وبين ابنها.. لا لم تعارض زواج (عمر) مني وإنما حال اشتداد المرض عليها دون اتخاذ أية خطوات، بل إنها اصطبغت بابتسامة الرضا فوق تعابير الوهن التي رسمتها ريشة المرض حول تجاعيد وجهها السبعيني حينما همس لها حبيبي برغبته، لست أدري إن كان (عمر) قد قرر – حين أخبرها – أن يسابق المرض إليها منتزعًا مباركتها لزواجنا، أو عاتبًا عليها موقفها السابق؛ انظري يا أمي... ها قد دارت الأيام وعادت (مها) إلى أحضان قلبي، ولكن بعد أن ضاع عقد ونيف من أحلى سنوات عمرنا.

لست أدري...

لكن الأيام علمتني أن أحدًا لن يأخذ سوى نصيبه..

وأعلم أن فترة مرض أم (عمر) ثم فترة حداده عليها إنما كانت منحة من الله لـ(لبنى) ومهلة لها كي تدبر لنفسها قاربًا تبحر به من جزيرتي إلى جزيرة أخرى.. وهو ما كان..

- الإمارات يا (لبنى) والغربة من جديد؟ هل أنتِ جادة في قرارك؟

- وهل أنا هنا أقل غربة؟ بل إنني سأكون مجنونة إن لم أمسك بهذه الفرصة بأنيابي ومخالبي، موظفة استقبال في أحد فنادق أبو ظبي ذات السبع نجوم، والإقامة مجانية في الفندق في الجزء المخصص للموظفات، أي أن راتبي سيكون خالصًا لي فيمكنني أن أدخر هناك في الشهر الواحد ما لا أدخره هنا في سنوات.

- وما فائدة جمع المال إذا كان على حساب ضياع أحلى سنوات عمرنا؟

- هل أنتِ من تقول هذا يا (مها)؟ هل تصدقين نفسك حين تقولين أحلى سنوات عمرنا؟ هل سأفاجئك حين أخبرك بأنني لا أنوي العودة من هناك أصلًا إلا سائحة؟

- والزواج يا (لبنى)؟

ضحكتْ ولكن بدون غنج وردت:

- أدركيني فأنا لا ألاحق كثرة عروض الزواج هنا... بل إن الزواج هو أحد أهم أسبابي للسفر.

نظرتُ إليها نظرة ذات مغزى وقلت:

- لكن المغريات هناك...

هزت رأسها في فهم وقالت:

- مثلها مثل المغريات هنا، على الأقل هناك سأجد من لا يهتم بحيازتي لورقة مختومة من جامعة، بل هناك لن أجد ضغطًا ماليًّا يجبرني على التعجل في الزواج، ولا فرق عندي أن يكون زوجي عربيًّا أو آسيويًّا أو إفريقيًّا ويا حبذا لو كان غربيًّا! فأبدأ معه صفحة جديدة في حياتي تأخرتُ كثيرًا في كتابة سطورها السعيدة، واطمأني فأنا أعلم جيدًا أنني لو خطوت هناك خطوة واحدة في طريق التنازلات فلن أستطيع العودة فيها.

أقسم أنني كنت أجادلها إشفاقًا وحبًّا وليس محايلة لضميري للراحة تجاهها، فأنا الآن أمها وبقية أهلها ويجب أن أستوثق من متانة قاربها قبل أن تودعني مبحرة في طريقها إلى حياتها الجديدة التي ترومها.

لكني أعلم أن يد الله لن تكلها كما لم تكلني من قبل، وكما لن تكل ابنتي من بعدي.

نفس ضميري الذي ارتاح تجاه (لبنى) هو نفس ضميري الذي لم يؤنبني حين فرحت لَما أخبرني (عمر) أن زوجته لن

ترضى منه بالزواج عليها وستطلب منه طلاقها، من قال: إن الحب ليس أنانية؟ بل أنا لست أكثر أنانيةً من زوجته التي تستنكر منه سعيه لتحقيق حلمه في الولد طالما أنه لن يتكون في رحمها هي.

وأعلم وأصر أن (عمر) يجب – بعد أن ينتهي من حداده على أمه – أن يخطبني من أبي، كأنني أريد لعجلة الزمان أن تعود لأيام عذريتي الأولى وأيام حبنا الخوالي، أو كأنني أريد إثبات أن الحب أقوى من كل أعرافٍ وتقاليد، بل كأني أريد إثبات أن الأعراف والتقاليد تأتي قبل اعتبارات الحب، أو كأنني أعود بحياتي إلى صفحتها الأولى كأنها هي صفحتي الجديدة...

لكنني في النهاية تعلمت أن لا غَناء لي عن أسرتي.

(٤٨)

أصررت على الاستقالة وحصلت عليها في النهاية.

تحملت ثورة أهلي واعتراضات رؤسائي، ووقفت كالسد الأخرس أمام كل محاولاتهم استنطاقي عن السبب.

الاستقالة غير مسببة ولكن لها في قلبي ألف سبب... أقوى سبب.

لم أعد أحتمل أن أكون أنا لست أنا.

لم أعد أطيق أن أعيش بشخصيتين منفصلتين.

حتى (رضوى) وقضيتها التي كنت أعتبرها النجمة الذهبية في تاريخي تم إخراجها من محبسها المؤبد بفعل الضغوط الدبلوماسية والتسويات السياسية. (رضوى) وعصابتها الوحيدون الذين قرر ضميري مرتاحًا ألا يبالغ في أثناء التحقيق معهم في أساليب الضغط النفسي، وأنهم يستحقون عدة ملايين من فولتات الكهرباء، لكنهم أقروا بكل شيء مع أول طقطقة لفيش الجهاز وقبل أن أشفي حنقي عليهم، وتداركت أعصابي وقتها بصعوبة لأفصل بين موقفي الشخصي وبين دوري كضابط.

حمدًا لله أنها طارت لتعيش في لندن إذ لو بقيت في مصر لكان مصرعها على يدي.

لا أصدق أنها و(تسنيمًا) تعيشان الآن في بلد واحد وبمسمى واحد.

لن أنظر إلى الوراء، ولن أندم على قرار، وسأفتح صفحة جديدة تمامًا في كل شيء في كتاب حياتي.

سأركز كل جهدي ووقتي في صالة اللياقة البدنية التي تشاركت مع صديق لي في إنشائها بعد أن كان متعثرًا في تمويلها وحده.

لقد آليت على (سليم) حتى أجابني لحضور حفل الافتتاح.

كانت فرصة كي أحاول إخراجه من أحزانه بعد مرور هذه الشهور على مصابه الأليم.

كانت فرصة أيضًا كي يتجمع أصدقاء صفحة حنين القدامى، برغم أن أحدًا منهم لم يعد مشرفًا في تلك الصفحة.

جاءوا جميعًا لمجاملتي... عدا (تسنيم) بالطبع، وحلت محلها من لم أنتبه أنها فتاة إلا بعد أن قدمتها لي صديقتها (دنيا):

- هذه (ميادة) المشرف الرئيسي الجديد لصفحة حنين بعد اعتزالنا جميعًا.

لا ليس هذا (سليمًا) كما توقعت أن أراه.. أو لعلي أنا من بالغت في رسم صورته مكتئبًا حزينًا.

لا بأس إن كانت نظرة حزنٍ عميقة لا تزال تومض في أعماق عينيه، لكني ضبطته يضحك.. ومن قلبه، ففترة حداد الإنسان على فقيده تنتهي عمليًا في تلك اللحظة التي يضبط نفسه فيها وهويضحك.

لقد طمأنتني ضحكته على أحواله أكثر من نضارة وجهه ومن قوامه الذي يشهد بأنه صار يتردد على الصالات الرياضية.

لم تأت (مها) وفي صحبتها (لبنى) كما توقعت، بل اصطحبت معها أخاها وأختها (مارلين) وزوجها وشخصًا آخر قدمته لي بأنه خطيبها (عمر)... هذه بالفعل أسرة عجيبة غريبة.

لقد ارتحت بالفعل لـ(عمر) هذا، وبالرغم من أنه أول لقاءٍ لنا إلا أن الكلام أخذنا كأننا معرفة قديمة، عضلاته المنتفخة تشهد بأن زيارة الصالات الرياضية من طقوسه اليومية فلم أستغرب حين أخبرني أن المرحوم والده كان بطلًا ومدربًا

سابقًا للعبة كمال الأجسام وعمل فترة طويلة في التدريب في السعودية، وخبرة (عمر) وأفكاره التجاريتان تنبئانني بأن شراكةً ما قد تقوم بيننا، وأن الصالة الواحدة يمكن أن تصبح سلسلة صالات.

لكن عقلي كان مشغولًا بشيء آخر في أثناء حوارنا الطويل؛ لماذا تأخرت (لبنى)؟ وهل ستأتي أم سيمنعها سابق عرضي لها؟

هل أشتاق لها؟ أم أفتقد فاكهتها وزكي الرائحة من فمها؟

وبالفعل طلع القمر وإن بزغ متأخرًا.

وبنظرة محايدة تمامًا صافحتني مهنئة!

لقد تغيرت (لبنى)!

- (شريف) نحن بحاجة لأن نتحدث فانظر متى أهاتفك؟

هكذا أسرّت لي بعيدًا عن مسامع أحد في حفل الافتتاح، وعبثًا حاولت مواعدتها للقاء بل كانت مكالمتنا من أقصر المكالمات التي دارت بيننا يومًا...

- (شريف) أنا أكلمك الآن وفي يدي عقد عمل في الإمارات وتذكرة للسفر في أي يوم في خلال شهر، لكني على استعداد لإلغاء كل شيء بكلمة واحدة منك.

سكتُّ لدقيقة كي أرتب كلامها في مناطق الاستيعاب عندي ثم قلت:

- لا أحب أن أوضع هكذا أمام الأمر الواقع، مثلما تدعي الفتاة أمام حبيبها أن عريسًا جاهزًا قد جاء يخطبها وأنها فرصته الأخيرة للفوز بها.

ردت من فورها:

- بل دعك أنت من أفانين الشباب في رمي كرة الخطأ والملام في ملعب الفتاة، أستطيع أن أرسل لك فورًا صورة من

العقد على الواتساب إن كنت تعده مجرد ادعاء مني!

- وإذا كنتِ قد وقعتِ عقدكِ وحجزتِ تذكرتكِ، فهل اتصلتِ بي لإغاظتي مثلًا ؟

- لقد قلت لك من دقيقة واحدة: إنني على استعداد للتنازل عن كل هذا مقابل كلمة منك.

أجبتها في ضيق:

- أنا لا أحب سياسة الأمر الواقع ومبدأ خذها أو دعها.

- تذكر أنها كانت طريقة عرضك السابق لي للزواج العرفي؛ خذيه أو دعيه.

سكتُّ دقيقة أخرى أستجمع أفكاري ولكن هيهات وهناك من ينتظر قرارك على طرف الهاتف!

- على الأقل دعي لي فرصة للتفكير كما تركتها لكِ، لا يعقل أن أعطيكِ جوابًا الآن.

سكتت للحظات ثم قالت:

- إذا لم ترد عليّ في خلال أسبوع فسأعلم أنه ردك، لكن تأكد أنني سأنتظر اتصالك كل دقيقة وكل ثانية.

لم أغضب من طريقتها بل لمست كلماتها قلبي.

مسكينة (لبنى)!

بل أنا المسكين؛ إذ أظل أحبس نفسي أسير أعرافٍ زائفة!

لا يعيب الفتاة إلا أن تكون ناقصة الأنوثة أو مملة الصحبة أو سيئة الخلق.

و(لبنى) أيقونة للأنوثة وأبعد ما تكون عن الملل؛ إنها تشجع نفس فريقي في كرة القدم وتعرف الفرق بين الضربة الحرة المباشرة والأخرى غير المباشرة!

لكنها أطعمتك شفتيها غير مرة يا (شريف)!

في ظروفٍ كظروفها ومن واقع ما أعرف من أحوال البنات فهي تعد قديسة بالنسبة لغيرها

فماذا تنتظر إذن؟!

بل ماذا تنتظر أنت مني؟ هل لأنني صرت ضابطًا سابقًا فإن أعرافًا وتقاليد ستدخل خزانة الملابس القديمة في جيب بدلتي الرسمية السابقة؟ هل نسيت أمًّا وإخوة وعائلة وأصهارًا سأقدم لهم زوجتي الجديدة بعد فشل تجربتي السابقة...

- لقد طلقت ابنة سيادة المستشار وأقدم لكم زوجتي الجديدة التي لا أعرف أحدًا من أهلها؛ نادلة في مطعم لكنه مطعم فاخر، ولا بد أن أحدكم قد سبق له زيارة المطعم وبالتأكيد قد لفتت انتباهه بجمالها وابتسامتها الحلوة.

-.....

- إنها لا تحمل أية شهادات من أي نوع، لكنها تجيد الإنجليزية أفضل من أفضل واحدٍ فيكم.

لا لست أبالغ، ولا تزال اعتبارات كهذه تحكم اختيارات أغلب الناس، بل إن نفس الاعتبارات هي ما تمنع قلبي عن الهجرة إلى إنجلترا والزواج ممن أحببتها يومًا، لا شيء يختبئ ولو كان في لندن.

ألم أقل لك سابقًا ألّا حظ لي لا في زواج ولا حب ولا حتى صيد!

وداعًا لبنى.. وداعًا تسنيم!

(٤٩)

لم يكن طلاق أمي من أبي – أو أبي من أمي حسب تعبير النسخة الفيمينست – بالكارثة المروعة كما كنا نتصور أنا وأختي الصغرى، لم يكن له من تأثير كبير على حياتي سوى أنني تنازلت عن إشراف صفحة وجروب حنين لصديقتي (ميادة)، بل هذا أيضًا ليس بالشيء ذي البال فالصفحة بدون سليمي – نعم هكذا صرت أخاطبه بيني وبين نفسي وأحيانًا بيني وبينه – فقدت جُلَّ جاذبيتها... بالنسبة لي على الأقل.

ترك أبي لأمي شقتها بالطبع واستأجر شقة صغيرة لنفسه، وبعد شهورٍ قليلة تخرجت أختي هي أيضًا فرفعت عن أبي كاهل مصروفات جامعتها، و وجد أبي فجأة فائضًا للمال لديه من راتبه إذ عملت أختي فور تخرجها وصارت مثلي تتحمل مصاريف نفسها، فقرر أبي استثمار ذلك الفائض في دفع أقساط شقة تعمد أن يشتريها في التجمع الخامس أيضًا.

صُدمت أمي لَما قررتُ الانتقال للعيش مع أبي.. لقد صارت عصبيتها بعد الطلاق أضعاف ما كانت عليه قبله، فقررتُ التنازل طواعية عن نصيبي من هذه العصبية لأختي، فإذا بها تطالب أختي باللحاق بي! لقد أخذتها الكرامة وظنت أن أختي فضلت البقاء معها لرعايتها في مرضها ورحلة علاجها، وأمي تكابر في إثبات أنها ليست بحاجة للمعونة من أحد.

لا، لم نفرح أن الوحدة قد كسرت غلظة أمي، بل بكينا أنا وأختي وهي تلمّح لنا بأن نتوسط عند أبينا للمّ الشمل من جديد، لكن أبي مجروحٌ في كرامته، ومجروح أكثر بأن عُملته قد صيرها العمر ضعيفة الصرف في سوق النساء، وبعد إلحاحاتٍ مني وبكاءاتٍ من أختي لان قلبه ولكنه اشترط أن تأتي هي لتعيش معنا في شقته حتى وإن كانت أصغر وأن تبادر هي بالاتصال به.

تركت مكوكية إصلاح ذات البين لأختي، فأنا كما قلت لك لم أجد طلاقهما مصيبة، نعم أتمنى عودة المياه لقنواتها، لكن قلبي ما يزال يغَص تجاه أمي بالرغم من فيمينيستيتي.

تركت المهمة لأختي وتفرغت لعملي ولسليمي ولقناته على اليوتيوب، لقد انتقلت القناة نقلة نوعية بعد نجاح سلسلة الجين الميت، فقد اقترح عليه أحد متابعيه ترجمة فيديوهاتها للإنجليزية، ويا حبذا لو أصدر نسخة أخرى منها ناطقة بالإنجليزية، الغريب أن (سليم) تحمس وقتها جدًّا للفكرة وهو الذي عودني ألا يتحمس للجديد دون أن يدفعه أحدٌ إليه دفعًا، حتى تطوير قناته وشراء أجهزة للمونتاج خاصة به وتناسب قناته بعد أن نالت درع المليون متابع كنت أنا من فعلها بدون مشورته وإنما وضعته أمام الأمر الواقع.

أن يكون يوتيوبر فأنا من دفعته إليها.. الطلة الفضائية وقت أن كان يطلها كانت بدفعٍ من (مها) التي لم تضيع وقتًا بعد زواجها من (عمر) حتى بدأت في تحقيق حلمه وحلمها وحلم (ماريا) في بطنٍ واحد.. تنظيم حفلات الصفحة كانت بإلحاح من (تسنيم).. الصفحة نفسها كانت وليدة سلواه والتي لولاها لما عرف في حياته أي صفحة جديدة من صفحات مواهبه.

سلواك يا (سليم)؛ أبهذه السرعة قد سلوتها؟

تبًّا لقلوب الرجال!

من كان يرى حال أيامك الأولى بعد وفاتها كان يشفق عليك أن تئد نفسك حزنًا عليها.

فلم تمضِ شهور على وفاتها حتى جلجلت ضحكاتك ما لم تجلجله أيام حنينك إليها وصفحة حزنك على طلاقها.

ولم تمر الشهور تلك إلا والتقط أنفي من فرموناتك وهرموناتك نحوي مالم يلتقطه طوال عمر صفحة حنينك!

أكان الحنين إذن موصولًا بالأمل في وصالها يومًا؟ أم بَلِيَ

في قلبك كما بليت أوصال سلواك في رمسها؟ أم أن الحياة لا بد لها أن تستمر؟ وللقلوب أن تحيا؟

أكان قلبك حيًا وقت حياتها بالأمل في سلوى، فصار حيًّا بعد وفاتها بالسلوى عن الألم؟

كأن الحب تيار من المشاعر لا بد له من نقطة استقبال كي يسري متدفقًا، حتى وإن غفلت تلك النقطة عن الاستقبال.. حتى وإن رفضت.. أو حتى إن انشغلت بتيار آخر ولانت له واستجابت؛ يبقى التيار ساريًا أو حتى قابلًا للسريان، أما إن عَدِم التيار نقطة استقباله عاد شحنة دفينة تبحث عن مجالٍ لبثها أو تموت بين حنايا مصدرها.

أماتت شحنة حبك يا سليمي أم احتشدت في صدرك دفينة؟ أم تاهت بوصلتها؟ أم احتارت نظراتك تعبيرًا فما عدت أفهم محلي من الإعراب عندك؟

أم أنك تستنفد شحنتك استهلاكًا في إبداع فيديوهاتك حتى تخطى متابعو القناة المليوني متابع؟ كما استنفدْتَ قبلها شحنات الحنين لسلوى في إبداعات صفحة السلوى عن الحنين؟

تبًّا إذن لعواطف الرجال.. تبًّا لأنانيتهم.. بدلًّا من بذل العواطف خالصة لوجه الحب يبتذلونها إبداعًا يخلدون به أنانيتهم في تخليد ذكراهم هم لا في تخليد ذكرى الحب.

وها أنا أشاركك جريمتك يا سليمي، فأساعدك في تحرير نصوص حلقاتك الإنجليزية، وأجري معك بروفاتها قبل أن نشرع في تصويرها، وأستنفد تخصصي في الإعلام في إتقان إخراج حلقاتك كما تستنفد أنت شحنات مشاعرك في إبداعها، ثم نتسلى أنا ومها وتسنيم ولبنى ومارلين – متطوعاتٍ هذه المرة – في مراجعة التعليقات على فيديوهات قناتك التي تخطت الثلاثة ملايين متابع والرد على بعضها كما بدأنا أول

تجمعٍ لنا نعيد ذكريات أيام صفحته الخوالي.

فتبًّا لك يا سليمي إن كنت قد نسيت حبك... وتبًّا لك أكثر إن لم تكن قد نسيته!

***

لا والله ما نسيته.. حدث (سليم) قلبه.

وهل ينسى إنسانٌ اسمه؟!

لكنك لا تذكر اسمك إلا أن يسألك أحد عنه، ثم تمضي في حياتك لأن الحياة يجب أن تستمر، فلا أحد يحيا باسمه فقط...

فلي قلب ينبض ولي صدر يتنفس ولي هرمونات تتدفق، وحرمة من ماتت أجنبية عني أجلّ من أن أجعلها هدفًا لأحلامي الحسية، يكفيني وعدها بأنها لي وأنا لها إن كتب الله لنا الجنة، وأنا أتقرب إلى الله بفيديوهات الجين الميت وأهب ثوابها لمن كانت سببًا فيها، لهذا أشعر بأن الله يبارك فيها لأني لا أطمح إلى مجدٍ شخصي من ورائها، ولم يزدني درع الخمسة ملايين متابع إلا إحساسًا بالمسئولية، فلقد تعلمت الدرس بأنني ذلك النوع من البشر الذي تتحقق أحلامه حين يتوقف عن الشغف بها، وما صفحتي القديمة مني ببعيد.

وأطمح في إصدار نسخ لسلسلة فيديوهاتي الجديدة بالصينية والروسية، فهؤلاء القوم لا يجيدون ولا ينوون إجادة لغة الأمريكان، والبركة في دنياي...

دنياي التي لست أدري كيف كنت بدونها سأنجز هذه النسخة الإنجليزية بل كل فيديوهاتي، بل بدونها ما كنت يوتيوبر أصلًا.

(دنيا) التي كانت خير سلوى لي بعد ذهاب (سلوى).. خير صديق بحق.. أوَ ليست صديقة.. لست أدري بالضبط ما أنا بالنسبة لها وما هي بالنسبة لي، لكنني أدرك جيدًا أنها

صارت دنياي الجديدة التي لا غنى لي عنها بالرغم من أنها قد تغيرت. . .

لقد تغيرت. .

ما عادت تقبل خدي إلا مهنئة عند استلام كل درعٍ مليونيّ جديد من مؤسسة اليوتيوب.

ما عادت تستثير تستوستيروني بضيق ثيابها ولا بقصيره؛ يبدو أنها تصنع ذلك كي تحل البركة من الله على فيديوهاتنا.

الأهم أنها ما عادت تنظر لي تلك النظرات المربكة التي طالما حِرت في فهمها وتفسيرها.

كأنها حلّت فجأة ضفائر الطفولة وفكت جدائل المراهقة.

هل صارت أنضج كما ألمحت لي (تسنيم)؟ أم أنني صرت أحتل عندها خانة الصداقة؟

هل نتنادى بـ (سليمي) و(دنياي) توكيدًا لمسمى صداقتنا؟ أم كناية عن مسمًى أقوى؟

- سليمي، نحن أصدقاء. . .

وانتبهت على صوتها من خواطري، والتقت عينانا، فنظرتْ فيهما نظرة أشد إرباكًا من كل ما عهدته من نظرات عينيها اللوزيتين، ثم سألتني:

- أليس كذلك؟!!

-تمت-

ON THE BANKS OF THE NINTY RIVER

على ضفاف نهر التسعين

وطفقنا نتغنى بأبدع أنغام الطيور حين تشدوها، فجاوبنا صوت الحب مغرداً لنا، وتفنننا في ريِّ أوصالنا بماء العشق، ما نأتي على رشف قطرات كأس منه مترعة حتى نشرع في صبِّ أختها، وقارورة الحب ما لها من نفاد.. وفجأة انهار العش الجميل، وشرد طيري في سماوات شكوكه وتجديفاته، فظننت أن قارورة الحياة قد جف نبعها ولكن جرت في نهر التسعين مياهُ كثيرة، حملت معها أربع زهراتٍ نبتن في صحراء حياتي على غير توقعٍ مني ولا رغبة. ثم تمزقت صفحاتٌ عدة في حيواتنا جميعا، وخُطتْ مكانها أسطرٌ كثيرة.. حتى سِفر الوطن استبدلت ألواحه وسُطِرَتْ من جديد.

كتوبيا
KOTOPIA PUBLISHING HOUSE
978-977-6692-86-2

t.me/twinkling4